فلسفة الحرب
فى الفكر الدينى الإسرائيلى

تأليف

د. محمد جلاء إدريس

أستاذ اللغة العبرية وآدابها

كلية الآداب - جامعة طنطا

سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية

يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

تحت إشراف أ.د/ محمد خليفة حسن

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالى جوهر

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د. أمير إمام ناصف

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز



القارئ العزيز :

يسعد مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة أن يقدم هذا الكتاب الجديد من إصدارات المركز الساعية إلى تنمية الوعى المعرفى بطبيعة المجتمع الإسرائيلى من خلال الدراسات العلمية التحليلية للفكر الإسرائيلى قديما وحديثا، ومن خلال التأصيل العلمى لهذا الفكر برده إلى أصوله القديمة فى الفكر الدينى والتاريخى اليهودى القديم.

وداخل إطار هذا التوجه العام تأتى هذه الدراسة الجديدة للأستاذ الدكتور/ **محمد جلاء إدريس** أستاذ اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب جامعة طنطا. وهى دراسة تأصيلية لمفهوم الحرب فى الفكر الإسرائيلى حيث يتتبع الباحث مبادئ الحرب وأصولها وفنونها عند الإسرائيليين القدامى، وانعكاسات هذه المبادئ على الحرب عند الإسرائيليين المعاصرين.

وقد عالج الباحث فى الباب الأول مفهوم الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى موضحا المفاهيم الخاصة بالإله المحارب، ومعرفا ببنية العقيدة العسكرية الإسرائيلية، ودور البنية الاجتماعية فى الحرب، والطابع الاسطورى للحروب الإسرائيلية فى الماضى، وقد أنهى هذا الباب بتحليل علمى لمفهوم الإبادة فى الفكر العسكرى الإسرائيلى القديم وعلاقته بمفهوم الإبادة فى الفكر العسكرى الصهيونى والإسرائيلى الحديث.

وفى الباب الثانى قدم الباحث معالجة لفنون القتال عند الإسرائيليين كما وردت فى المصادر اليهودية القديمة ومن أهمها العهد القديم حيث عُرف الباحث بالتخطيط العسكرى، ومعدات القتال، ومعارك الإسرائيليين كما وردت فى أسفار العهد القديم، وأنهى هذا الباب بإعطاء بعض نتائج هذه الحروب الإسرائيلية.

وفى خاتمة هذا الكتاب ربط القديم بالحديث وتأصيل لمفهوم الحرب وللعقيدة العسكرية الإسرائيلية من خلال العودة إلى التوراة وأسفار العهد القديم لتحديد أصول الفكر العسكرى، وأسس المنهجية العسكرية الإسرائيلية. ويأخذ مفهوم الإبادة بعدا خاصاً فى هذه الخاتمة حيث رد الباحث فكرة الإبادة إلى إصولها التوراتية وحدد معالمها فى بقية أسفار العهد القديم.

وفى ربط بين الماضى والحاضر تخرج هذه الدراسة بنتيجة مهمة وخطيرة فى نفس الوقت. وهى أن الفلسفة الحديثة للحرب فى إسرائيل لم تتغير كثيرا عن نفس الفلسفة القديمة. لقد تتغير فنون القتال والخطط العسكرية والمعدات وأنواع الاسلحة. أما العقلية العسكرية وما طورته من عقيدة عسكرية ومفهوم للحرب فهذا لم يتغير مطلقا. إن العقلية الإسرائيلية المعاصرة يسيطر عليها مفهوم الإبادة الذى لا يمنع الإسرائيليين المعاصرين من ارتكاب أفظع الجرائم المؤدية إلى تحقيق هدف الإبادة. ولعل فى الأحداث الاخيرة المرتبطة بانتفاضة الأقصى اكبر الدليل على أن السياسة العسكرية الإسرائيلية تسعى إلى إبادة الفلسطينيين إبادة كاملة وبكل الوسائل الممكنة الأمر الذى أدى بإسرائيل إلى ارتكاب كل الانتهاكات التى يحرمها القانون الدولى فى الحرب مع مراعاة أنها حرب من طرف واحد. فالجيش الإسرائيلى بكل معداته وأسلحته يدخل فى حرب معلنة ضد شعب أعزل يقاتل بالحجر. ويتظاهر الإسرائيليون بأن هناك حربا بالفعل فيستخدمون الطائرات والصواريخ والدبابات ويحاربون من الجو والبحر والبر إنها العقلية الحربية التى نشأت وتربت قديما وحديثا على مفهوم الإبادة. ولم يمنعها دينها من ممارسة كل السلوكيات غير الأخلاقية فى حرب معلنة ضد شعب أعزل. ولاتفرق عقلية الإبادة بين أطفال وشيوخ ونساء وأسرى ونباتات وحيوانات. فالمطلوب إبادة الشعب بكل فئاته وكائناته ويجب أن نلاحظ أن رجال الدين فى إسرائيل من أقوى فئات المجتمع الإسرائيلى تمسكا ومطالبة بتحقيق الإبادة التامة لأن المسألة عندهم مرتبطة بالدين والعقيدة العسكرية فى التوراة.

وتأثير رجال الدين على الجيش الإسرائيلى تأثير كبير ومستمر ولذلك ستستمر هذه العقيدة العسكرية. وسيستمر الصراع ولن يفلح السلام فى تغيير هذه العقلية العنيفة أو تغيير سلوكها العسكرى.

ومع إيماننا بأهمية هذا العمل ودوره فى توضيح عقيدة الحرب عند الإسرائيليين نتوجه بالشكر الجزيل إلى مؤلف الكتاب الأستاذ الدكتور/ محمد جلاء إدريس على هذا المجهود القيم الذى سيستفيد منه المتخصصون فى الفكر العسكرى وفى التاريخ اليهودى والديانة اليهودية ، وفى فهم طبيعة المجتمع الإسرائيلى الحديث.

أ.د. محمد خليفة حسن
مدير مركز الدراسات الشرقية

مقـدمـــة

من الأمور الملفتة للانتباه فى نصوص العهد القديم تلك، المعالجة المسهبة لظاهرة الحرب، وكثرة وقوعها دون أن يقتصر شيوعها على مرحلة دون أخرى من تاريخ أصحابها.

ومحاولتى هنا لدراسة هذه الظاهره ليست فريدة. فهناك كتابات عربية وغير عربية عالجت موضوع الحرب فى النصوص العبرية المقدسة، ولكنى على يقين من أن لكلٍ وجهته وفهمه للنصوص، وطرق ربطه واستنتاجاته.

إن أبرز ما جذبنى للكتابة فى هذا الموضوع هو اقتناعى بأن هذه النصوص قد باتت مقنعة للكثيرين، فهى بمثابة دعاية للحرب، اتخذت لها قواعد وعُمداً استطاعت أن تكسب بها مظهر الصدق لبساطةٍ فى عرضها، وتكرارٍ لمحتوياتها، حتى تمكنت من مشاعر الناس، ورسخت فى أذهانهم.

ولايمكن لنا أن نفصل بين تاريخ الحروب الإسرائيلية فى القديم والحديث، ولكنى آثرت أن أكتفى بمعالجة الشق الأول بإسهاب، وأترك تفاصيل الشق الثانى لغيرى، وإن كنا لانعدم وجود وحدة موضوعية بارزة بين عناصر الحروب الإسرائيلية كما نقلتها لنا أسفار العهد القديم، وعناصرها كما سجلها لنا تاريخ منطقتنا المعاصر، ولذلك اكتفيت بمقارنة موجزة لحروب الماضى مع حروب الحاضر فى خاتمة هذه الدراسة.

كما زاد اقتناعى بأن معرفة إسرائيل المعاصرة، والوقوف على فكرها السياسى والحربى، لايمكن أن يتم إلا من خلال دراسة العهد القديم دراسة عميقة، حيث تمكننا مثل هذه الدراسة من التنبؤ بما يمكن أن تكون عليه الأحداث الجارية، وما يمكن أن تكون عليه خرائط المستقبل، فالإسرائيليون لايخفون كتابهم، ولا يفاجئون بأفعالهم إلا السذج، لأن القارئ لنصوصهم يمكن له بسهولة أن يحدد خطواتهم الآن، وغداً.

وإذ أسجل على هذه الصفحات تحليلاً لظاهرة الحرب وتوابعها فى تاريخ بنى إسرائيل القديم، فإنى أسجل فى نفس الوقت شهادة وثائقهم من خلال إيراد كثير من النصوص الدينية المقدسة المتعلقة بالحروب لتكون شهادة أمام تاريخ البشرية جمعاء.

والله الهادى إلى سواء السبيل،،،

الأستاذ الدكتور

محمد جلاء محمد إدريس

أستاذ اللغة العبرية وآدابها

كلية آداب - جامعة طنطا

الفهـــــرس

الباب الأول

مفهوم الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي

الفصــل الأول

الإلــه المحــارب

العلاقة بين الرب والحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى علاقة وثيقة. فهو الذى يحدد الأعداء، ويأذن بالحرب أو يمنعها، وهو الذى يقود إلى النصر أو يودى بشعبه إلى الهزيمة، بل هو «المحارب»، وهو «رب الجنود».

فإله العبريين «يهوه» يحدد بادئ ذى بدء أعداء شعبه المختار على نحو ما جاء فى سفر التثنية (٧/١ - ٢) :

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك : الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، سبعة شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربهم...»

ولم يقف تصنيف الأعداء عند هذه الأمم وحسب، وإنما لحق بهم - وفق أوامر يهوية كذلك - الفلسطينيون والأدوميون والموآبيون والعمونيون والعمالقة. وهؤلاء جميعاً كانوا من المقيمين فى فلسطين، ولم يكن أمام بنى إسرائيل مفر من الصدام معهم، طالما أن جوهر النزاع هو احتلال الأرض.

أما هؤلاء الأعداء فيمكننا التعريف بهم - بإيجاز بالغ - على النحو التالى :

١- الحثيـــون :

لايعرف بالتحديد العنصر الذى ينتمى إليه الحثيون، إلا أنه من المؤكد أنهم ليسوا ساميين، وربما توحى صورهم فى الآثار المكتشفة بأنهم قد جاءوا من جبال ثلجية. وينبغى التمييز تاريخياً بين الإمبراطورية الحثية والولايات الحثية فى شمال سوريا وجنوب شرق آسيا الصغرى. وطبقاً لعلم الحفريات، تنطبق كلمة حثيين على بقايا ثقافة شهيرة متميزة كانت فى آسيا الصغرى، شمال سوريا وشمال العراق. وقد جاء الحثيون إلى آسيا الصغرى حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م، ويشتق اسم حثيين من «حاتى» أى «أناضوليا»، وعاصمتها «حتوشاش».

وقد وردت الكلمة «حثى» و«حثيون» حوالى سبع وأربعين مرة فى العهد القديم، بينما وردت كلمة «حث» أربع عشرة مرة، ويذكر الحثيون على أنهم من الأمم الساكنة كنعان قبل دخول العبريين إليها (انظر : تكوين ١٥/٢٠، خروج ٣/٨. تثنية ٧/١، ٢٠/١٧، يشوع ٣/١٠، ٣١١، ٢٤/١١) وهم ذرية «حث» ثانى أبناء كنعان.

وتشير أسفار العهد القديم إلى تزاوج العبريين - فيما بعد- مع الحثيين (قضاة ٣/٥ . ٦)، وكان لداود أصدقاء حثيون (صموئيل أول ٦/١٦)، كما تزوج من «بشسبع» - امرأة أوريا الحثى- (صموئيل ثان ١١/٢ - ٢٧)، وكان لسليمان نساء حثيات من بين نسائه «ملوك أول ٩/٢٠ - ٢٢، أخبار الأيام الثانى ٨/٧-٩).

وكان الحثيون فى نظر العبريين من الشعوب القوية التى اعترفوا بأرضها (يشوع ١/٤). وكان ملوكهم يذكرون فى مصاف ملوك آرام (ملوك أول ١٠/٢٩)، وملوك المصريين (ملوك ثان ٧/٦). [١]

٢- الأمــوريـــون :

أحد الشعوب الناطقة بلغة سامية، حكموا أجزاء من فلسطين وسوريا وبابل بعض الزمن، وكان البابليون يدعون سوريا وفلسطين : أرض الأموريين فيما قبل الألف الثانى قبل الميلاد. ويعتبر حمورابى من أشهر ملوك الأسرة الأمورية الأولى التى حكمت فى بابل من القرن ١٦-١٩ ق.م.

أما نسب هؤلاء فيرجعه سفر التكوين إلى كنعان (١٠/١٦)، وكانوا قبيلة هامة زمن إبراهيم يقطنون جنوب فلسطين (تكوين ١٤/٧؛ ١٣)، واستمروا فى هذه المنطقة حتى زمن الخروج (عدد ١٣/٩، تثنية ١/٧؛ ١٩؛ ٢٠؛ ٤٤) بالإضافة إلى مناطق أخرى فتحوها قبل الخروج مثل ما وراء الأردن من نهر أرنون فى الجنوب إلى جبل حرمون فى الشمال (عدد ٢١/٦، تثنية ٣/٨؛ ٤/٤٨، يشوع ٢/١٠؛ ٩/١٠، قضاة ١١/٢٢). وقد هزم العبريون ملكين من ملوك الأموريين هما سيحون ملك حشبون، وعوج ملك باشان (عدد ٢١/٢١؛ ٣٣)، واحتلوا أرضهما، كما غزا يشوع الأموريين فى غرب فلسطين (يشوع ١٠/٥ - ١٢).

وقد بقى الأموريون فى أرض كنعان بعد احتلال العبريين لها (قضاة ١/٣٥؛ ٣/٥)، وعقد العبريون معهم صلحاً فى زمن صموئيل (صموئيل أول ٧/١٤).

واستعبد سليمان جميع من بقى من الأموريين (ملوك أول ٩/٢٠ - ٢١).

٣- الكنعانيون :

ينتسبون حسب التوراة إلى كنعان، ابن حام الرابع (تكوين ١٠/٦) وحفيد نوح، وجد القبائل التى قطنت أراضى غربى الأردن المسماة كنعان. وأرض كنعان (تكوين ١٢/٥) هى الأرض التى سكنتها ذرية كنعان واحتلها الإسرائيليون فيما بعد (خروج ٦/٤، لاويين ٢٥/٣٨)، وحدودها الأصلية مدخل حماة إلى الشمال، وبادية سوريا والعرب إلى الشرق، وبادية العرب إلى الجنوب، وساحل البحر المتوسط إلى الغرب وقد عيّر الإسرائيليون اسم أرض كنعان بعد الاستيلاء عليها وأصبحت «أرض إسرائيل» (صموئيل اول ١٣/١٩)، وسميت كذلك بالأرض المقدسة (زكريا ٢/١٢)، وأرض العبرانيين (تكوين ٤٠/١٥).

وقد قصد تارح أبو أبرام - إبراهيم فيما بعد - أرض كنعان لكنه لم يصل إليها (تكوين ١١/٣)، كما سكنها أبرام فوعده الرب بها ملكاً له (تكوين ١٢/٥؛ ٨) ثم سكنها اسحق ويعقوب وأولاده (تكوين ٢٦/٤٥) وتركوها بسبب المجاعة (تكوين ٤٦) إلى مصر. ونظر إليها موسى من عبر الأردن ولم يتمكن من دخولها (تثنية ٣٤/١-٥)، واحتلها يشوع ١١/٢٣، وقسمها بين الأسباط الاثنى عشر بالقرعة (يشوع ١٣ ٧

وقد حكمت التوراة على سكان هذه الأرض - الكنعانيين - بالهلاك (تثنية ٢٠/ ١٧) لكن بنى إسرائيل لم يقدروا على ذلك واكتفوا بفرض الجزية عليهم فى بعض المناطق المحتلة (قضاة ١/ ٢٧ - ٣٦)، وكذلك فعل سليمان بهم علاوة على تسخيرهم له فى مملكته (ملوك أول ٩/ ٢٠ - ٢١).

وجدير بالذكر أن الكنعانيين قد اشتهروا وذاع صيتهم بالتجارة حتى أصبح اسم الكنعانى مرادفاً للتاجر (اشعياء ٢٣/ ٨). (٢)

٤- الفرزيـــون :

تعنى كلمة الفرزيين أهل الريف. وهم طائفة كنعانية أحصيت ضمن قبائل فلسطين (تكوين ١٥/ ٢٠، خروج ٣/ ٨، يشوع ٩/ ١)، وربما كانوا من السكان الأصليين للبلاد ومن عنصر غير كنعانى وأقدم منهم، إذ يرد ذكرهم منذ أيام إبراهيم ولوط (تكوين ١٣/ ٧، يشوع ٧/ ١٥)، ولم يذكروا ضمن نسل كنعان فى (تكوين ١٠/ ١٥).

سكن الفرزيون المنطقة الجبلية فى عصر يشوع (يشوع ١١/ ٣) وتم تخصيص أرضهم فيما بعد لسبطى إفرايم ومنسى (يشوع ١٧/ ١٥) ويهوذا (قضاة ١/ ٤ - ٥).

وفى مخالفة صريحة لنص إبادة الفرزيين الوارد فى سفر التثنية (٧/ ٣)، تزوج بنو إسرائيل منهم، بل عبدوا آلهتهم (قضاة ٣/ ٥ - ٦)، وقد سخرهم سليمان فيمن سخر (ملوك أول ٩/ ٢٠ - ٢١).

٥- الحويـــون :

ينتسب الحويون إلى منطقة كنعان قبل الغزو الإسرائيلى لها (تكوين ١٠/ ١٧، خروج ٣/ ١٧، يشوع ٩/ ١). وقد انقسم الحويون إلى عدة جماعات، سكن بعضها شكيم (نابلس) فى عصر يعقوب (تكوين ٣٣/ ١٨؛ ٣٤/ ٢) وبقى تأثيرهم لعدة أجيال بعد الغزو الإسرائيلى (قضاة ٩/ ٢٨)، كما سكن البعض الآخر فى جبعون وما حولها، وكان لهم اتفاق سلام مع يشوع واستخدمهم يشوع فى أعمال جمع الحطب والسقيا (يشوع ٩) وكان للحويين قرى على سفح جبل لبنان من جبل حرمون وحتى مدخل حماة (يشوع ١١/ ٣، قضاة ٣/ ٣) واستمروا فى

ملكيـة هذه القرى حتى عصر داود (صموئيل الثانى ٢٤/٧)، وتمكـن سليمان من تسخير من بقـى منهم فى البلاد وبخاصـة فى أعـمال البناء (ملوك أول ٩/ ٢٠-٢٢؛ أخبـار الأيام الثانـى ٨/٧- ٨).

٦- اليبوسيون :

يبوس، قبيلة كنعانيـة سكنت أورشليم والجبال التى حولها فى أيام يشوع (تثنيـة ٧/١؛ ٢٠/١٧)،، وقد اتحد اليبوسيـون مع بعض الملوك ضد جبعون، لكن يشوع هزمهم وقتل أدونى صادق ملكهم (يشـوع ١٠/١٣ - ٢٦)، وجعـل أرضـهم من نصيـب سبط بنيـامين (يشـوع ١٨/٢٨)، كما احتل رجال يهوذا مدينتهم التى كانت على الحدود معهم وأحرقوها (يشـوع ١٥/٨، قضـاة ١/٨)، لكن اليـبوسـيين بقـوا فى مـدينتـهم وسكنوا مع بنى بنيـامين ويهـوذا (يشـوع ١٥/٦٣، قضـاة ١/٢١)، بل وظلوا يسـيطرون على حصن صـهيـون حتى زمن داود الذى استولى على هذا الحصن وجعله جزءاً من عاصمتـه، لكنه أيضاً لم يتـمكن من طردهم تماماً (صموئيل الثانى ٥/٦-٩) إذ بقى أرونة اليبوس (صموئيل الثانى ٢٤/٢٦-٢٥) الذى اشترى داود منه بيدره (جُرنه) وبنى مكانه الهيكل فيما بعد. وقد تمكن سليمان من إخضاع بقيـة اليبـوسيين وسخرهم وفرض عليهم الجزية (ملوك أول ٩/ ٢٠ - ٢١)، كما بقى بعض اليبوسيين فى يهوذا إلى ما بعد العودة من السبى البابلى (عزرا ٩/١-٢).

٧- الفلسطينيون :

جاء ذكر الفلسطينيين فى جدول أنساب «مصرايم» فى سفر التكوين (١٠/٤) مع أنهم لا ينتمون عرقياً لمصرايم، ولعلها صلة سياسية لا عنصرية، فهم حسبما جاء فى (إرميا ٤٧/٤ وعاموس ٩/٧) من سكان جزيرة أو ساحل كفتور. وجاءوا فى موجات متعاقبـة إلى فلسطين قبل عـصر الآباء، واستـقروا فى بئر سبع (تكوين ٢١/٣٢ - ٣٤؛ ٢٦/١)، ودخلـوا فى صراع مع إبراهيم واسحق، ثم جاءت موجة أخرى منهم من كريت بعد طردها من مصـر فـى

زمن رمسيس الثالث عام ١١٩٤ ق.م تقريباً واحتلت المنطقة الساحلية جنوب فلسطين وأسست عدة مدن هى : غزة وعسقلان وجت وأشدود وعقرون، كما سيطروا على مناطق أخرى من يهوذا فى عصر القضاة. (٣)

وكان الفلسطينيون من ذوى البأس فى أيام خروج بنى إسرائيل من مصر، ولهم مدنهم الحصينة التى تتاخم الطريق الساحلية المؤدية من مصر إلى كنعان بعد اجتياز الصحراء، الأمر الذى جعل الإسرائيليين يتخذون طريقاً آخر (خروج ١٣/١٧ - ١٨)، كما لم يهاجم يشوع مدنهم الساحلية ولا مدينة جت فى الهضاب السفلى (يشوع ١٣/٢-٣، قضاة ٣/٣)، وإن تم الاستيلاء على بعض مدنهم فيما بعد (قضاة ١/١٨)، لكنهم استردوها مرة أخرى وسقط الإسرائيليون فى قبضتهم (قضاة ١٠/٦- ٧)، وتم إذلالهم حتى أنقذهم شمشون، وكانوا سبباً فى هلاكه (قضاة ١٤/١٦).

وتمكن الفلسطينيون من هزيمة الإسرائيليين فى أول عهد صموئيل واستولوا على تابوت الرب (صموئيل أول ٤/٦)، وتمكن صموئيل من هزيمتهم بعد ذلك (صموئيل أول ٧/٣ - ١٢).

ويشير سفر صموئيل الأول (١٣/١٩ - ٢١) إلى احتكار الفلسطينيين لصناعة الأسلحة والآلات، ومن ثم بلغوا شأواً كبيراً فى عهد شاؤل (صموئيل أول ١٠/٥؛ ١٢/٩؛ ١٤/٥٢)، لكن شاؤل تمكن هو وابنه يوناثان من هزيمتهم (صموئيل أول ١٣/١؛ ١٤/٣١). واستمرت الحروب سجالاً بينهم وبين شاؤل وداود، ومع هذا احتمى بهم داود مرتين هروباً من شاؤل (صموئيل أول ٢١/١٠ - ١٥؛ ٢٧/٢٩).

وقد تغلغل الفلسطينيون فى قلب كنعان بعد أن هزموا شاؤل فقتلوه هو وأولاده على جبل جلبوع (صموئيل أول ٢٨/٤؛ ٢٩/ ١١....)، لكن داود تمكن من ردهم وحاربهم فى عقر دارهم (صموئيل الثانى ٣/١٨؛ ٥/١٧ - ٢٥، ٨/١؛ ٢١/١٥ - ٢٢؛ ٢٣/٩-١٧، أخبار الأيام الأول ١١/٣؛ ١٨/١؛ ٢٠/ ٤-٥)، ولايرد ذكرهم كثيراً بعد موت داود وإن استمروا بعد انقسام المملكة فى محاربة المملكتين من حين إلى آخر. (٤)

٨- الأدوميـــون :

هم نسل عيسو (آدوم) بن اسحق (تكوين ٣٦/١- ١٩)، طردوا الحوريين من أرض آدوم وسكنوا مكانهم (تثنية ٢/١٢). وكان حكام آدوم أشبه برؤساء القبائل فى بداية أمرهم (تكوين ٣٦/١٥- ١٩)، لكنهم صاروا قبل قيام مملكة داود يلقبون بالملوك (تكوين ٣٦/٣-٣٩).

وقد رفض ملك آدوم طلب موسى بالمرور ومن معه من بنى إسرائيل بعد الخروج من مصر من خلال أرضه، وخرج لقتال موسى، لكن الأخير تحول عنه (عدد ٢٠/١٤ - ٢١)، ولا ندرى مبرر تحول بنى إسرائيل عن آدوم، ولا السبب فى مخاطبة موسى لملكهم بقوله : «أخوك إسرائيل» (عدد ٢٠/١٤)، واعتبار الأدومى أخا للإسرائيلى فيما بعد (تثنية ٢٣/٧)، واعتبار الجيل الثالث من نسلهم ضمن جماعة الرب (تثنية ٢٣/٨).

وقد حارب شاؤل الأدوميين (صموئيل أول ١٤/٤٧)، وغزا داود آدوم وأقام عليها حراساً واستعبد أهلها (أخبار الأيام الأول ١٨/١١). وقد تحالف أحد ملوك آدوم - وهو هدد - مع مصر ضد سليمان (ملوك أول ١١/١٤ - ٢٢)، وغزا الأدوميون فى تحالف مع العمونيين والموآبيين يهوذا فى عهد يهوشافاط إلا أنهم تقاتلوا وأفنى بعضهم بعضاً فى حرب أثارها بينهم رب إسرائيل (أخبار الأيام الثانى ٢٠/١؛ ٢٢ - ٢٣).

كما عاون الأدوميون بنى إسرائيل فى حروبهم ضد «ميشع» ملك موآب (ملوك ثان ٣/٤- ٢٧)، بعدها ثاروا على يورام بن يهوشافاط الذى قهرهم لكنه لم يتمكن من إخضاعهم (ملوك ثان ٨/ ٢٠).

وفى عهد آحاز، غزا الأدوميون سبط يهوذا وأسروا بعضهم بمعاونة «فقح بن رملياً».

أما بعد السبى، فقد استولى الأدوميون على أرض يهوذا حتى حبرون، إلى أن طردهم الأنباط من جبل سعير فى القرن الخامس قبل الميلاد، كما تمكن يهوذا المكابى ومن معه من الاستيلاء على حبرون فى القرن الثانى قبل الميلاد. (٥)

٩- الموآبيـون :

تسمية «موآب» سامية أطلقت على بكر ابنة لوط من أبيها (تكوين ١٩/٣٧)، ثم أطلقت على الموآبيين (عدد ٢٢/٣ - ١٤، ملوك أول ١/١؛ ٤٨)، وعلى أرض الموآبيين التى يقابلها اليوم القسم الشرقى من البحر الميت.

كان الموآبيون بعد خروج بنى إسرائيل من مصر أمة قوية، إلا أن الأموريين كانوا قد طردوهم إلى جنوبى أرنون (عدد ٢١/٣، قضاة ١١/١٨).

وفى عصر القضاة أخضع الموآبيون بنى إسرائيل وفرضوا عليهم الجزية إلى أن تم قتل عجلون ملكهم (قضاة ٣/١٢- ٣٠). وقد حارب شاؤل موآب، واحتمى داود بهم (صموئيل أول ٢٢/٣-٤)، ثم ضربهم بعد أن تمكن من العرش واستعبدهم (صموئيل ثان ٨/٢). وقد أصبحت موآب بعد موت سليمان جزءاً من المملكة الشمالية، ورفضت دفع الجزية بعد موت آخاب، وهجم الموآبيون على بنى إسرائيل فى عهد يهوشافاط، لكنهم انهزموا، وتحالف يهورام ويهوشافاط ضدهم وخربوا مدنهم (ملوك ثان ٣/٦- ٢٧). واستمرت موآب تارة خاضعة وتارة أخرى مستقلة، واستمر عداؤها لبنى إسرائيل.

١٠- العماليـق :

عماليق فى الأصل هو ابن اليفاز بن عيسو أمير آدوم (تكوين ٣٦/١٢)، وربما كان جد العمالقة الذين يعتبرون من أقدم الشعوب التى سكنت جنوب سوريا (عدد ٢٤/ ٢٠) وهم من ذرية عيسو بن اسحق. كانوا يقطنون فى البداية قرب قادش جنوب فلسطين عندما جاء بنو إسرائيل من مصر (عدد ١٣/٩؛ ١٤/٢٥)، وكان يمكن رؤية بلادهم من فوق جبل «عباريم» (عدد ٢٤/ ٢٠، تثنية ٣٤/١- ٣).

كان العمالقة مصدر قلق وإزعاج للإسرائيليين بسبب اعتداءات الأخيرين على ممتلكاتهم، وأول معركة هامة بين الجانبين كانت فى «رفيديم» غرب سيناء، وانتصر فيها بنو إسرائيل (خروج ١٧/٨- ١٦، تثنية ٢٥/١٧- ١٩)، لكنهم استجمعوا قواهم ووقفوا فى وجه بنى إسرائيل مرة أخرى عندما أرادوا التوسع على حسابهم شمالاً (عدد ١٤/٤٣- ٤٥).

وقد تحالف العمالقة - بعد هزيمتهم من موسى ويشوع - مع عجلون ملك موآب، كما تحالفوا مع جيرانهم الميديانيين ضد الإسرائيليين (قضاة ١٣/٣؛ ٣/٦)، وقد عاداهم شاؤل، وأسر صموئيل ملكهم وذبحه، وطاردهم داود واسترد منهم «صقلغ» (صموئيل أول ١٥/ ٣٠)، وطاردهم كذلك حزقيا في جبل سعير (أخبار الأيام الأول ٤/٤٣). (٦)

هذا تعريف موجز «لأعداء» بني إسرائيل المذكورين في النصوص، ومن جانب آخر، نجد ارتباطاً وثيقاً بين الحرب والأرض، إذ كان للرب «يهوه» دوره في استثناء بعض الأمم والشعوب من المواجهة مع شعبه، ولأسباب تتعلق - كذلك - بالأرض. فطالما أن الرب قد استثنى أرض قوم من الوعد المقطوع مع شعبه، فلا ضرورة للحرب، حتى وإن كان هؤلاء لا يؤمنون به ولا يعترفون بألوهيته ولا قدسية شعبه.

جاء في سفر التثنية ٩/٢ :

«فقال لي الرب : لا تعاد موآب، ولا تثير عليهم حرباً لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثاً. لأني لبني لوط قد أعطيت عار ميراثاً».

ويظهر دور الرب «يهوه» جلياً إذا ما قارنا النص السابق بنص آخر في نفس السفر ونفس الإصحاح، يأمر فيه يهوه أتباعه بشن الحرب لاحتلال الأرض :

«قوموا، ارتحلوا، واعبروا وادي أرنون. انظر : قد دفعت إلى يدك سيحون ملك حشبون الأموري وأرضه. ابتدئ. تملك، وأثر عليهم حرباً». (تثنية ٢/٢٤).

لقد ارتبط الرب بالحرب - كما تعكس نصوص العهد القديم ذلك - ارتباطاً وثيقاً حتى أصبح هذا الارتباط يمثل مكوناً أساسياً من مكونات العقلية الإسرائيلية. وقد لفت هذا الأمر انتباه بعض الباحثين، إذ خصصت ماري إلين قسماً كبيراً من كتابها عن حياة ولغة العهد القديم، جعلت عنوانه : «العقل العبري القديم»، أبرزت فيه مكانة الرب في هذا العقل، وكذلك مكانة الرب من الحروب الإسرائيلية. (٧)

وهكذا يمكننا استنباط الدافع الرئيسي لحروب بني إسرائيل، ألا وهو احتلال أراضي الأمم الأخرى، بأمر إلهي صريح، ولا بأس من التنازل عن بعض هذه الأراضي، بأمر الرب أيضاً.

مفهوم الحرب المقدسة :

لا شك أن الشكل العام لحروب بنى إسرائيل كما تصوره لنا أسفار العهد القديم يرتبط بمفهوم الحرب المقدسة، وقد زاد الاعتقاد بذلك منذ أن نشرت دراسة فون راد عام ١٩٤٩ (Gerhard vin Rod, Der heilige Krieg im alten Israel - G ö Hingen : Vandengohoeck & Ruprecht, 1949 = 1962).

ومع أن مصطلح الحرب المقدسة (٨) ليس مصطلحاً توراتياً، وإنما هو مجرد استنتاج من مضامين النصوص التى نعالجها هنا، حيث تطرح علينا أسفار العهد القديم مصطلحات «موازية» على نحو ما نجد فى (صموئيل الأول ٢٨/٢٥) «حروب الرب» وغيرها.

وأبرز ملامح هذه «الحرب المقدسة» التى نستشفها من النصوص هى :

١- دق الطبول إعلاناً عن الحرب المقدسة.

٢- تسمية الجيش باسم «شعب يهوه».

٣- قداسة المشاركين فى الحرب.

٤- التضحية وتقديم الذبائح واستشارة يهوه.

٥- الإعلان عن النصر من قبل الإله يهوه.

٦- الزعم بأن الحرب هى حرب يهوه، وأن العدو عدوه.

٧- الإعلان عن أن يهوه يخرج أمام الجيش.

٨- التشجيع والحث على عدم الخوف.

٩- صيحة الرب.

١٠- رعب يهوه بين قوات العدو.

١١- ممارسة سياسة التحريم (٩) = الإبادة أو الهوكولوست بأمر الرب.

وفيما يلى نسوق بعض الشواهد على علاقة إله إسرائيل بالحرب، وما يعكسه ذلك من دلالات تؤكد ما يحتويه مصطلح «الحرب المقدسة»، بل وربما تفوقه

أوضحت فى بداية الحديث هنا أن تحديد هوية الأعداء قد جاء من قبل الرب، وهذا فى اعتقادنا ضرورة هامة من ضروريات استراتيجية أى شعب من الشعوب من العدو، ومن الصديق. إنها قضية تم حسمها

وأول ما يطالعنا فيما يتعلق بالنصوص التى تشير إلى قداسة حروب بنى إسرائيل ودور الرب فيها أن «يهوه» هو الذى يثير العداوة بين الأمم من جانب، وبنى إسرائيل من جانب آخر

فمن الحروب المبكرة التى خاضها الإسرائيليون كانت المواجهة بين موسى وأتباعه من ناحية، وسيحون ملك حشبون من ناحية أخرى، وشاء «يهوه» أن يثير أسباب الحرب وبخاصة من جانب ملك حشبون حتى نجد مبرراً لتلك الحرب

«لم يشأ سيحون ملك حشبون أن يدعنا نمر به، لأن الرب إلهك قسّى روحه وقوّى قلبه لكى يدفعه إلى يدك كما فى هذا اليوم»
(تثنية ٢/ ٣٠)

والأمر ذاته فى حروب يشوع

«لم تكن مدينة صالحت بنى إسرائيل إلا الحويين سكان جبعون بل أخذوا الجميع بالحرب لأنه كان من قبل الرب أن يشدد قلوبهم حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة فيحرموا فلا تكون عليهم رأفة بل يبادون كما أمر الرب موسى» (يشوع ١١/ ١٩ - ٢٠)

ولا يخفى الدعم «اليهوى» للمحاربين الإسرائيليين، ذلك الدعم الذى اتخذ عدة أشكال منها

١- التشجيع والحث ورفع الروح المعنوية :

« ثم تحولنا وصعدنا فى طريق باشان، فخرج عوج ملك باشان للقائنا هو وجميع قومه للحرب فى إذرعى، فقال لى الرب : لا تخف منه، لأنى قد دفعته إلى يدك وجميع قومه وأرضه ... » (تثنية ٣/٢- ٣).

« لا ترهب وجـــــوههم لأن الرب إلهك فى وسطك إله عظيم ومخوف ». (تثنية ٢١/٧)

« تشددوا وتشجعوا. لا تخافوا ولاترهبوا وجوههم ... » (تثنية ٦/٣١)

« لا أهملك ولا أتركك. تشدد وتشجع... » (يشوع ٥/١ - ٦)

« فقال الرب ليشوع. لا تخفهم، لأنى بيدك قد أسلمتهم. لا يقف رجل منهم بوجهك... » (يشوع ٨/١٠).

« فقال الرب ليشوع : لا تخفهم، لأنى غداً فى مثل هذا الوقت أدفعهم جميعاً قتلى أمام إسرائيل، فتعرقب خيلهم، وتحرق مركباتهم بالنار ». (يشوع ٦/١١)

٢- طرد العدو من أمام إسرائيل والقضاء عليه :

« متى قرض الرب إلهك الأمم الذين الرب إلهك يعطيك أرضهم وورثتهم، وسكنت مدنهم وبيوتهم ..». (تثمية ١/١٩).

« فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيها الرب إلهك نصيباً لكى تمتلكها، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء. لا تنس». (تثنية ١٩/٢٥)

« فطرد (الرب) من قدامك العدو ». (تثنية ٢٧/٣٣).

« ثم قال يشوع : بهذا تعلمون أن الله الحى فى وسطكم، وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحويين والفرزيين والجرجاشيين والأموريين واليبوسيين ». (يشوع ٣/١٠)

« فدفع الرب إله إسرائيل سيحون وكل شعبه ليد إسرائيل، فضربوهم وامتلك إسرائيل كل أرض الأموريين سكان تلك الأرض ». (قضاة ١١/٢١).

« ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم، فدفعهم الرب ليده ... ». (قضاة ١١/٣٣)

« فأجابه (لداود) الرب وقال : قم، انزل إلى قعيلة، فإنى أدفع الفلسطينيين ليدك ». (صموئيل الأول ٢٣/٤).

٣- إصدار قرارات الحرب : إعلاناً وإلغاءً :

« يمتلك الرب « يهوه » سلطات القائد الأعلى للقوات الإسرائيلية المحاربة: فهو الذى يأمر ببدء الحرب :

« وكان بعد موت موسى عبد الرب، أن الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : موسى عبدى قد مات. فالآن قم، اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم - أى لبنى إسرائيل.. ». (يشوع ١/١ -٢)

« ألم يأمر الرب إله إسرائيل : اذهب، وازحف إلى جبل تابور وخذ معك عشرة آلاف رجل ... ». (قضاة ٤/٦).

كما أنه هو الذى يأمر - كذلك - بوقفها أو إلغائها :

« هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا اخوتكم من بنى إسرائيل. ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر ». (ملوك أول ١٢/٢٤).

٤- التخطيط العسكرى اليهوى للمعارك :

كان للإله «يهوه» الدور البارز فى الإعداد للحروب والتخطيط لها. ففى خطة «يهوية» لتنقية المحاربين من بنى إسرائيل واختيار الصفوة منهم لدخول المعارك ضد جيش المديانيين، كانت الأوامر الصادرة من الرب مباشرة إلى جدعون على النحو التالى :

> «والآن، نادِ فى آذان الشعب قائلاً : من كان خائفاً ومرتعداً فليرجع وينصرف من جبل جلعاد. فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفاً وبقى عشرة آلاف. وقال الرب لجدعون : لم يزل الشعب كثيراً. انزل بهم إلى الماء فأنقيهم لك هناك ....».
> (قضاة ٧/٢- ٨)

وهكذا حتى تبقى ثلثمائة مقاتل، وتحقق على أيديهم النصر على جيش كامل. إنها القلة المؤمنة، التى التزمت وتمسكت وصابرت ورابطت.

ومن اختيار المقاتلين إلى وضع استراتيجية كاملة للمعركة من قبل إله إسرائيل، وهو ما يتجلى فى حصار أريحا بقيادة يشوع :

> «وكانت أريحا مغلقة مقفلة بسبب بنى إسرائيل. لا أحد يخرج ولا أحد يدخل. فقال الرب ليشوع : انظر قد دفعت بيدك أريحا وملكها وجبابرة البأس. تدور دائرة المدينة. جميع رجال الحرب حول المدينة مرة واحدة. هكذا تفعلون ستة أيام. وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت. وفى اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق أن جميع الشعب يهتف هتفافاً عظيماً فيسقط سور المدينة فى مكانه، ويصعد الشعب، كل رجل مع وجهه». (يشوع ٦/١-٥)

كما حدد «يهوه» استراتيجية الحرب ضد «عاى»

«فقال الرب ليشوع ... اجعل كميناً للمدينة من ورائها».
(يشوع ٨/١ - ٢)

وتدخل الرب فى العمليات التكتيكية ضد الفلسطينيين فى قتالهم مع داود :

«فقال (الرب لداود) : لا تصعد، بل دُرْ من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا». (صموئيل الثانى ٢٣/٥).

فالأمر لم يقتصر على مجرد تحديد نوع العمليات العسكرية، بل تعداه إلى تحديد موقع العمليات ومسرحها على نحو ما نجد فى النصوص السابقة.

٥- الرب «يهوه» : المستشار العسكرى لبنى إسرائيل :

عندما يصل القائد الحربى الإسرائيلى إلى مرحلة يعجز فيها عن اتخاذ قراره العسكرى فى معركة من المعارك، لم يكن أمامه هيئة أركان أو غرفة عمليات ميدانية، بل كان الحل الأوحد هو : استشارة «يهوه» القائد الأعلى :

«فسأل داود من الرب قائلاً : إذا لحقت هؤلاء الغزاة، فهل أدركهم. فقال له : الحقهم، فإنك تدرك وتنقذ». (صموئيل الأول ٨/٣٠)

«ثم عاد الفلسطينيون أيضاً وانتشروا فى الوادى. فسأل أيضاً داود من الله، فقال له الله : لا تصعد وراءهم، تحول عنهم وهلم عليهم...» (أخبار الأيام الأول ١٣/١٤ - ١٤)

٦- المشاركة «اليهوية» الفعلية فى المعارك :

لم يقتصر الأمر على مجرد التشجيع والدفع المعنوى، أو إصدار القرارات والتوجيهات، بل ولاحتى على اختيار المقاتلين ورسم الخطط، لكن تعداه إلى خوض «يهوه» إله إسرائيل بذاته المعارك مع شعبه :

«لا تخافوا منهم لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم». (تثنية ٢٣/٣)

«وبينما هم (الأموريون) هاربون من أمام إسرائيل وهم فى منحدر بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة فماتوا ...» (يشوع ١٠/١١)

«وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل». (يشوع ١٠/٤٣)

«وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم، لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم».(يشوع ٢٣/٣)

«وكانت هيبة الله على كل ممالك الأراضى حين سمعوا أن الرب حارب أعداء إسرائيل». (أخبار الأيام الثانى ٢٠/٢٩)

«... ومعنا الرب إلهنا ليساعدنا ويحارب حروبنا». (أخبار الأيام الثانى ٣٢/٨)

«فالمكان الذى تسمعون منه صوت البوق، هناك تجتمعون إلينا. إلهنا يحارب عنا». (نحميا ٤/٢٠)

٧- رب الجنـود :

من الطبيعى، مادام للرب دوره البارز والأساسى فى حروب بنى إسرائيل المذكورة فى العهد القديم، أن يكون رباً للجنود. وقد ورد هذا التعبير كثيراً فيما اطلعت عليه من نصوص وبخاصة فى أسفار صموئيل وإشعياء وملاخى (انظر على سبيل المثال : صموئيل الثانى ٢/٦، ٨؛ إشعياء ٧/١٨، ٤/١٩، ٥/٢٢، ٩/٢٣، ٢٣/٢٤، ٦/٢٥، ٢٣/٢٨، ٦/٢٩، ٤/٣١، ٣٢/٣٧، ٥/٣٩؛ ملاخى ٤/١، ٢/٢، ١/٣، ١/٤، ١٧/١٤....)

٨- النصر من الـرب :

تربط النصوص العبرية بين النصر الميدانى، والتأثير اليهوى المباشر، بل وتربط بين تحقيق النصر على الأعداء وبين طاعة «يهوه» وتحقيق وصاياه، وهو ما قدمه لنا الإصحاح السابق من سفر التثنية؛ فطرد الأمم الأخرى والاستيلاء على أراضيهم مرهون بتنفيذ العهد مع الرب.

كما لايخفى علينا الإعلان صراحة عن تحقيق النصر وهزيمة الأعداء على أيدى الرب. (انظر: يشوع ٢/٢٤، ٢١/٤٣-٤٥؛ قضاة ١١/٢٣-٢٤؛ صموئيل الأول ٢٣/٤-٥؛ ملوك ثان ٣/١٨-١٩؛ أخبار الأيام الأول ٥/٢٠- ٢٢...)

٩- حروب الرب :

كان من المنطقى بعد تقديم هذه السمات لمعارك بنى إسرائيل، أن تكون هذه الحروب بحق «حروب الرب». وقد ورد هذا التعبير أيضاً فى مواضع كثيرة من أسفار العهد القديم.

فشاؤل يطلب من داود أن يحارب «حروب الرب». (صموئيل أول ١٨/٧)

والشعب مؤمن بأن داود «يحارب حروب الرب». (صموئيل أول ٢٥/٢٨)

والرب يعلن بنفسه ذلك قائلاً :

«الحرب ليست لكم، بل لله». (أخبار الأيام الثانى ٢٠/١٥)

عود على بدء

رسمنا بإيجاز ملامح حروب بنى إسرائيل وعلاقتها بالرب «يهوه»، ووجدنا أن جميع هذه الحروب إما أنها تنتمى إلى حروب خاضها «يهوه» ذاته ضد أعدائه، أو أنها حروب خاضها «يهوه» - بذاته أيضاً - ضد بنى إسرائيل، وهى من هذا القبيل كلها «حروب مقدسة». [١٠]

إذ من الصعب أن نجد خطوطاً فاصلة فى القصص الحربى العبرى بين ما هو دينى وما هو غير دينى، في الوقت الذى نجد فيه علاقات واضحة بين هذه الحروب من ناحية، والرب وشعبه من ناحية أخرى.

إن كثرة نصوص الحرب فى أسفار العهد القديم - بغض النظر عن مصداقيتها - قد قدمت لنا ما يمكن أن نسميه بلاهوت الحرب عند بنى إسرائيل، هذا اللاهوت مازال يحتاج إلى دراسات متعمقة، تتيح للمهتمين الولوج إلى هذا العالم الذى يبدو غريباً على النفس البشرية.

الهوامش

١- انظر : بطرس عبد الملك وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، بيروت، ط٦، ١٩٨١، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

٢- نشير كثيراً إلى النصوص العبرية لأننا نعالج قضية من خلال الفكر الإسرائيلي ذاته. لمزيد من المعلومات حول الكنعانيين انظر : محمد خليفة حسن، رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، القاهرة، ١٨٨٥، ص ١٩٤- ٢٠٨؛ سبتينو موسكاتى الحضارات السامية، ترجمة السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٨٩- ١٠٩.

٣- انظر : محمد خليفة حسن، رؤية عربية ... ، مرجع سابق ذكره، ص ٢٣٩.

٤- عادل سيد مصطفى : «اليبوسيون فى القدس القديمة حتى نهاية عهد سليمان» فى : القدس : التاريخ والمستقبل، أبحاث الندوة الدولية للقدس التى عقدها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط ٢٩- ٣٠ أكتوبر ١٩٩٦، تحرير : محمد ابراهيم منصور، جامعة أسيوط، ١٩٩٧، ص ٢١١ ومابعدها.

٤- للمزيد حول الفلسطينيين انظر : قاموس الكتاب المقدس، مرجع سبق ذكره، ص ٦٩٣- ٦٩٤.

٥- للمزيد انظر : قاموس الكتاب المقدس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩ - ٤٠.

٦- للمزيد انظر : قاموس الكتاب المقدس، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣٦.

٧- Marry Ellen Chase, Life and Language in The Old Testament, London, 1956, pp. 19- 64.

٨- حول الحرب المقدسة انظر : Porter, J., "Joshua and Judges" in : A Basic Introduction of the Old Testament, ed. Walton, C., London, 1970, p. 94.

٩- سنتناول هذه السياسة بالتفصيل فى ثنايا هذه الدراسة.

١٠- Robert Caroll, p. 36.

الفصــل الثانى

العقيـدة العسكرية الإســرائيليـة

هناك بعض القضايا التى ينبغى علينا أن نعرفها ونبسطها قبل الولوج إلى تحليل بعض نماذج حروب بنى إسرائيل التوراتية.

فماذا تعنى العقيدة العسكرية؟، وما الفرق بينها وبين الاستراتيجية؟، وما هى أقسام الفن العسكرى كما يراها الخبراء المختصون؟

بداية، نود أن نشير إلى أن العقيدة العسكرية Military Doctrine لدولة ما، هى السياسة العسكرية المعبرة عن وجهات نظرها الرسمية، والتى تتعلق بالمسائل والقواعد الأساسية للصراع المسلح، والمتضمنة لطبيعة الحرب من وجهة نظرها وطرق إدارتها والأسس الجوهرية لإعداد البلاد والقوات المسلحة لها.. ولا شك أن هذه العقيدة تتأثر بالأهداف القومية والخط السياسى العام، بل والموارد الاقتصادية والاجتماعية والمعنوية، وكذلك العوامل الجغرافية للشعب والأمة، ومن هنا، فإن العقيدة العسكرية تختلف باختلاف الأمم والشعوب.

وبناءً على ما سبق، فإن قيادة الأمة أو الدولة - على ضوء الواقع والإمكانيات - هى التى تحدد المبادئ الأساسية التى تبنى عليها العقيدة، ومن ثم فإن محتوى العقيدة العسكرية هو محتوى تاريخى فى طبيعته، يتغير تبعاً للتغيرات الجذرية فى الأفكار السياسية والعسكرية.[1]

وتوضع أحكام العقيدة العسكرية غالباً وقت السلم حتى يمكن اختبارها وتجربتها أثناء الحروب. ومع أن هذه العقيدة تنظر دائماً إلى المستقبل، فإنها لا تتغاضى عن تجارب الماضى أو خبرات الحروب السابقة.

ويشمل محتوى العقيدة جانبين هامين : الأول سياسى، والثانى عسكرى، وهما معاً يسيران فى مسار واحد، يهدف إلى تحقيق غايات محدودة.

يضم الجانب الأول مجموعة من المبادئ ذات الصبغة السياسية المرتبطة بالصراع المسلح حيث تشمل انعكاسات السياسات العالمية والإقليمية والمحلية على طبيعة هذا الصراع واتجاهات التحضير للحرب وإدارتها والإعداد الاقتصادى والمعنوى ودراسة إمكانيات عقد المعاهدات السياسية والعسكرية من أجل تحقيق الهدف وغيرها.

أما الجانب الثانى فيضم مجموعة المبادئ ذات الصبغة العسكرية التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بإعداد واستخدام القوات المحاربة، كما تحدد مجالات تطور فن الحرب بمستوياته المختلفة، وهى بهذا المفهوم تشمل تحديد الهدف الاستراتيجى للحرب وشكلها وشكل مراحلها الأولى، بالإضافة إلى دراسة قدرات العدو ومدى استعدادته، ودراسة المؤثرات على مجريات الحرب وشكلها من عوامل مختلفة كالمفاجأة والمدى الزمنى، كما تشمل كذلك التدابير الرئيسية للإعداد الاقتصادى والمعنوى للحرب.

وإذا كانت المحتويات السابقة جميعاً - بوجهيها : السياسى والعسكرى - قابلة للتطوير والتغيير، فإن اسس العقيدة العسكرية قلما تتغير.

فالعقيدة العسكرية إذن هى التى تحدد الأسس العامة والمبادئ الرئيسية اللازمة لبناء الاستراتيجية العسكرية وتكوينها، بينما تبحث الاستراتيجية هذه المبادئ والأسس لتحقيق الأساليب اللازمة لإدارة الحرب من أجل تحقيق العقيدة العسكرية المحددة سلفاً.

فتحديد العقيدة العسكرية يأتى من قبل أعلى القيادات على المستويين : السياسى والعسكرى، أما الاستراتيجية العسكرية فهى مجال النشاط الفعلى للقيادات الهسكرية.(٢)

وفن الحرب، أو الفن العسكرى، ينقسم إلى ثلاثة فروع هى : الاستراتيجية الكبرى أو العليا، والاستراتيجية أو ما يسميه البعض بالفن التعبوى ثم التكنك.

والاستراتيجية الكبرى Grand Strategy تعنى تنسيق وتوجيه كافة المصادر والثروات من أجل تحقيق الغاية السياسية للحرب. ولقد وصف المنظّر الألمانى العسكرى كارل فون الاستراتيجية بأنها : «توظيف المعركة كأداة (وسيلة) لتحقيق الهدف من الحرب». (٣)

أما الاستراتيجية أو الفن التعبوى فيقصد به فن توزيع واستخدام الوسائل العسكرية لتحقيق أهداف سياسية ما.

والتكنيك هو تلك التدابير أو الترتيبات الخاصة بالقوات المحاربة وقيادتها والعمليات التكنيكية خلال وقوع القتال بالفعل.

وعلى هذا فإن الاستراتيجية الكبرى هى سياسية الحرب

والاستراتيجية أو الفن التعبوى هى فن قيادة الحرب.

والتكنيك هو فن القتال.

وطبقا للتبسيط الذى سقناه آنفاً، وبالنظر إلى تاريخ الحرب عند بنى إسرائيل كما سطرته سجلاتهم، يمكننا استبناط ما يلى :

يمثل «يهوه» إله إسرائيل المرجعية السياسية والعسكرية والدينية منذ أن تم الخروج من مصر، وعليه فقد حدد «يهوه» العقيدة العسكرية لشعبه فيما يلى :

أولاً : الوعد الإلهى بتمكين بنى إسرائيل من فلسطين وما حولها، قبل أن يظهر الإسرائيليون على الساحة متمثلاً فى قول الرب لإبراهيم :

«... لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير
نهر الفرات : القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين
والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين».
(تكوين ١٥/١٨- ٢١).

ثم التأكيد على الوعد اليهوى - بعد استثناء ذرية إسماعيل بن ابراهيم - لإسحق فى قول الرب له :

«وأعطى نسلك جميع هذه البلاد». (تكوين ٢٦/٤)

وأخيراً، قصر هذا الوعد اليهوى - بعد استثناء ذرية عيسو بن اسحق - ليعقوب فى قول الرب له :

«الأرض التى أنت مضطجع عليها، أعطيها لك ولنسلك».
(تكوين ٢٨/١٣)

لقد حدد «يهوه» الهدف القومى الذى مثّل جوهر العقيدة العسكرية فيما بعد وأكد عليه فى أكثر من موضع، وبوضوح لا غبش فيه :

«والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق، لك أعطيها ولنسلك من بعد، أعطى الأرض». (تكوين ٣٥/١٢)

من هذا المنطلق، وطبقاً لهذا الهدف القومى الواضح، تم إرساء دعائم العقيدة العسكرية عند بنى إسرائيل، وكان للرب «يهوه» دوره كذلك فى بناء هذه العقيدة على النحو الذى فصلته لنا روايات العهد القديم ونصوصه.

ثانياً : إن الإله «يهوه» الذى قام بتحديد الهدف القومى، ووضع أركان العقيدة العسكرية، هو أعلى جهة تستمد منها الشرائع والأحكام على مستوياتها المختلفة، بما فى ذلك المستوى العسكرى : «فالرب رجل الحرب». (خروج ١٥/٣).

ثالثاً : لما كانت العقيدة العسكرية - على نحو ما أسلفنا - تنظر دائماً إلى المستقبل، فقد استمر تذكير «يهوه» لشعبه بالهدف المنشود كلما وجد ضرورة لذلك.

ففى أواخر لحظات عمر يوسف، نراه يذكر قومه بهذا الهدف :

«وقال يوسف لإخوته : أنا أموت، ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب». (تكوين ٥٠/٢٤)

رابعاً : يواصل الرب «يهوه» رسم أسس العقيدة العسكرية - خلال وقت السلم كما أوضحنا - وذلك من خلال تذكير موسى ومن معه فى التيه بالهدف القومى، وما ينبغى عليهم عمله من أجل تحقيق هذا الهدف :

«ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والحويين واليبوسيين التى حلف لآبائك أن يعطيك أرضاً تفيض لبناً وعسلاً أنك تصنع هذه الخدمة فى الشهر....» (خروج ١٣/٥).

«ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين كما حلف لك ولآبائك وأعطاك إياها ...». (خروج ١٣/١١).

«ولكن إذا سمعت لصوته «ملاك الرب» وفعلت كل ما أتكلم به، أعادى أعداءك وأضايق مضايقيك. فإن ملاكى يسير أمامك، ويجئ بك إلى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم». (خروج ٢٣/٢٢- ٢٣)

«احفظ ما أنا موصيك اليوم : ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التى أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك». (خروج ٣٤/١١- ١٢)

خامساً : لم يكتفِ الدور «اليهوى» بتحديد الهدف القومى والعقيدة العسكرية للإسرائيليين، بل تعداه إلى تحديد الاستراتيجية العسكرية، وذلك من خلال توجيهات يهوه الدائمة لمحاربيه، والاطلاع على كل كبيرة وصغيرة تتعلق بكل جوانب الاستراتيجية العسكرية.

وسنبسط الحديث عن هذا الدور فى حينه، وسيتضح لنا بجلاء أن «يهوه» قد حدد لشعبه ومقاتليه سياسة الحرب (الاستراتيجية الكبرى)، وفن قيادة الحرب (الاستراتيجية)، وفن القتال ذاته (التكنيك).

وقفنا إذن على الهدف القومى الإسرائيلى، والعقيدة الإسرائيلية العسكرية، وربما يكون الحديث بإسهاب عن ملامح الاستراتيجية العسكرية - التى يمكن أن نستشفها من نصوص العهد القديم - موضحاً لمزيد من جوانب هذه العقيدة أيضاً.

ففى إطار تقدير الموارد البشرية - كأحد سمات الاستراتيجية الكبرى - باعتبار هذه الموارد هى الأساس الذى تبنى عليه سائر السياسيات، نجد عملية «تعداد للمحاربين، بعد الخروج من مصر، وقبل خوض غمار أية حروب، وذلك بهدف الوقوف على أهم عناصر الاستراتيجية :

«وكلم الرب موسى فى برية سيناء فى خيمة الاجتماع فى أول الشهر الثانى فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً : أحصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء كل ذكر برأسه. من ابن عشرين سنة فصاعداً، كل خارج للحرب فى إسرائيل». (عدد ١/١-٣)

ويبرز دور الرب «يهوه» فى هذا التوجيه، بل وتحديده لسن «التجنيد» :

«من ابن عشرين سنة فصاعداً».

ويمثل الإصحاح الثانى من سفر العدد خطوة هامة فى المجال الاستراتيجى من حيث تحديد «هيئة الأركان» بالاسم، وتحديد مواقع القوات، وعدد هذه القوات، وذلك على النحو التالى :

«وكلم الرب موسى وهارون قائلاً، ينزل إسرائيل كل عند رايته بأعلام لبيوت آبائهم. قبالة خيمة الاجتماع حولها ينزلون. فالنازلون إلى الشرق نحو الشروق راية محلة يهوذا حسب أجنادهم. والرئيس لبنى يهوذا نحشون بن عميناداب، وجنده المعدودون منهم أربعة وسبعون ألفاً وست مئة. والنازلون معه سبط يساكر. والرئيس لبنى يساكر نثنائيل بن صوغر. وجنده المعدودون منه أربعة وخمسون ألفاً وأربع مئة. وسبط زبولون. والرئيس لبنى زبولون أليآب بن حيلون. وجنده المعدودون منه سبعة وخمسون ألفاً وأربع مئة. جميع المعدودين لمحلة يهوذا مئة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربع مئة بأجنادهم. يرتحلون أولاً

راية محلة رأوبين إلى التيمن حسب أجنادهم. والرئيس لبنى رأوبين أليصور بن شديئور وجنده المعدودون منه ستة وأربعون ألفاً وخمس مئة. والنازلون معه سبط شمعون. والرئيس لبنى شمعون شلوميئيل بن صور يشداى. وجنده المعدودون منهم تسعة وخمسون ألفاً وثلث مئة. وسبط جاد. والرئيس لبنى جاد ألياساف بن رعوئيل. وجنده المعدودون منهم خمسة وأربعون ألفاً وست مئة وخمسون.. جميع المعدودين لمحلة رأوبين مئة ألف وواحد وخمسون ألفاً وأربع مئة وخمسون بأجنادهم ويرتحلون ثانية

ثم ترتحل خيمة الاجتماع محلة اللاويين فى وسط المحلات. كما ينزلون كذلك يرتحلون. كل فى موضعه براياتهم.

راية محلة أفرايم حسب أجنادهم إلى الغرب. والرئيس لبنى أفرايم أليشمع بن عميهود. وجنده المعدودون منهم أربعون ألفاً وخمس مئة. ومعه سبط منسى والرئيس لبنى منسى جمليئيل بن فدهصور. وجنده المعدودون منهم اثنان وثلاثون ألفاً ومئتان. وسبط بنيامين. والرئيس لبنى بنيامين أبيدن بن جدعونى. وجنده المعدودون منهم خمسة وثلاثون ألفاً وأربع مئة. جميع المعدودين لمحلة أفرايم مئة ألف وثمانية آلاف ومئة بأجنادهم. ويرتحلون ثالثة

راية محلة دان إلى الشمال حسب أجنادهم. والرئيس لبنى دان أخيعزر بن عميشداى. وجنده المعدودون منهم اثنان وستون ألفاً وسبع مئة. والنازلون معه سبط أشير. والرئيس لبنى أشير فجعيئيل بن عكرن. وجنده المعدودون منهم واحد وأربعون ألفاً وخمس مئة. وسبط نفتالى. والرئيس لبنى نفتالى أخيرع بن عينن. وجنده المعدودون منهم ثلاثة وخمسون ألفاً وأربع مئة. جميع المعدودين لمحلة دان مئة ألف وسبعة وخمسون ألفاً وست

مــئــة. يرتحلون أخـيــراً براياتهم. هؤلاء هم المعــدودون من بنى إسـرائيـل حـسب بيـوت آبائهم. جـمـيـع المعـدودين من المحـلات بأجنادهم ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسـون. وأما اللاويون فلم يعدوا بين بنى إسرائيل كما أمر الرب موسى. ففعل بنو إسـرائـيـل حـسب كل مـا أمـر به الرب مـوسى هكذا نزلوا براياتهم. وهكذا ارتحلوا. كل حسب عشائره مع بيت آبائه».

وكما التزم موسى وهارون بتحقيق هذا الجانب الاستراتيجي فى بدايات التأسيس الحربى والعـسكرى لبنى إسرائيل، نجد داود - بعـد عـدة قـرون - قـد التـزم كـذلك على المسـتـوى الاستراتيجى بتقدير قواته، بل وبتحديد القادة «الأبطال مساعدون فى الحرب» بالاسم، ثم التـأكـد من إمكاناتهم وقـدراتهم، بعـدها يتم حصـر باقى القوات. (انظر أخبـار الأيام الأول ١/٢٦- ٤٧؛ ٢٣/١ - ٤٠)

إن عصر الملكية الذى بدأ بمسح شاؤل ملكاً - بأمر ومرسوم من الرب يهـوه - على يدى النبى صموئيل (صموئيل أول ٩/١٥-١٦) يجسد بصدق كثيراً من لاهوت الحرب عند بنى إسرائيل، ويعكس لنا كل مكونات العقيدة العسكرية والفن العسكرى بفروعه الثلاثة.

لقد تركزت فى شخص الملك إرادة الرب، فهو «ابن الله» و«مسيحه» (صموئيل أول ٣/١٢)، يسجد له كل الملوك وكل الأمم تتعبد به (المزامير ١١/٧٢)، كما تركزت فيه أيضاً الإرادة السياسية بتتويجه ملكاً على إسرائيل (صموئيل أول ١/١٥)، وبذلك أصبح بؤرة القوة السياسية لشعبه.

وإذا سلّمنا بأن الحرب - فى معظمها - تسعى لفرض الإرادة السياسية لشعب على شعب آخر بالقوة، فإن الاستراتيجية - بالتالى - تسير وفقاً لهذه الإرادة، وعليه فإنه بالإمكان الوقوف على «استراتيجية كبرى» واضحة المعالم، مع ذلك العصر الذى تشكلت فيه الإرادة السياسية للإسرائيليين، وذلك مع بدايات تملك شاؤل.

ومع أن هناك من يبرئ الاستراتيجية الإسرائيلية فى عصر شاؤل عن العدوانية، (٤) إلا أن نص سفر صموئيل ٤٧/١٤ - ٤٨ : «وأخذ شاؤل الملك على إسرائيل، وحارب جميع أعدائه

حواليه : موآب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين، وحيثما توجه غلب وفعل بأس وضرب عماليق ... » يقدم لنا صورة لسياسة شاؤل الخارجية العدوانية.

وإذا كان يمكن للبعض أن يتعلل لشاؤل بما يسمى فى العرف العسكرى الحديث بالاستراتيجية الدفاعية، بمعنى أن نشاطاته العسكرية إنما كانت بهدف حماية إسرائيل من غزو محتمل من قبل الأراضى المجاورة (وهو نفس الزعم الذى يقال بشأن حروب إسرائيل الحديثة مع العرب)، فإن غزو شاؤل لأراضى عماليق لا تبرير له سوى شهوة الانتقام من قوم رفضوا ذات يوم - ومنذ عشرات العقود - اجتياح أرض كنعان عبر أراضيهم :

> « ثم جاء شاؤل إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى. وقال شاؤل للقينيين : اذهبوا، حيدوا، انزلوا من وسط العمالقة لئلا أهلككم معهم وأنتم قد فعلتم معروفاً مع جميع بنى إسرائيل عند صعودهم من مصر. فحاد القينى من وسط عماليق. وضرب شاؤل عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر. وأمسك أجاج ملك عماليق حياً، وحرّم جميع الشعب بحد السيف». (صموئيل أول ١٥/٥-٨).

لقد رفض عماليق - كما ذكرت آنفاً- مرور جحافل بنى إسرائيل عبر أراضيهم إلى كنعان فى زمن موسى وقد سجل لنا سفر الخروج (١٧/٨-١٦) هذه القصة التى بقيت جزءاً من الذاكرة القومية والتاريخ القومى لبنى إسرائيل.

فهل يمكن تعليل استراتيجية شاؤل العسكرية هنا بأنها دفاعية؟!

أما الاستراتيجية العامة فى عصر الملك داود والتى توجزها لنا فقرات الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الثانى - فهى استراتيجية عدوانية بكل ما فى هذه الكلمة من معانٍ، ولعله من المهم هنا أن نسوق النص كاملاً :

> « وبعد ذلك ضرب داود الفلسطينيين وذللهم وأخذ داود زمام القصبة من يد الفلسطينيين. وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل

أضجعهم على الأرض فقاس بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء.
وصار الموآبيون عبيداً لداود يقدمون هدايا.

وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفاً وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل. وعرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة. فجاء أرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة فضرب داود من أرام اثنين وعشرين ألف رجل. وجعل داود محافظين فى أرام دمشق وصار الأراميون لداود عبيداً يقدمون هدايا. وكان الرب يخلص داود حيثما توجه. وأخذ داود أتراس الذهب التى كانت على عبيد هدد عزر وأتى بها إلى أورشليم. ومن باطح ومن بير وثاى مدينتى هدد عزر أخذ الملك داود نحاسا كثيراً جداً.

وسمع توعى ملك حماة أن داود قد ضرب كل جيش هدد عزر فأرسل توعى يورام ابنه إلى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه لأن هدد عزر كانت له حروب مع توعى. وكان بيده آنية فضة وآنية ذهب وآنية نحاس وهذه أيضاً قدسها الملك داود للرب مع الفضة والذهب الذى قدسه من جميع الشعوب الذين أخضعهم. من أرام ومن موآب ومن بنى عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق ومن غنيمة هدد عزر بن رحوب ملك صوبة. ونصب داود تذكاراً عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر ألفاً من أرام فى وادى الملح. وجعل فى أدوم محافظين. وضع محافظين فى أدوم كلها وكان جميع الأدوميين عبيداً لداود وكان الرب يخلص داود حيثما توجه. وملك داود على جميع إسرائيل وكان داود يجرى قضاءً وعدلاً لكل شعبه. وكان يوآب ابن صروية على الجيش ويهوشافاط بن أخيلود

مسجلاً وصادوق بن أخيطوب وأخيمالك بن أبياثار كاهنين وسرايا كاتبا وبناياهو بن يهوياداع على الجلادين والسعاة وبنو داود كانوا كهنة».

إن الموجز السابق لنشاطات داود العسكرية يشير بوضوح إلى أن استراتيجيته العامة كانت عدوانية بحته، إذ لم يكن الفلسطينيون خلال تلك الفترة من حكمه يشكلون أى خطر على إسرائيل، ولغة النص تشير إلى عملية غزو وإخضاع للسكان المحليين واحتلال الأراضى.

إن مفهوم حروب الملك داود هنا يختلف تماماً عما توحى به نصوص عصر القضاة - مثلاً - ولا يمكن لنا أن نجد لها مسوغات ومبررات. فهى ليست بحروب دفاعية، ولا على شاكلة حروب شاؤل مع العماليق، ولا هى حتى حروب تدميرية «تحريمية» للعدو بأمر «يهوه». لقد تمخضت هذه الحروب عن مغانم ومكاسب مادية للملك، وكانت أبرز نتائجها - على نحو ما تحكى النصوص - التوسع خارج الحدود، طمعاً فى بناء إمبراطورية إسرائيلية، تتضح معالمها عندما أمر داود رئيس جيشه يوآب بإحصاء إسرائيل ويهوذا :

«فعبروا الأردن ونزلوا فى عروعير عن يمين المدينة التى فى وسط وادى جاد وتجاه يعزير. وأتوا إلى جلعاد وإلى أرض تحتيم إلى حدشى، ثم أتوا إلى دان يعن واستداروا إلى صيدون. ثم أتوا إلى حصن صور، وجميع مدن الحويين والكنعانيين، ثم خرجوا إلى جنوبى يهوذا إلى بئر سبع، وطافوا كل الأرض وجاءوا فى نهاية تسعة أشهر وعشرين يوماً إلى أورشليم». (صموئيل الثانى ٢٤/٥- ٨)

والمتتبع لجغرافية المدن المذكورة، والمتمعن فى الفترة الزمنية التى قضاها يوآب وأتباعه فى إجراء الإحصاء، يمكن أن يدرك حجم التوسع الذى تم بقيادة الملك داود، على حساب الأمم والشعوب المجاورة.

ويمكن القول بشكل عام، إنه مع نهاية حكم الملك داود - والذى استمر ثلاثة وثلاثين عاماً- كان هناك كيان سياسى واضح المعالم، يضم أراضى فلسطين وما حولها نتيجة السياسة

التوسعية التى اتبعت آنذاك، لقد ترك الملك داود لمن خلفه «أراض محتلة»، الأمر الذى تطلب سن قوانين وشرائع تختلف عن قوانين عصر القضاة.

وتقص علينا إصحاحات سفر الملوك الأول - بدءاً من الإصحاح الثانى - كيف ثبت الملك سليمان ملكه، أولاً : عن طريق قتل منافسيه (أدونيا ويوآب وشمعى)، ثانياً : عن طريق مصاهرة كبار ملوك الأرض (فرعون مصر (١/٣) وغيره (١/١١))، وثالثاً عن طريق اختيار قادته والرؤساء العاملين تحت إمرته (الإصحاح الرابع كله)، ورابعاً : عن طريق التحالفات المالية والسياسية ومصادقة ملوك وزعماء الأمم المجاورة، على نحو ما فعل مع «حيرام» ملك صور. (١/٥)، وملكة سبأ (١/١٠).

واستقرت الأمور فى عهد سليمان «وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر ...». (٢١/٤)

واستمر هذا الاستقرار فى عهد سليمان أربعين سنة (٤٢/١١)، حيث خلف «رحبعام» أباه، ولتبدأ بولايته مرحلة جديدة، سيطرت عليها الحروب الأهلية بين «الإخوة الأعداء»، لتنقسم مملكة داود وسليمان إلى مملكتين : إسرائيل فى الشمال، ويهوذا فى الجنوب. الأولى بقيادة «يربعام»، والثانية بزعامة «رحبعام»، ولتبدأ سلسلة الحروب الأهلية مباشرة، حيث بدأت استعدادات «رحبعام» فى الجنوب لاستعادة مملكة الشمال (٢١/١٢- ٢٤)، لولا تدخل الرب الذى كان كلامه إلى «شمعيا» رجل الله : «هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا اخوتكم بنى إسرائيل. ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر». (٢٤/١٢)

وليس من سبب عسكرى فى النصوص يبرر وقف الحرب، وإن كان «شمعيا» قد برر نصيحته من وجهة نظر دينية، فهو أمر الرب وحسب، ولكن يبدو أن «رحبعام» كان ينظر إلى المستقبل بعيون عسكرية، فاتخذ لمملكته نظاماً دفاعياً يعتمد على الحصون :

> «وأقام رحبعام فى أورشليم مدناً للحصار فى يهوذا. فبنى بيت لحم وعيطام وتقوع. وبيت صور وسوكو وعدلام. وجت ومريشة وزيف. وأدورايم ولخيش وعزيقة. وصرعة وأيلون وحبرون التى فى

يهوذا وبنيامين مدناً محصنة. وشدد الحصون وجعل فيها قواداً وخزائن مأكل وزيت وخمر. وأتراساً في كل مدينة ورماحاً، وشددها كثيراً جداً وكان له يهوذا وبنيامين». (أخبار الأيام الأول ١١/٥-١٢)

ولعل النص السابق يشير إلى مَعْلم من معالم فن القتال الإسرائيلي القديم، والذي مازال له تأثير في قتال الإسرائيليين الحديث، وأعني «حصن بارليف».

ولكن، ما هي أسباب الصراع بين مملكتي الشمال والجنوب؟!

يمكننا إيجاد الإجابة من خلال عصور الحكام المتوالين من أمثال «آسا» و«بعشا» (ملوك أول ١٥/١٦-٣٤)، إذ استمرت الحرب، وكان هدف الصراع وقتئذ هو ذلك القطاع الواقع في شمال أورشليم، والذي أعطى من قبل لسبط بنيامين (يشوع ١٨/١١- ٢٨)، وكانت له أهمية استراتيجية، إذ هو مرتفع سهل يربط بين عدة مناطق من شأنها أن توفر العبور الآمن من الشمال إلى أورشليم، ومن الجنوب إلى قلب السامرة.

لقد استمر جو العداء بين المملكتين بعد «رحبعام» وفي عصر خلفائه : «أبيام» (ملوك أول ١٥/١)، و«آسا» (ملوك أول ١٥/٦)، كما استمرت الحرب بين الشمال والجنوب، ويفترض أنها كانت للسيطرة على قطاع بنيامين.

والجديد في هذا الصراع هو تشكيل تحالفات عسكرية مع «الأعداء» في بعض الأحيان، ولعلنا نسوق هنا مثالاً لذلك طلب «آسا» ملك يهوذا (٩١١ - ٨٧١ ق.م) للمساعدة والعون من «هدد» الدمشقي ضد «بعشا» ملك إسرائيل (٩٠٩ - ٨٨٧ق.م) وقد جاء هذا التحالف ليضرب تحالفاً كان قائماً بالفعل بين «هدد» وملك إسرائيل (ملوك أول ١٥/١٩). وظهر تأثير هذا التحالف في غزو الشمال لعديد غير متوقع بطول وادي الأردن الأعلى (ملوك أول ١٥/ ٢٠)، وكانت النتيجة وفق ما يريد «آسا»، حيث انسحب «بعشا» من الحدود الجنوبية تاركاً يهودا (ملوك أول ١٥/٢١).

وهكذا حاولنا من خلال استقراء نصوص العهد القديم، تقديم لمحة عامة حول عقيدة الحروب الإسرائيلية واستراتيجيته.

الهوامش

١- محمد جمال الدين محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٤- ٢٥.

٢- محمد جمال الدين محفوظ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

٣- Hobbs, T., R., A Time For War, A Study of Warfare in the Old Testament, Wilimington, U.S.A., 1989, p. 140.

٤- Hobbs, Op. Cit, p. 145.

الفصـــل الثالث

البنيـة الاجتماعيـة الإسـرائيليـة ودورهـا فـى الحـرب

مع أن أسفار العهد القديم تزخر بالأمثلة المتعددة للحروب المختلفة الدوافع والأشكال، فليس ثمة دليل يساعدنا على وجود رؤية توراتية للحرب على أنها شر بالضرورة، بل على العكس من ذلك، تشكل الحرب فى هذه الأسفار المقدسة جزءاً من الحياة.

فعلى سبيل المثال، عندما قتل «يوآب بن صروية» كلاً من «أبنير» و«عماسا بن يثر»، صدر أمر داود بقتله، ليس لمجرد أنه ارتكب جريمة قتل، ولكن لأنه قتل فى الوقت غير المناسب، إذ انتقم منهما فى وقت السلم لدم سفك فى وقت الحرب. (ملوك أول ٢/٥-٦)

وفى سفر التكوين (الاصحاح ٣٤)، كان الدافع وراء تصّرف أبناء يعقوب، ورد فعل يعقوب على ما ارتكبه أولاده من قتل كل ذكر من شكيم بالخداع، ليس مسألة الصواب والخطأ، أو الخير والشر، فهذه قيم مطلقة لم تَدُرْ بخلد بنى إسرائيل آنذاك، وإنما كان الدافع وراء ذلك هو «تدنيس شرف العائلة»، وهو أمر يستوجب الانتقام.

وحروب ما بعد الانقسام لها دلالتها كذلك، إذ لا تقف وراءها مبررات ومسوغات يمكن أن نستشفها فى بعض معارك يشوع والقضاة

الإشارات السابقة وغيرها، تشير بوضوح إلى ارتباط حروب بنى إسرائيل، منذ أول معركة خاضها الجد الأعلى لهم - حسب زعمهم - إبراهيم، تحالفاً مع ابن أخيه لوط، بالتركيبة الاجتماعية لهؤلاء القوم

ويمدنا العهد القديم بمصطلحات ذات علاقة وثيقة بأشكال الصراع الذى سجله لنا هذا الكتاب سواء بين الإسرائيليين والأمم الأجنبية، أم بين الإسرائيليين أنفسهم.

فمصطلحات «بيت آف»، «مشبحا»، «قاهال»، «عيدا»، «شيفيط»، «عام»، لها انعكاساتها على صور الصراع المسلح فى النصوص العبرية المقدسة.

ومعارك ما قبل دخول كنعان، وحتى عصر يشوع ذات طابع مميز لها عن معارك القضاة والملوك.

لقد سيطرت مفاهيم علاقة القربى والملكية على ثقافة إسرائيل القديمة، كما ارتبطت علاقات القربى بالأيديولوجية الدينية لهم. فعلى الرغم مما ساد بين جماعات إسرائيل من صراعات، فإله إسرائيل هو إله الآباء : إبراهيم وإسحق ويعقوب، وكل إسرائيل تدعى «قبيلة» (عاموس ١/٣)، كما تسيطر الألفاظ العائلية على وصف علاقة الشعب بالرب الذى ينظر الشعب إليه كأب، و هم عشيرته، سواء أكان ذلك واقعياً أم تخيلياً، على نحو ما نجد فى لقب «بنى إسرائيل» لكل الشعب. فإذا كان ثمة شخص «ينتمى» إلى مجموعة ما، فإن أى تهديد لأى عضو من أعضاء هذه المجموعة هو تهديد للجميع، وبنفس المنطق، فإن أى تهديد للحدود التى حددتها المجموعة لنفسها، هو تهديد لأفراد هذه المجموعة كلها، وقد استوعبت إسرائيل هذا الشعور فى مفهوم «الميثاق». (١)

ومن هنا، كان من الضرورى فى نظرنا أن نبين معانى تلك المصطلحات من جهة، وأن نلقى الضوء على التركيبة الاجتماعية لبنى إسرائيل منذ ما بعد الخروج، لفهمٍ أدقٍ لطبيعة الحروب الإسرائيلية بوجه عام، من ناحية أخرى.

(أ) بيـــت آف :

هذا المصطلح مكون من كلمتين : الأولى «بيت»، وتعنى : أسرة (زوج وزوجة وأولادهما) على نحو ما جاء فى سفر التكوين (١٨/٤٥). والثانية «آب» وتعنى : رأس الأسرة أو رأس السبط.

والكلمتان معاً تشيران إلى مفهوم «الأسرة الكبيرة» أو «المتسعة» أو «المنتشرة» [٢]. وقد وردت في سفر التكوين (١/١٢) بهذا المعنى.

(ب) مشبحا :

يشمل هذا المصطلح الوالدين والأبناء والأحفاء وسائر الأقارب، أي العشيرة، وقد ورد بهذا المعنى في أماكن متفرقة من العهد القديم :

«بل إلى بيت أبي تذهب، وإلى **عشيرتي**، وتأخذ زوجة لابني». (تكوين ٣٨/٢٤).

«فإني أضع وجهي ضد ذلك الإنسان وضد **عشيرته**». (لاويين ٥/٢)

«وقال : أطلقني لأن عندنا ذبيحة **عشيرة** في المدينة». (صموئيل أول ٢٩/٢٠)

وقد وردت بمعنى «**العشيرة**» كذلك في كثير من مصادر التراث الديني اليهودي في التلمود والمدراشيم [٣] وغيرها [٤].

والمصطلح السابق يعطي مفهوماً أوسع مما يشير إليه المصطلح الأول «بيت آف».

(جـ) إيليف :

يشير هذا المصطلح إلى جزء من السبط، فهو أقرب إلى معنى العشيرة، فقد جاء في يشوع (٢٠/١٥) : «هذا نصيب سبط بني يهوذا حسب **عشائرهم**» فالسبط مكون من «**إلافيم**» أي عشائر.

ويؤكد هذا المعنى : جزء من السبط، عشيرة، ما جاء في سفر القضاة (١٥/٦) : «ها **عشيرتي**، هي الذي لي في منسى، وأنا الأصغر في **بيت أبي**».

فكأن «بيت - آف» هو الوحدة الاجتماعية الأصغر، يليها «**الإيليف**» ثم «**السبط**». وكلمة «**ايليف**» تشير إلى العدد «الف» وكان كل سبط قد تم تقسيمه إلى «آلاف». ولكل «ألف» رئيس أو كبير (عدد ٣١ : ...

ومن خلال ورود مصطلح «**ايليف**» في العهد القديم (انظر مثلاً : خروج ١٨/٢١، ٢٥؛ عدد ١٤/٣١، ٤٨، ٥٢؛ تثنية ١/١٥؛ أخبار الأيام الثانى ١٩/٥-١١)، لايمكن أن نربط بين معنى هذا المصطلح والعدد المعروف (١٠٠٠)، وإنما نستخلص تطور هذه الدلالة الرقمية إلى دلالة اجتماعية سياسية. ويوضح هذا التطور بشكل جلى ما جاء فى القضاة (٦/١٥) على لسان «جدعون بن يوآش الأبيعزرى» : «هاعشيرتى (**ايليفى**) هى الذى لى فى منسى (ومنسى هنا سبط من الأسباط) وأنا الأصغر فى **بيت أبى**».

كما يوضحه أيضاً ما جاء فى ميخا (٥/٢) : «أما أنت يا بيت لحم أفراته، وأنت صغيرة أن تكونى بين **ألوف** يهوذا».

فمصطلح «**ايليف**» هنا يشير إلى تقسيم أكبر من «**بيت آف**» فى النص الأول، وإلى تقسيم فرعى لسبط منسى أو يهودا فى النص الثانى.

(د) شيفيط :

تشير كلمة «**شيفيط**» العبرية إلى مجموعة من أبناء يعقوب الإثنى عشر، تنتمى إلى رجل واحد، ومن ثم وجدنا نسل يعقوب ينقسمون إلى إثنى عشر «شيفيط» سبطاً، نسبة إلى أبناء يعقوب الإثنى عشر وهم : رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، يساكر، زبولون، دان، نفتالى، جاد، أشير، يوسف وبنيامين.

وأنجب يوسف ولدين فى مصر هما : إفرايم ومنسى، واعتبرهما يعقوب بمثابة ولدين من أولاده، وأصبح لكل منهما سبط يعرف باسمه، ولم يعد هناك سبط باسم أبيهما يوسف.

ومن جانب آخر، أوصى الرب بتخصيص سبط لاوى للخدمة الدينية، وجعل له أحكاماً خاصة به، وبالتالى لم يعده يشوع ضمن أسباط بنى إسرائيل عند تقسيم الأراضى المحتلة، إذ أنه يتغلغل بحكم التخصيص فى كل سبط.

وعلى النحو السابق، عاد الأسباط إلى عددهم الأصلى (اثنا عشر سبطاً)، بعد تعديلات سبط يوسف وسبط لاوى. (٥)

ومن هنا يتـضح لنا أن «**السـبط**» يضم عـدة «**آلاف**»، **فهو** أكبر المصطلحات الثلاثة السابقة.

(هـ) قاهال، عيدّا، عام :

لا توجد اختلافات اجتاعية - على ما يبدو- بين المصطلحات السابقة، فكثيراً ما يخاطب الرب بنى إسرائيل باستخدامها مفردة أو مركبة.

فال «**قاهال**» يشير إلى كل بنى إسرائيل فى سفر الخروج (٢/١٦) :

«فتذمر كل «**جماعة**» (**قاهال**) بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية».

وكذلك يشير فى سفر العدد (٤/٢٠) إلى نفس المعنى :

«لماذا أتيتما **بجماعة** (**قاهال**) الرب إلى هذه البرية».

ويشير مصطلح **عيداً** أيضاً إلى كل بنى إسرائيل، أى إلى مجموعة مميزة بواسطة علاقات متبادلة فيما بينها، قوية بين أعضائها. (٦)

«وأتى بنو إسرائيل **الجماعة** (**هاعيدا**) كلها إلى برية صين». (عدد ١/٢٠)

«ولم يكن ماء **للجماعة** (**هاعيدا = بنى إسرائيل**)». (عدد ٢/٢٠)

«ولم يضربهم بنو إسرائيل لأن رؤساء **الجماعة** (**هاعيدا = بنى إسرائيل**) حلفوا لهم بالرب إله إسرائيل». (يشوع ١٨/٩)

«وتذمر كل **جماعة** (**هاعيدا = بنى إسرائيل**) على الرؤساء». (يشوع ١٩/٩)

وهكذا نجد تبادلاً فى الشواهد السابقة بين مصطلحى **قاهال وعيداً**، بما لا يلقى بفروق جوهرية على أصحاب المصطلحين.

أما كلمة «**عام**» فهى تشير إلى نفس معنى **قاهال** و **عيداً**، ويشترك فيها الإسرائيليون وغيرهم.

«ليستعبد لك شعوب (**عاميم = جمع عام**)». (تكوين ٢٧/٢٩).

«تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب (**هاعاميم = جمع عام**)». (خروج ١٩/٥).

وقد استخدم المصطلح «**عـــام**» فى وصف كل بنى إسرائيل فى مواضع كثيرة من العهد القديم، وذلك نحو :

«أطلق **شعبى (عامى)**». (خروج ٥/١).

«حتى يعبر **شعبك (عامخا)**». (خروج ١٥/٦)

«فتذمر **الشعب (هاعام)** على موسى». (خروج ١٥/٢٤)

«فاستراح **الشعب (هاعام)** فى اليوم السابع». (خروج ١٦/ ٣٠)

نستنتج مما سبق، أنه ليس ثمة فروق من ناحية «البناء الاجتماعى» لدلالات «**قـــاهال**» و«**عيداً**» و«**عام**».

لكن الفروق واضحة فيما عدا هذه المصطلحات، وأقصد تلك المصطلحات التى أشرت إليها قبل ذلك، وأعنى **بيت آف** (أسـرة)، **مشبحا** (عشـيرة)، **إيليف** (جزء مـن السبط)، **شيفيط** (سـبط).

وبين هذه الأخيرة، كانت معارك وحروب فيما بينها من ناحية وبين تحالف بعضها والبعض الآخر من ناحية ثانية، وبين تحالف بعضها والأمم الأخرى من ناحية ثالثة، وسنشير إلى هذا كله فى حينه.

الهيكل السياسي لبني إسرائيل :

(أ) مــرحلة البــداوة :

تشير نصوص أسفار العهد القديم إلى النظام القبلي الذي نشأ عليه إبراهيم - الجد الأكبر لبني إسرائيل حسب رواية سفر التكوين (٧٧/١٢)، إذ كان في مدينة « أور » الكلدانية الواقعة في أرض ما بين النهرين، ثم هاجر إلى «حاران» ثم ارتحل مع عشيرته التي ضمت «ساراي» زوجه، و«لوطاً» ابن أخيه، والنفوس التي تملكاها، وكل مقتنياتهما ». (تكوين ٤/١٢)، وعبر الفرات إلى أرض كنعان، فكان لقب «العبراني» الذي لصق به و«ببعض» نسله من بعده، كما كان الوعد الإلهي بأرض كنعان لنسله. ((تكوين ٧/١٢)

ومع تزايد ممتلكاته من الماشية هو ولوط، تم الانفصال بينهما حيث اختار لوط السهول الواقعة على امتداد الضفة الشرقية لنهر الأردن والبحر الميت، بينما اختار إبراهيم أرض كنعان الواقعة غربي نهر الأردن. (تكوين ١٣/ ١٠-٣)

ولاشك أن إبراهيم كان بدوياً يعيش على رعي الأغنام ويسكن الخيام، ويرتحل من مكان إلى آخر حيث البيئة المواتية له ولذويه، وذلك كله وفقاً لنظم وقوانين البدو آنذاك. [٧]

وبعد موت إبراهيم، يرأس إسحق القبيلة، وينجب عيسو ويعقوب، ثم يرحل يعقوب - بعد انتزاع بركة أبيه بالخداع والغش - إلى خاله في «حاران» ويتزوج من ابنتي خاله وجاريتيهما، وينجب اثني عشر ابناً وبنتاً واحدة، ويعود إلى أرض كنعان بذويه وممتلكاته ليواصل حياة البداوة، ولتدفعه الحياة بعد ذلك إلى الهجرة إلى مصر، حيث ولده يوسف - ويموت هناك، ويواصل كل أولاده حياتهم في مصر، ويتزايدون، كل سبط له رئيسه ومعالمه التي تميزه عن سائر إخوانه، وليمثل رئيس السبط حلقة الاتصال بين الحكومة المصرية وسبطه، لتنتهي فترة وجودهم في مصر بعد أربعمائة وثلاثين عاماً. (خروج ١٢/ ٤٠) ليخرجوا بعدها - في ظل ظروف دراماتيكية قاسية - إلى سيناء، ليعودوا إلى حياة البداوة القاسية.

وتشهد أحداث الخروج على التقسيم الإثني عشري للخارجين حتى لكأنهم قبائل مستقلة - لكل سبط منهم طريقه في البحر، وعين مائه، ومكانه الخاص في الصحراء، ورايته المميزة له،

وإن خضع الجميع لقيادة موسى الموحدة، حتى تم الوحى ونزول الشريعة، لتصبح السلطة الحاكمة واحدة، والقيادة واحدة : السلطة الإلهية، والقيادة السياسية الموسوية، والزعامة الا بنية الهارونية.

ولكن وحدة السلطة والقيادة والزعامة كانت مشروعاً قصير الأجل، إذ ما لبث القوم أن استولوا على أرض كنعان فى عهد يشوع، واقتسموا الأراضى كل حسب سبطه وعشائره (يشوع من الإصحاح ١٥ حتى الإصحاح ٢٢)، وكان قانون «إدارة الأملاك» الذى نص صراحة على أن : «لا يتحول نصيب لبنى إسرائيل من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكى يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه. فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم أسباط بنى إسرائيل كل واحد نصيبه». (عدد ٣٦/٧-٩)

ويبدو أن هذا القانون الصارم، كان سبباً فى إثارة كثير من المعارك والحروب بين الأسباط، حيث أطماع بعض الأسباط فى البعض الآخر.

(ب) عصر القضاة :

استقر الأسباط، كل في نصيبه، فى شبه استقلال تام، لا يربط بينهم سوى تحالفات لصد عدو أو غازٍ. ولم تكن لهم - حتى فى حالة الحرب - وحدة عسكرية واحدة، بل كان كل سبط يرسل قواته لتحارب ثم تعود إلى مقرها الرئيسى؛ فى نصيبها من الأرض. وكانت القوات الممثلة للأسباط تختار لها زعيماً يتولى قيادتها وقت الحرب وحسب، واتسعت صلاحياته وسلطاته لتشمل القضاء فى دعاواهم، ومن ثم سمى هؤلاء بالقضاة.

لقد كانت سلطاتهم محدودة فى شكلها وزمنها ونطاقها. وتخبرنا التوراة باستمرار عصر هؤلاء نحو أربعمائة وخمسين سنة.

وشهد عصر القضاة معارك بين أسباط إسرائيل من جانب، والأمم المجاورة من أصحاب الأراضى المحتلة من جانب آخر، ورأينا - حسب روايات سفر القضاة - حروباً مع المؤابيين (قضاة ٣/٢٩)، ومع الفلسطينيين (٣/٣١)، ومع ملك كنعان (٤/١).

كما تشهد فترة القضاة انحراف بنى إسرائيل وعبادتهم لآلهة الأمم الأخرى (قضاة ٢/١١ - ١٣؛ ٣/١٢- ١٤؛ ٤/١؛ ٦/١، ٢٨...) وغيرها.

وبدأ صراع الأشقاء. ويقص علينا سفر القضاة أن «أبيمالك» قتل من إخوته بنى يربعل سبعين رجلاً على حجر واحد». (٥/٩)

وكان صراع الإخوة الأعداء على الميراث، بين «يفتاح الجلعادى» واخوته. (قضاة ١١/١-٣).

وبدأ تنافس الأشقاء حول النفوذ السياسى فى المنطقة، وحارب «يفتاح» «إفرايم»، وقتل منهم اثنين وأربعين ألفاً. (قضاة ١٢/٤/٦)

واستمرت الفوضى السياسية التى كان مبعثها التنافس القبلى العصبى، حتى اجتمعت الأسباط فى حرب إبادة ضد سبط واحد منهم، هو سبط بنيامين، وقتلوا من البنياميين فى يوم واحد خمسة وعشرين ألفاً (قضاة ٢٠)، ثم تمت إبادة مدنهم وممتلكاتهم.

وربما كان المظهر الوحيد الذى يربط بين أسباط اليهود أثناء فترة حكم القضاة هو الاحتفالات الدينية التى كانوا يتجمعون فيها لعبادة الرب فى خيمة الاجتماع التى أقاموها فى «شيلوه»، مع أنهم لم يكونوا خالصين فى عبادتهم لله طوال هذه الفترة. كما كان هناك تزاوج مع الأجانب (راعوث ١/٣-٤) مخالفين بذلك أوامر عدم الاختلاط والاندماج «بالجوييم» (غير اليهود).

وكان صموئيل النبى آخر قضاة بنى إسرائيل، وعلى يديه تم تغيير التاريخ السياسى للإسرائيليين، وذلك عندما طلب منه قومه أن يجعل لهم ملكاً كغيرهم من الأمم، مع أن الله فى شريعتهم هو ملكهم، وهم مازالوا على بداوتهم، قبائل تصعب قيادتها من قبل سلطة مركزية واحدة.

ومع أن الرب نفسه قد رأى فى التحول الإسرائيلى من النظام البدوى إلى النظام الملكى رفضاً لذاته: «فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم» (صموئيل أول ٨/٧)، إلا أنه استجاب لهم.

ولقد بين صموئيل لهم التغييرات الاجتماعية المترتبة على النظام الملكى فيما يلى : «وقال: هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيوتكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم». (صموئيل أول ٨/١-٩).

مع كل هذه التحذيرات من سلبيات النظام الملكى وما سيحدثه من تغييرات جوهرية فى هيكل الحياة الاجتماعية والسياسية، إلا أن بنى إسرائيل كان لهم موقف آخر :

«فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا، بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب، ويقضى لنا ملكاً ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا». (صموئيل أول ٨٩/١٩ - ٢٠).

هكذا كان التغيير - وإن كان ديمقراطياً بالمفهوم العصرى - عقوبة من الرب لشعبه الذى رفضه، وليدخل بنو إسرائيل مرحلة جديدة من تاريخهم، الدافع الأوحد لدخولهم فيها هو «تقليد الشعوب الأخرى» على نحو ما نرى فى الشاهد التوراتى أعلاه.

ومع أن التغيير السياسى الإسرائيلى قد تم بناءً على رغبة الأسباط جميعاً، حيث لم تشر النصوص على الإطلاق على أية معارضة، أى أن هناك إجماع سبطى إسرائيلى على التغيير،

إلا أن الرب يمارس هوايته فى تحريك مجريات التاريخ «لشعبه»، ويوحى إلى النبى صموئيل بشخصية أول ملك فى تاريخ بنى إسرائيل :

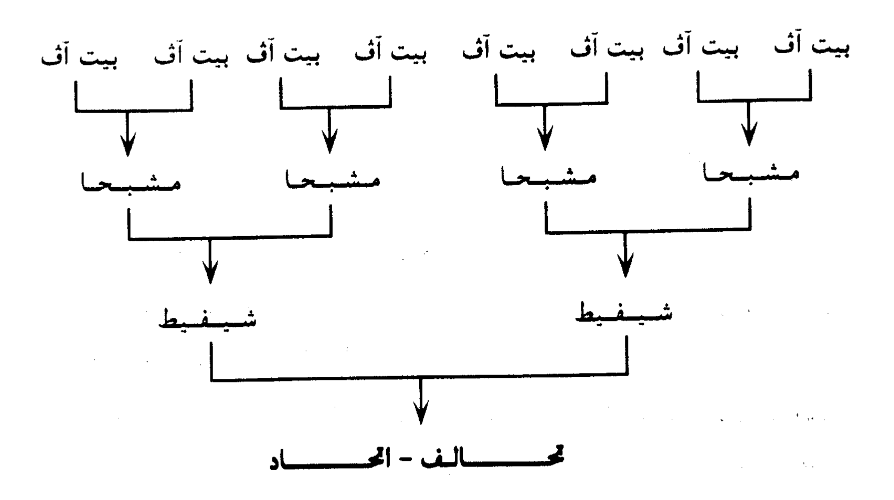
«والرب كشف إذن صموئيل قبل مجئ شاؤل بيوم قائلاً : غداً فى مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين. فامسحه رئيساً لشعبى إسرائيل...». (صموئيل ٩/١٥-٦)

وكان اختيار الملك الأول، من أصغر سبط بين الأسباط، بل ومن أصغر عشيرة وسط سبط بنيامين : إنه شاؤل (صموئيل أول ٩/٢١)

وجاء الرفض الإسرائيلى ممثلاً فى احتقار هذا الملك والسخرية منه، إذ أن مقاييس الملك عندهم تختلف بلا شك عن مقاييس الرب. الأمر الذى يفسر لنا فيما بعد حالة عدم الاستقرار التى عاصرت تاريخ بنى إسرائيل، قبل وأثناء وبعد ما يسمى بالمملكة المتحدة.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على حروب عصر القضاة، مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الدلالات التى سقناها لمصطلحات البنية الاجتماعية لبنى إسرائيل (بيث آف، مشبحا، ايليف....»، يمكننا أن نقف على أسباب هذه الحروب ودوافعها. ينبغى أن نفهم جيداً ما سماه الباحثون بالرؤية المتزامنة مع أحداث تلك الفترة، وأن نحلل تلك المصطلحات، وهو ما قدمه لنا Nor-man Gottwalds فى كتابه «قبائل يهوه» الذى نشره عام ١٩٨٠ [٨]، لقد ركز «نورمان» على المصطلح الإسرائيلى «**شيفيط**» الذى يشير بشكل واضح إلى تنظيم سياسى للمجتمع. ومع أنه تقسيم فرعى مرتبط «بأرض معينة». لكنه فى الحقيقة اوسع من ذلك، لأن النظام فيه يحتذى خطوطاً فاصلة تميزه عن غيره من الأسباط الاخرى

ويمكن تحديد مكانة «السبط» أنذاك من التحليل الآتى



المصطلحات السابقة - باستثناء الشكل الأخير المتمثل فى التحالف السبطى هى مصطلحات تعكس علاقات نسب، تحدد عضويتها وممتلكاتها، وهى فى حد ذاتها ليست مصطلحات توراتية بقدر ما هى ترجمة لمفاهيم تنظيم المجتمع الإسرائيلى كله، ولها وظائف عرقية وعسكرية وقضائية. (٩)

إن الشعور «بالإنتماء» لسبط أو لشعب، كان له دوره البالغ فى كثير من صراعات عصر القضاة.

والدارس لسفر راعوث، لايجد فيه مجرد قصة رومانسية كما يتوهم البعض، وإنما هو انعكاس صادق لقضية «الانتماء» لأحد تلك المصطلحات التى إشرت إليها آنفاً. إنه يجيب بوضوح على «مَنْ مِنْ، ومَنْ ليس مِنْ ؟» النماذج الاجتماعية التى ذكرتها.

وسلوكيات هذه الجماعات الإسرائيلية على نحو ما تعكسه لنا النصوص العبرية (انظر على سبيل المثال الإصحاحين الرابع والخامس من سفر القضاة، وبخاصة ترنيمة ديبورة النبية، قصة أبيمالك : قضاة /٩، والإصحاح الثانى والعشرين من سفر يشوع)، إنما تشير إلى ما

تملكه هذه الجماعات من إحساس قوى بالهوية الجماعية، والحدود المتفاهم عليها. هناك علاقة وطيدة بين وجهة نظر الفرد، ووجهة نظر المجموعة التى ينتمى إليها.

إن علاقات القرابة والنسب قد حددت أسس التعامل داخل المجتمع الإسرائيلى منذ بداية تاريخه، وأهم إفرازاتها هو «من ينتمى ومن لا ينتمى»، وقد بينت لنا هذه العلاقات أن أية محاولة للدخول فى هذا المجتمع، أو هذه المجموعة بصورة غير مشروعة - سواء من خلال التزاوج بالقوة مثلما فى قصة أبناء يعقوب وشكيم (تكوين ٣٤)، أم بقوة السلاح، على نحو ما نجد فى سفر القضاة - هى محاولة مرفوضة تماماً.

(جـ) النظام الملكى فى تاريخ بنى إسرائيل :

لا شك أن بداية النظام الملكى الإسرائيلى كانت موفقه إلى حد ما، وذلك لأن اختيار الملك آنذاك كان من قبل النبى صموئيل وبوحى من الرب على نحو ما أشرت آنفاً - من جانب - ولأن اليهود فى تلك الفترة كانوا يواجهون عدواً يهدد كيانهم بأسره، وأعنى الفلسطينيين، من جانب أخر.

فالعامل الدينى أولاً، والخطر الخارجى ثانياً، كانا عاملين من عوامل التماسك السياسى فى بداية عصر الملكية، ولعل إسرائيل المعاصرة، قد استفادت من هذين العاملين، فربطت وجودها وتماسكها بهذين العاملين أيضاً.

وما أن تمكن شاؤل - الملك الإسرائيلى الأول - من قهر أعدائه وهزيمة الفلسطيين والموآبيين والعمونيين والأدوميين والعمالقة (انظر : صموئيل الأول، الإصحاحات الحادى عشر حتى السادس عشر) حتى اهتز أحد عاملى الاستقرار والتماسك السابق ذكرها، وبدأ صراع سياسى يظهر على السطح بين شاؤل وداود، وسرعان ما اهتز العامل الثانى إثر تمرد شاؤل على السلطة الدينية وخروجه عليها (انظر : صموئيل الأول ١٣/٨-١٥؛ ١٥/٢٢- ٣١ وغيرها)، الأمر الذى انتهى بسحب الدعم النبوى الإلهى من شاؤل، وتوجيهه إلى داود، الذى تم مسحه ملكاً على إسرائيل على يدى النبى صموئيل (صموئيل أول ١٦/١١- ١٣) (١٠)

ويعود عاملا الاستقرار مرة أخرى للظهور : السلطة الدينية المؤيدة لداود الملك، والتهديد الخارجي المتمثل في الفلسطينيين، ومعاودة شن الحروب ضد الإسرائيليين، واستطاع داود أن يقهر أعداءه ويفرض الجزية عليهم، واتسع نطاق الأراضي المحتلة بصورة لم تحدث من قبل في تاريخ بني إسرائيل، وساعدت الظروف «الدولية» آنذاك داود، إذ انشغلت الإمبراطوريات المجاورة بأمورها : المصرية بمنازعاتها الداخلية، والأشورية التي دب الوهن في أوصالها حتى انهارت، والسورية بانقسامها إلى عدة ولايات صغيرة لاحول لها ولاقوة.

ومن هنا توفرت الملابسات لدعم النظام الملكي الإسرائيلي في عصر داود :

الدعم الديني.

القوى الخارجية واستمرارية الصراع معها والتفوق عليها.

ضعف الإمبراطوريات المجاورة والتوسع الإسرائيلي على حسابها.

لقد كان داود يدرك تنافس الأسباط وما بينها من حزازات، لذلك كانت أهم خطواته نقل مركز الحكم بعيداً عن «حبرون» يهوداً إلى مكان «محايد» تمثل آنئذ في «أورشليم»، وقضى بذلك - ولو إلى حين - على بعض عوامل الفرقة بين الأسباط. (١١)

ثم يتولى سليمان المُلك المستقر بعد موت أبيه، وكان ذا حكمة سياسية فائقة، إذ أدرك مكانة وأهمية العامل الديني في استمرارية استقرار المملكة، فشغل أسباط شعبه في بناء هيكل للرب، ليكون رمزاً لوحدة الشعب.

وهنا ندرك مدى ما يشير إليه مصطلح (**هاعام = الشعب**) الذي وضحناه في البداية، وكيف كان مفهومه سبباً في حروب داود واستقرار ملكه في حياته، وبعد مماته.

لم يكتفِ سليمان ببناء الهيكل تكريساً لأهمية العامل الديني، بل استطاع - بذكائه - أن يجعل طبقة الكهنة رهن إشارته، حيث أضفى عليهم هيبة جعلتهم موضع احترام وتقدير، ومحل طاعة بين سائر القوم.

كما استطاع سليمان تأمين حدوده عن طريق مصاهرة ملوك الممالك المحيطة (مخالفاً بذلك الشريعة الإسرائيلية)، ناهيك عن التخلص من مناوئيه في الداخل، وعلى رأسهم أخيه «أدونيا» و«يوآب» قائد الجيش. (انظر تفاصيل ذلك كله في سفر الملوك الأول).

ويعكس عصر سليمان بعض ملامح الحكم الملكي، إذ يقص علينا سفر الملوك الأول مظاهر الثراء والأبهة التي عاش فيها الملك سليمان، حيث بنى له ولزوجاته قصوراً غاية في الفخامة، وكان له ألف وأربعمائة مركبة تقودها حاشيته التي بلغت اثني عشر ألف فارس، حتى «تعاظم على كل ملوك الأرض في الغنى». (ملوك أول ١٠/٢٣)

كما اشتغل سليمان بالتجارة، وبنى لذلك أسطولاً، وتعامل في الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وربما احتكر تجارة الخيول في زمنه.

وكانت هذه الحياة المترفة هي بداية الوهن في مملكة سليمان، وأحد عوامل انهيارها.

ولقد وقع سليمان في «الفخ الديني» الذي نصبه بنفسه لتثبيت أركان ملكه. فبعد أن قوّى النعرة الدينية عند بني إسرائيل، وبنى الهيكل رمزاً لمملكته والتزامها الديني، سقط في براثن عبادة الأوثان، كما تروي أسفار العهد القديم (ملوك أول ١١/١- ١٠)، فكان هذا الانحراف الديني بمثابة عامل آخر ساهم في زعزعة الملك من ناحية، ثم هدمه بعد وفاته من ناحية أخرى.

ولم تكن ثمة تهديدات خارجية لسليمان، فخسر بذلك العامل الأخير الذي طالما كان وراء وحدة بني إسرائيل وتماسكهم تحت مفهوم «**هاعام = الشعب**».

وقبيل وفاة سليمان، تعود المفاهيم والانتماءات القبلية التي تعكسها المصطلحات التي ذكرناها من قبل إلى الظهور، ويتمرد «يربعام بن نباط» من سبط «إفرايم» على سليمان في محاولة للإطاحة به (ملوك أول ١١/٢٦٦)، وتبرز النعرة «السبطية» في العراك بين هذا الإفرايمي و«أخيا الشيلوني» النبي الذي ينبئ «يربعام» بعودة الانقسام «السبطي» إلى بني إسرائيل مرة أخرى.

وما أن مات سليمان وتولى مكانه ابنه «رحبعام» حتى مالت إليه أسباط بني إسرائيل بقيادة «يربعام» الإفرايمي، لكن «رحبعام» لم يكن حصيفاً كأبيه ولا ذا رؤية سياسية فذة

كسليمان، ولم يدرك طبيعة الأسباط المحيطة به، ولا مدى تغلغل المفهوم القبلى السبطى فى النفوس، فانفضت الأسباط من حوله، ولم يبق إلى جواره سوى سبطه - يهوذا - وسبط بنيامين الذى لم يكن له شأن بين سائر الأسباط، ولم يستطع «رحبعام» أن يحافظ إلا على جزء من مملكة أبيه، دعى مملكة يهوذا، نسبه إلى سبطه، وأقامت الأسباط العشرة الباقية مملكة أخرى هى مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة. (١٢)

وهكذا يعود مصطلح «**الشيفيط**» فى صورة «التحالف» ليلعب دوره فى سلسلة من الحروب والمعارك التى خاضها الإسرائيليون فيما بينهم إثر موت سليمان وانقسام مملكة داود وسليمان التى لم يكتب لها من العمر إلا بضعة عقود، هى لا شئ فى عمر الأمم والممالك، وعددت لنا نصوص العهد القديم كثيراً من هذه المعارك على نحو ما وجدنا بين «أمصيا» ملك يهوذا، و«يهوآش» ملك إسرائيل (ملوك ثان ٨/١٤-١٤) وبين «آحاز» ملك يهوذا و«فقح بن رمليا» ملك إسرائيل (ملوك ثان ٧/١٦-١٠)، وبين «أبيا» ملك يهوذا و«يربعام» ملك إسرائيل (أخبار الأيام الثانى ١٨٢/١٣)، وبين «آسا» ملك يهوذا و«بعشا» ملك إسرائيل (أخبار الأيام الثانى ١/١٦-٦)، وغيرها من الحروب والمعارك التى عكست الانتماء القبلى السبطى وقوته فى خلق مرحلة هامة من مراحل تاريخ بنى إسرائيل المضطرب، لتنتهى بنا إلى مرحلة أخرى لا تقل أهمية عنها، وهى مرحلة الخضوع لسيطرة فارس وغيرها من أمم الأرض، وليتوارى الصراع القبلى كمحرك أساسى ورئيسى للأحداث بوجه عام، وللحروب على وجه الخصوص.

الهوامش

١- Hobbs, T.,R., Op. Cit., pp. 21 - 22.

٢- يعقوب كنعانى، معجم اللغة العبرية، أورشليم، ١٩٦٠، جـ١/ ٢٨٠.

٣- المدراشيم هى تفاسير أسفار العهد القديم.

٤- يعقوب كنعانى، مرجع سبق ذكره، جـ١٠/ ٣٤٢٠.

٥- انظر تقسيمات الأسباط فى سفر العدد ١/١-٥٣. وحول تعداد كل سبط من هذه الأسباط، انظر الاصحاح السابق كذلك.

٦- يعقوب كنعانى، مرجع سبق ذكره، جـ١/٤٢٢٧.

٧- G. Ernest Wright, Biblical Archeology, 1957, pp 23 - 24.

نقلاً عن : متى المسكين، تاريخ بنى إسرائيل، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٩.

٨- Hobbs, Op. Cit, p. 33.

٩- Ibid.

١٠- حول الصراع بين شاؤل وداود انظر :

Whybray, R.N., "The United Monarchy" in : A Basic Introduction to the Old Testament, ed. Walton, C., London, 1970, p. 48.

١١- انظر : شفيق مقار، المسيحية والتوارة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٢، ص ٢٧.

١٢- حول الصراع الإسرائيلى انظر : Hermann, S., A History of Israel in Old Testament Time, London, 1975, pp. 187 - 205.

الفصل الرابع

الطابع الأسطورى للحروب الإسرائيلية

عندما أردت أن اكتب عن الحرب الإسرائيلية كما صورها لنا الكتاب المقدس عند أصحابه، لم أكن أتوقع أن أقف فى مرحلة واحدة من مراحل عملية الكتابة موقفاً أعترف بصعوبته من جوانب عديدة مثلما أقف الآن. فالعقل البشرى يعجز أمام هذه النصوص عن فهمها كما أراد أصحابها تماماً، والخيال الإنسانى قد وجد طريقه - بوضوح تام أدركه كثير من الباحثين - إلى ثنايا هذه الصفحات الطوال التى تحكى لنا مشاهد معارك بنى إسرائيل.

هذا الموقف يحتم على أى باحث أن يطرح بعض الأسئلة :

ما مدى صحة هذه النصوص المتعلقة بالمعارك الإسرائيلية من الناحية التاريخية؟

هل ثمة تأثيرات من آداب وسجلات الأمم الأخرى على هذه النصوص؟

ما مدى مصداقية نصوص الحرب العبرية مع الاكتشافات الأثرية؟

هل هناك طابع أسطورى تتسم به هذه النصوص المقدسة؟

.....

الأسئلة كثيرة. بحق، والإجابة عليها إجابات حاسمة أمر لايمكن التكهن به أو التأكد منه، ومن ثم سأحاول جاهداً طرح الرؤية واضحة، مستشهداً - كلما أمكن لى ذلك - بآراء السابقين ممن خاضوا هذا المجال.

أولاً : صحة ومصداقية النصوص العبرية تاريخياً وأثرياً :

يرى فيليب ديفيس أن «إسرائيل القديمة» المذكورة فى الدراسات التوراتية هى من اختراع عقول العلماء، وأن هذا الاعتقاد مبنى على فهم خاطئ للتراث التوراتى، بل إنه بعيد عن الحقيقة التاريخية، (١) فتصور تاريخ إسرائيل القديم كما ورد فى القسم الأكبر من التوراة العبرية لا يعدو أن يكون قصة خيالية، وهو- كما يقول وايتلام - بمنزلة اختلاق للتاريخ، شأنه شأن معظم رؤى الماضى التى كونتها المجتمعات القديمة؛ بل والحديثة أيضاً. (٢)

إن المعلومات التاريخية والأثرية التى توصل إليها الباحثون خلال النصف الثانى من القرن العشرين تظهر بوضوح الطابع غير التاريخى للمرويات العبرية، بل وعدم اتساقها مع تاريخ فلسطين من جانب، وبقية منطقة الشرق الأدنى من جانب آخر، خلال معظم فترات الأسفار التى بين أيدينا.

هذه «الورطة» التاريخية التى واجهت العهد القديم العبرى بدأت فى الظهور بشكل سافر منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما حاول بعض الباحثين النظر فى تاريخية أحداث الكتاب المقدس، وخرج علينا رأى Gunkel , E. Meyer وغيرهما والمتمثل فى «أن الأسفار التوراتية ليست تاريخاً موثقاً يمكن الركون إليه، وأن مصدرها الرئيسى هو الحكايا الشعبية والملاحم والقصص البطولى، مما كان متداولاً شفاهة فى فلسطين والمناطق المجاورة زمن تحرير أسفار الكتاب». (٣)

ولم يكن لمثل هذا الاتجاه التحررى أن يمر دون محاولات تعطيله من قبل الدارسين التوراتيين المؤيدين «لعصمة النص المقدس»، فبدأت حملات المقاومة منذ العشرينيات من القرن العشرين وحتى الستينيات منه، لكن التنقيبات الأثرية الحديثة فى فلسطين لم تترك مجالاً يمكن أن يثبت صحة النص التوراتى إلا ودحضته.

لقد فشلت الحفريات الكبرى فى إثبات أى نص من نصوص المعارك اليشوعية الكبرى - وسنتناول ذلك بشئ من التفصيل فى ثنايا هذا الفصل -، بل لم تستطع العوامل الأركيولوجية أن تميز بشكل واضح بين المجموعات الإثنية الإسرائيلية والكنعانية، الأمر الذى

يجعل مسألة الانتقال من العصر البرونزى المتأخر إلى العصر الحديدى غير صالحة كدليل على فتح إسرائيلى [٤]، ومعنى ذلك أنه حتى لو أثبتت الحفريات تدمير مدينة من تلك المدن المشار إليها فى حروب يشوع، فمن العسير أن نحدد الهوية الإثنية للمدمرين : هل كانوا من بنى إسرائيل أم من الكنعانيين؟

إن نصوص العهد القديم تعد بمثابة لغز بحق فى تاريخ الشرق القديم، فهى الوحيدة التى تروى القصة الكاملة لأحد شعوب الشرق الأدنى القديم، وأعنى به بنى إسرائيل، وأول الأحداث التى أمكن التحقق من صحتها من خلال روايات أخرى غير نصوص العهد القديم، تتعلق بسليمان، وتوجد نتف منها فى النصوص الأشورية. أما بقية الأحداث فهى تجميع للتراث الشفوى، لم يبدأ تدوينه إلا فى القرن التاسع قبل الميلاد على أيدى كتبة سليمان، الذين - كعادة كتاب الملوك والحكام - كان شغلهم الشاغل ينصب على إضفاء الشرعية على غزوات داود وعلى مملكته، عن طريق تضخيم الأحداث. [٥]

ولكن يبدو أن إجماع الباحثين والدارسين الموضوعيين لمصداقية النص العبرى لم تَرُقْ لكثير من المتعصبين لنظرية «عصمة الكتاب المقدس». فكما خرجت علينا فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين مدرسة «علم الآثار التوراتى» بتأثير من وليم فوكسويل أولبرايت فى أمريكا، وحاولت فرض هيمنتها وبث تأثيرها القوى على الدراسات التوراتية حتى ما بعد منتصف القرن، وجدنا فى أواخر هذا القرن العشرين دعوى جديدة لاتخرج إلا عن فكر شيطانى، جمع بين الإلمام بالعربية وإتقان علومها، والإيمان باليهودية وتصديق أحداثها.

إنها دعوى كمال الصليبى التى أوجزها بقوله : «فى الدراسة الراهنة، سنقلب الأمور رأساً على عقب، وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة، ومناقشة صحتها التاريخية، سآخذ تاريخيتها كمسلمة وأناقش جغرافيتها. وبين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بنى إسرائيل كانوا وحدهم المالكين لإحساس مرهف بالتاريخ، أو هم على الأقل الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخياً وعبروا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة مكتملة. وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً، وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره». [٦]

لقد أدرك الصليبى أن قضية الدفاع عن صدق تاريخية التوراة بعد الأدلة الدامغة على عدم صحتها، والمقدمة من شهود الإثبات، من أصحاب الدراسات العلمية والاكتشافات الأثرية الراهنة هى قضية خاسرة. ومن هنا تفتق ذهنه عن حيلة بارعة. لماذا نشكك فى المصداقية التاريخية للتوراة لتصادمها مع الواقع الجغرافى لمسرح الأحداث؟ لماذا لا تكون أحداث مسرحية «بنى إسرائيل» قد وقعت بالفعل فى أماكن ومواقع تحمل نفس الأسماء - هكذا - ولكن بعيداً عن المنطقة التى اعتبرها المؤمنون بالكتاب المقدس والدارسون له مسلمة لا تقبل الجدل؟

إن الصليبى يرى نقل هذا العرض المسرحى الإسرائيلى من فلسطين إلى منطقة غرب شبه الجزيرة العربية، تلك المنطقة المجهولة للدارسين والباحثين تماماً من الناحية التاريخية والأركيولوجية، ولم تصلها بعد معدات التنقيب.

فأحداث التوراة - فى رأى الصليبى - حقائق تاريخية لا تقبل الجدل، وقعت ليس فى فلسطين وإنما فى منطقة عسير وجنوب الحجاز.

أما برهانه على ذلك فهو : تشابه أسماء الأماكن الموجودة فى هذه المنطقة، مع ما ورد فى العهد القديم من أسماء.

ووجود نفس الأسماء فى فلسطين، قد تم فى مرحلة تالية للأحداث بعد أن هاجر بنو إسرائيل إلى موطنهم الجديد فى فلسطين.

ولقد فات الصليبى - الذى اعتمد على منهج المقارنة اللغوية - أن يعلم حقيقة اتفق عليها كثير من علماء اللغة، حيث أقروا بأن الموطن السامى الأصلى للشعوب السامية كلها إنما هو شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد تلك المناطق التى أشار إليها وما حولها..

فلو سلمنا بصحة النظرية اللغوية التى اعتمد عليها الصليبى، فيكون حل اللغز «الصليبى» كما يلى :

كانت جموع الساميين الأوائل تسكن تلك المناطق المشار إليها من غرب شبه الجزيرة العربية، وبالطبع كانت هذه الأماكن تحمل أسماءها السامية، فلما تفرقت الشعوب عنها، وحل

بعضها فى فلسطين، أطلقوا تلك الأسماء التاريخية التى عاشوا فى ظلالها تاريخاً - لايعلم طوله ووصفه إلا الله - على الأماكن الجديدة التى قطنوها، والتى شهدت بالفعل أحداثاً إسرائيلية سطرها لنا العهد القديم.

فالحيلة «الصليبية» بارعة. ولا أنكر أنى قد اعجبت بما فيها من دهاء عندما اطلعت على كتابه، لكن الدراسة المتعمقة لآرائه، بإمكانها أن تهدم ما تبقى من مصداقية لبعض أحداث العهد القديم العبرى.

نعود إلى ما طرحناه من تساؤلات فى مقدمة هذا الحديث، ونعيد ما قد يثار فى الذهن حول تأثيرات «أدبيات الحرب» عند الأمم الأخرى، على تلك النصوص العبرية المتعلقة بالمعارك.

يشير «روبرت كارول» فى دراسة له عن الحرب فى العهد القديم العبرى إلى أن قصة حرب الملك «آحاب» فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الملوك الأول، تتفق بشكل ما مع ما صوره «هوميروس» فى الإلياذة مع اختلافات طفيفة، وبخاصة فى أسماء الآلهة، وربما فى استخدام كثير من الصفات. فهى تخبرنا باستعدادات الحرب مصحوبة بظهور جماعات الأنبياء، كما تشمل وصفاً للوسائل التى سوف يموت بها الملك...، ويؤكد كارول على وجود اتفاق كبير فى المفاهيم بين العهد القديم وأوائل الكتّاب اليونانيين، بما فى ذلك قضية الحرب وأسبابها. (٧)

وإلى هذا الرأى مال آخرون. إذ رأى «وينفيلد» أن دراسة عرض الحرب فى النصوص غير التوراتية القديمة تكشف عن مجموعة من المفاهيم والمقابلات اللغوية لكل ما هو وارد فى التوراة. (٨)

إن ارتباط «يهوه» بالحرب على النحو الذى تعكسه النصوص العبرية، له مقابل واضح فى النصوص القديمة الأخرى، والإلياذة مليئة بمثل هذه المقابلات، حيث «زيوس» و«هيرا» يشاركان فى صنع حروب «آجاممنون» والآخرين، بنفس منهج «يهوه» مع بنى إسرائيل.

لا يمكن لدارس النصوص التوراتية أن يتغاضى عن البيئة الحضارية التى سبقت أو عاصرت هذه النصوص ومدى توافقها معها، كما لايمكن للدارس أيضاً أن يتغاضى عن العلاقة بين مرويات تلك النصوص والأحداث التاريخية التى تدعى تصويرها.

إن قراءة نصوص الحرب فى العهد القديم العبرى تكشف عن حقيقة بينة، وهى أن هذا الكتاب فى حد ذاته هو جزء من المشكلة التى تواجه الباحث فيه، عندما يحاول إيجاد إجابة عن مدى صدق الأحداث وتاريخيتها.

ويبقى بعد ذلك أن نشير إلى طبيعة تلك النصوص التى نتعامل معه فيما يتعلق بأدبيات حروب بنى إسرائيل، وهى أنها فى مجملها نصوص بشرية، تم إخراجها لتلائم أيديولوجية كُتَّابها، فهى إنتاجات فكرية لأصحابها أكثر من كونها أوصافاً لحروب فعلية واقعية. (٩)

ثانياً : الطابع الأسطورى للحروب الإسرائيلية :

ليس من نافلة القول هنا أن نذكّر بالأسطورة : معناها ومبناها، لكننا هنا فى حلٍ من استعراض تعريفات الباحثين واختلافاتهم حول مفهومها. فدراسة النصوص الأسطورية تشير إلى «أن الأسطورة هى حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق، يشف عن معانى ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان». (١٠)

وللأسطورة سمات وملامح : فهى من حيث الشكل قصة، تحكمها مبادئ السرد القصصى من حبكة وعقدة وشخصيات، يحافظ نصها على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال، طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة. ولايعرف للأسطورة مؤلف بعينه، لأنها ظاهرة جمعية وليست وليدة نتاج خيال فردى. فالخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها كلها عوامل تخلق الأسطورة، ولا تقف هذه الجمعية الإبداعية حائلاً ضد خضوع الأسطورة لتأثير شخصيات روحية متفوقة.

إن الأسطورة عبارة عن استخراجات الواقع المحيط بالشعب، ومن ثم فهى ليست من إبداع شخص واحد. (١١) وتتناول الأسطورة مختلف النشاطات الاجتماعية من أدبية وحربية ودينية وغيرها. (١٢)

ويلاحظ أن الإله - أو الآلهة - تلعب دوراً رئيسياً فى الأسطورة، ودور الإنسان فيها يأتى بالطبع مكملاً لدور الإله ولايفوقه.

أما أحداث الأسطورة فتقع فى زمن مقدس هو غير الزمن الحالى، إلا أن مضامينها عند المعتنقين لها أكثر صدقا وحقيقة من التاريخ ذاته، وهى ترتبط بوجه عام بنظام دينى معين، وتعمل على توضيح معتقداته، وربما تدخل فى طقوسه كذلك، ولها سطوة على العقول وقدسية فى النفوس.

والحدود الفاصلة بين الأسطورة والخرافة هى حدود واهية يصعب تمييزها فى أحيان كثيرة، فقد تتشابه الخرافات مع الأساطير فى شكلها ومضمونها، وربما كان العامل الحاسم فى التفريق بينهما هو القداسة.

وهذا لايمنع من وجود حالة تبادل بين الأسطورة والخرافة، إذ قد يعمد كهنة دين ما إلى خرافة يحملونها مضامين دينية، ويضفون عليها طابع القداسة، كما قد تزول صفة القداسة عن أسطورة ما نتيجة تغييرات ثورية فى بنية معتقدات قوم من الأقوام، ومن ثم تتحول الأسطورة - التى كانت يوماً ما مقدسة - إلى خرافة، تستمر فى أدبيات الأمة.

وللأسطورة نظامها الخاص الذى يقف فى بؤرته الإله - أو الآلهة -، وهى تعمد إلى خلق علاقات ذات طابع متميز بين الإنسان والقوى الماورائية، بين المنظور والغيبى. وليست علاقة «يهوه» بشعبه «إسرائيل» إلا نتاج أساطير النصوص العبرية التى بين أيدينا.

إن منشأ الأسطورة - غالباً- يكون عن المعتقد الدينى، ومن ثم تعمل على توضيح هذا المعتقد وتثبيته فى صور وصيغ تتداولها الأجيال للمحافظة على هذا المعتقد، وهى تعمل فى نفس الوقت على تزويد فكرة الألوهية بظلال حية. فهى ترسم للآلهة صورها التى يتخيلها الناس، بل وتعطيها أسماءها وصفاتها، وتحدد لها صلاحياتها، بل وتسطر لها سيرتها وتاريخها. (١٣)

ولما كانت الأسطورة - فى رأى البعض - بداية للتاريخ، والتاريخ هو امتداد لها، فهى تقدم لنا أساساً لمعرفة الظروف والأوضاع التى كانت سائدة فى ذلك الماضى، ومن هنا فإن «باخوفن» يرى أن أى محاولة جادة لفهم الأسطورة ومعناها الحقيقى، تستلزم من الباحث أن يأخذها على ما هى عليه، وأن يفهم روح العصر التى نشأت فيه. (١٤)

ومن هنا، فإن دراسة أساطير الحرب عند بنى إسرائيل تفيدنا - فى حالة صدقها - بمرحلة من مراحل التطور الاجتماعى والحضارى لهؤلاء القوم، أما فى حالة زيفها، فهى تفيدنا - كذلك - بالأسلوب العام للتفكير لدى الإسرائيليين، أو على الأقل لدى الصفوة التى كانت تمتلك القدرة على الكتابة والتحرير.

لم تعد الأسطورة إذن مجرد قصة ذات مغزى أخلاقى، إنما هى فى الواقع مؤشر حضارى يتعامل مع الوجود الإنسانى فى انتشاره مكانياً، واستمراره زمانياً، فلو توقفت الأسطورة عند مجرد القصة المباشرة أصبحت أداة للتسلية، تفقد مع مر الزمن، واختلاف أحاسيس المتلقى، اهتمام الإنسان بها، والإبقاء عليها عن طريق التسجيل أو الرواية من جيل إلى جيل، على نحو ما حرصت عليه المجتمعات القديمة، وكما يشهد على ذلك الواقع التاريخى للأساطير التى وصلت إلينا. (١٥)

ومن هذا المنطلق إذن، «تترجم الأسطورة قواعد السلوك عند جماعة اجتماعية أو دينية بعينها، وتنتمى بالتالى إلى العنصر المقدس الذى تكونت حوله هذه الجماعة». هذا الوصف الذى قدمه لنا «دى روجمون» فى كتابه عن الحب والغرب (١٦) ينطبق إلى حد كبير على الأسطورة وبنى إسرائيل، فهى هنا لا تقل عن التاريخ فى كونها إدراكاً للماضى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياق الذى وجد فيه، وصمم من أجل تعزيز أيديولوجية معينة، لكن هذه الأساطير ليست نتاج ذاكرة جماعية، بل نتاج مجموعات معينة من الناس فى المجتمع. ولقد أكد «فان سيترز» على هذه النقطة فى مقابل النظرة التقليدية فى فهم تطور الدراسات التوراتية. فما يطلق عليه «ذاكرة تاريخية» من المحتمل أن يعبر عن إحساس فئة معينة، أو أفراد معينين يتقاسمون خلفية مشتركة، ووضعاً اجتماعياً مشتركاً. (١٧)

والقراءة المتأنية المدققة لنصوص الحرب فى العهد القديم عند بنى إسرائيل، تقدم لنا مجموعة غزيرة من الأحداث، أدى التعارض الأركيولوجى مع معطياتها إلى أن نرجع انتماء هذه النصوص إلى «فصيلة الأساطير» لا إلى «حقائق التاريخ»، ونحاول - بإيجاز - عرض بعض نماذجها فيما يلى:

١- عبـــور الأردن :

يحدثنا سفر يشوع - المليئ بالأساطير - عن قصة عبور بنى إسرائيل لنهر الأردن فى طريقهم لاحتلال فلسطين، وذلك على النحو التالى :

«فقال يشوع لبنى إسرائيل ... فالآن انتخبوا اثنى عشر رجلاً من أسباط إسرائيل، رجلاً واحداً من كل سبط. ويكون حينما تستقر بطون أقدام الكهنة حاملى تابوت الرب سيد الأرض كلها فى مياه الأردن أن مياه الأردن، المياه المنحدرة من فوق تنفلق وتقف نداً واحداً. ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكى يعبروا الأردن والكهنة حاملو تابوت العهد أمام الشعب. فعند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفة المياه. والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت نداً واحداً بعيداً جداً عن أدام المدينة التى إلى جانب صرتان. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا. فوقف الكهنة حاملوا تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن». (يشوع ٣/١٢-١٧)

تلك قصة عبور بنى إسرائيل للأردن، ولنا حولها قفة، قد نستشف منها عناصر الأسطورة التى تشابكت مع أهداب الحدث، لتخرج لنا نسيجاً لا يخلو من «اللامعقول» الذى يتسم به كثير من أدبيات الأمم والشعوب.

بداية، نشير إلى أن طول مجرى نهر الأردن من جسر دامية (أدام المدينة) إلى مصبه حوالى خمسة وثلاثين كيلومترا، وهو ينحدر انحداراً نسبياً، لكنه يجرى فى سهل منبسط لمسافة طويلة فى غور الأردن، وفى مجرى غير عميق، يمكن رؤية قعر النهر من خلاله فى بعض

الأماكن جافاً. أما ضفتا النهر فتبدوان منبسطتين، وإلى مسافة طويلة على جانبيه، دون أن تشكلا انحداراً نحو مجراه على الإطلاق.

ويؤدى انحدار النهر فى مجراه نحو مصبه فى البحر الميت إلى عدم صلاحية النهر للملاحة، ريلاحظ كذلك وجود مخاضات عديدة فى مجراه، تستخدم فى المعتاد لعبور المارة من ضفة إلى أخرى دون جهد أو خطر وبخاصة فى فصل الجفاف صيفاً، ويصعب المرور فيه فى فترة قصيرة من فصل الشتاء بسبب ذوبان ثلوج الجبال المحيطة به، وارتفاع منسوب المياه فيه. (١٨)

ومن خلال الوصف السابق لنهر الأردن نجد أنفسنا أمام احتمالين :

الأول : عدم صلاحية النهر للملاحة أو العبور على طول مجراه بسبب انحداره من الشمال إلى الجنوب فى الفترة التى يشير إليها سفر يشوع، ومن ثم انعزال العالم الممتد على طول ضفتيه وعدم التواصل، وهذا يخالف التاريخ وحقائقه.

الثانى : عدم صلاحية الملاحة فى النهر، مع إمكانية العبور، وبخاصة وقت الجفاف فى فصل الصيف، الذى تم فيه عبور بنى إسرائيل، ومن ثم لا يمثل عبور يشوع ومن معه فيه أى معجزة.

ويؤكد الاحتمال الثانى ما جاء فى انجيل مرقس (٩/١) ونصه : «وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الخليل واعتمد من يوحنا فى الأردن».

ومازال هذا المكان يدعى حتى اليوم بالمغطس، ويقع فى مواجهة أريحا تقريباً، وهو مخاضة ضحلة العمق، يمكن لعابر النهر أن يجتازها بسهولة، ودون إعجاز. وقد أقام الإسرائيليون بعد عبورهم النهر أول مخيم لهم عبر الأردن غرباً فى مكان يسمى الجلجال، يقع شرق أريحا وغرب المغطس المشار إليه.

وهكذا يتعاون التاريخ مع الجغرافيا ليؤكدا تغلغل العنصر الأسطورى فى قصة عبور النهر، كما نجد توافر العناصر المكونة للأسطورة هنا والمتمثلة فى قدسية زمن الحدث، وتوضيح المعتقد الإسرائيلى فى الإله «يهوه» المحارب، فهو الذى أمر يشوع وكلمه، وبهذه الأسطورة «تعلمون أن الله الحى فى وسطكم» (يشوع ٣/ ١٠)، ومن ثم تؤدى الأسطورة دورها - على

نحو ما أسلفنا - المتمثل فى تثبيت المعتقد الدينى على مر الأجيال، كما أنها رسمت ليهوه صورته كمخلص ومنجٍ لشعبه، بل أعطته - هنا -اسماً من أسمائه وهو «الله الحى».

وهذا كله ينطبق وما أسلفناه فى حديثنا عن الأسطورة.

٢- سقوط أريحا :

كان على بنى إسرائيل بعد عبورهم النهر مواجهة أول تجمع سكانى، وهو مدينة أريحا التى تبدو أنها كانت قد علمت بعزم الإسرائيليين على قتالها، فتحصنت وغلقت بوابها وقبع أهلها بداخلها. وهكذا ينبئنا سفر يشوع : «وكانت أريحا مقفلة بسبب نبى إسرائيل، لا أحد يخرج منها ولا أحد يدخل». (يشوع ١/٦)

وقصة سقوط أريحا فى أيدى الإسرائيليين هى قصة الرب «يهوه» قبل أن تكون قصة شعبه، إذ حدد الرب ليشوع خطوات القتال وباركه وأيده وبشره بالنصر قبل خوض القتال. وقد تلخصت أوامر الرب ليشوع وقومه فيما يلى :

(أ) دوران رجال الحرب (وعددهم أربعون ألفاً) حول المدينة مرة كل يوم لمدة سبعة أيام (٦/٣-٤)

(ب) يحمل سبعة من الكهنة أبواق الهتاف السبعة أمام التابوتن. (٦/٤)

(جـ) فى اليوم السابع يدورون حول المدينة سبع مرات.

(د) فى اليوم السابع - أيضاً - يضرب الكهنة بالأبواق (٦/٤).

(هـ) عند سماع جميع الشعب لصوت البوق يهتفون هتافاً عظيماً فيسقط سور أريحا (٦/٥)

يتضح العنصر الأسطورى فى قصة اريحا فى سقوط السور نتيجة هتاف الشعب - إذا سلمنا بصحة الواقعة تاريخياً - وليس نتيجة خطة عسكرية، مع ان يشوع قد جعل المقاتلين فى المقدمة، والنافخين فى الأبواق خلفهم - وهم الذين يعطون إشارة الهجوم بالأبواق - ثم حملة التابوت فى القلب، وأخيراً المؤخرة. إن ترتيب يشوع الوارد فى الإصحاح السادس ترتيب عسكرى خالص. آتى ثماره المتوقعة، وتم اقتحام الأسوار نتيجة «الانقضاض» الإسرائيلى عليه

وهناك تأويلات أخرى لهذا الحدث، يؤيدها التاريخ، وتقويها الآثار، وهى فى نفس الوقت تكشف الستار عن أسطورية «فتح أريحا».

فعلم الآثار يفيدنا بأن مدينة أريحا كانت مهجورة قبل زمن الفتح، حيث دمرت المدينة نتيجة زلزال وقع عام ٢٣٠٠ ق.م، وقد أعيد بناؤها مرة أخرى عام ١٩٠٠ ق.م، واستمرت الحياة فيها حتى ١٥٦٠ ق.م، ثم هجرت تماماً، وفى منتصق القرن الرابع عشر قبل الميلاد - أى فى العصر البرونزى الأخير - عاد بعض السكان إليها واستوطنوا أماكن قليلة متفرقة من المدينة، حيث عثر على آنية من الفخار ترجع إلى هذه الفترة داخل مقابر يعود تاريخها إلى منتصف العصر البرونزى وأعيد استخدامها، كما عثر على أطلال بيت بداخله جرة صغيرة يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وفى نفس الوقت، لايوجد أى شئ يمكن نسبته إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والذى حدثت فيه عملية الغزو الإسرائيلى، فلا توجد أية آثار لتحصينات من العصر البرونزى الحديث، بل لم تكن أريحا قائمة وقت دخول الإسرائيليين إليها. (١٩)

وقد تنبه الباحثون لهذه الحقائق، وانتهت ك.م كينيون إلى أنه من المستحيل أن نربط بين حادثة تدمير أريحا وحادثة دخول الإسرائيليين إلى المدينة فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. (٢٠)

وهكذا نجد مكونات الأسطورة وعناصرها ووظائفها مجسدة فى فتح أريحا، على نحو ما أسلفنا فى حديثنا عن الأسطورة.

فعملية الغزو تنتمى إلى العنصر المقدس - يهوه - على نحو ما أشار دى روجمون.

وهى تعزز أيديولوجية معينة تتمثل فى أن «الرب هو المحارب»، وهو تعبير ورد عشرات المرات فى نصوص الحرب العبرية.

وقد توفرت لأسطورة سقوط أريحا عناصر الشكل المطلوبة من حبكة وعقدة وشخصيات.

كما كان للرب «يهوه» الدور الرئيسى فيها، ووقعت أحداثها فى زمن مقدس، هو زمن بدء تحقيق الوعد الإلهى بالأرض الفلسطينية.

ومع كل هذا ، نشم رائحة الخرافة المتمثلة فى سقوط سور المدينة نتيجة الهتاف، وقد حمّل كتبة العهد القديم هذه الخرافة مضموناً دينياً، وأضفوا عليها طابع القداسة، وتم التبادل بين الخرافة والأسطورة، وتحولت خرافة «الهتاف» إلى أسطورة، تمثل جزءاً من أسطورة أكبر هى : فتح أريحا. (٢١)

٣- غــزو عــاى :

يقص علينا الإصحاح الثامن من سفر يشوع تفاصيل عسكرية بحتة، تعتمد على «تكنيك الكمين» الذى طبقه الإسرائيليون فى كثير من حروبهم ومعاركهم القديمة، وهو فى هذا الإصحاح يتعلق بغزو مدينة عاى فى أرض فلسطين.

وتقضى خطة يشوع بأن يكمن ثلاثون ألفاً من مقاتليه وراء المدينة، ثم يقترب يشوع - وجميع الشعب - إلى المدينة حتى يراهم أهل عاى ويخرجون للقائهم، وعندها يفر يشوع ومن معه مستدرجاً أهل عاى، يخرج الكامنون ويملكون المدينة.

وعاى - كما يصفها يشوع - مدينة لها أرض، وبها شعب، ولها ملك (١/٨)، ويبدو أن شعبها لا يستهان به، لأن أمر الرب إلى يشوع يستوجب الإعداد المعنوى والمادى : «فقال الرب ليشوع : لا تخف، ولا ترتعب، خذ معك جميع رجال الحرب، وقم اصعد إلى عاى...» (١/٨).

فلو أن أهل عاى كانوا قلة أو غثاءً، ما كان الدعم الإلهى المعنوى ليشوع : «**لا تخف ولا ترتعب**»، وما كان الهجوم بكل القوة الحربية البشرية للمهاجمين «خذ معك **جميع رجال الحرب**».

وقد أراحنا يشوع وسفره عندما حدد لنا قوة أهل عاى فقال : «فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً جميع أهل عاى». (٢٦/٨)

هذه قصة عاى كما وردت فى النصوص العبرية. فما حقيقة المدينة تاريخياً ؟!

على الرغم من اختفاء العنصر الخرافى من القصة، وإمكانية وقوع أحداثها وفقاً للعقل والمنطق، فإن علم الآثار يدحض المسألة برمتها.

هناك بعثتان مختلفتان قامتا بإجراء عمليات تنقيب فى موقع عاى المزعوم، وجاءت نتائجهما متطابقة حيث تفيد أن التل كان مدينة كبيرة خلال العصر البرونزى القديم، لايعرف اسمها آنذاك، وقد تم تدميرها حوالى عام ٢٤٠٠ ق.م، وظلت غير مأهولة إلى ما بعد عام ١٢٠٠ ق.م، عندما ظهرت مدينة غير ذات شأن تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد - أى بعد دخول بنى إسرائيل بفترة طويلة - ثم أصبح الموقع بعد ذلك مهجوراً تماماً.

ونخلص من الآراء السابقة التى تؤيدها الحفريات - التى لا تعرف الكذب - إلى أنه عندما جاء الإسرائيليون إلى هذا المكان **لم يكن هناك مدينة تدعى عاى ولا ملك يدعى ملك عاى** (يشوع ٢٩/٨)، وإنما مجرد أطلال خربة يرجع تاريخها إلى ١٢٠٠٠ سنة. (٢٢)

ويؤكد ما سبق، ما كتبه أحد الأثريين المنقبين فى هذه المنطقة وهو جيمس بريتشارد من جامعة برنستون (عام ١٩٦٥م) حيث ذهب إلى أنه ليس ثمة شك، بناء على أفضل ما يتوافر من أدلة وشواهد، فى أنه لم يكن هناك مدينة معاصرة ليشوع تحمل اسم عاى. (٢٣)

٤- تدمير حاصور :

يقص علينا الإصحاح الحادى عشر من سفر يشوع قصة تحالف عسكرى قاده «يابين» ملك حاصور، إذ :

> «لما سمع يابين ملك حاصور (بما فعله الإسرائيليون مع المدن الأخرى) أرسل إلى يوباب ملك مادون وإلى ملك شمرون وإلى ملك أكشاف. وإلى الملوك الذين إلى الشمال فى الجبل وفى العربة جنوبى كنروت وفى السهل وفى مرتفعات دور غرباً. الكنعانيين فى الشرق والغرب والأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين فى الجبل والحويين تحت حرمون فى أرض المصفاة. فخرجوا هم وكل جيوشهم معهم شعباً غفيراً كالرمل الذى على شاطىء البحر فى الكثرة، بخيل ومركبات كثيرة جداً، فاجتمع جميع هؤلاء الملوك بميعاد، وجاءوا ونزلوا معاً على مياه ميروم لكى يحاربوا إسرائيل». (١١/١-٥)

تشير الفقرات السابقة إلى «حرب عالمية»، اجتمع فيها ملوك وشعوب وجيوش ممالك ودول وأمم لمحاربة بنى إسرائيل. وتبدو المبالغة الأسطورية واضحة، فقوة بنى إسرائيل آنذاك، لم تكن لتقارن بقوات كل هذه الأمم، لكن تلك المبالغة الأسطورية كانت ضرورة ومقدمة لحبكة القصة وللعنصر الأسطورى التالى والمتمثل فى تدخل الإله «يهوه» : «فقال الرب ليشوع : لا تخفهم، لأنى غداً فى مثل هذا الوقت أدفعهم جميعاً قتلى أمام إسرائيل، فتعرقب خيلهم، وتحرق مركباتهم بالنار». (٦/١١)

ولاتخلو نتائج القتال من مظاهر أسطورية. فبعد أن هزم يشوع جميع جيوش التحالف :

> «رجع يشوع فى ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف، لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك. وضربو كل نفس بها بحد السيف. حرّموهم، ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف ... وأخذ يشوع كل تلك الأرض الجبل وكل الجنوب وكل أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل وسهله. من الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد فى بقعة لبنان تحت جبل حرمون». (١١/ ١٠-١٧)

وبغض النظر عن هذه القوة «العنترية» غير المعقولة، والنتائج المذهلة التى تتطلب - إذا وقعت بحق - أضعاف قوات الإسرائيليين لتحقيقها والمحافظة عليها، فإن التنقيبات الأثرية دلت على أن «حاصور» قد دمرت فى نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو التدمير الذى يتفق تاريخه مع حملة «سيتى الأول - فرعون مصر - على فلسطين، ثم أعيد بناؤها مباشرة لتدمر عام ١٢٣٠ تقريباً. (٢٤)

٥- أساطير عصر القضاة :

مع أن نهايات سفر يشوع توضح لنا استقرار الغازين الإسرائيليين بعد أن أراحهم الرب من أعدائهم حواليهم (يشوع ١١/٢٣)، وبعد أن قسم لهم يشوع - بالقرعة - هؤلاء الشعوب

الباقين ملكاً حسب أسباط بنى إسرائيل (٤/٢٣)، فإن سفر القضاة يعطينا صورة مناقضة تماماً عن تلك القبائل الإسرائيلية المسيطرة. فمع أن القبائل قد استقرت، إلا أنها عبارة عن جماعات مفككة منقسمة على نفسها إلى فريقين متناحرين : قبائل شمالية، وأخرى جنوبية.

وكانت هناك مجموعة من المدن الكنعانية القوية تمثلها أورشليم وجازر وعجلون، تفصل بين الفريقين وتمنع اتصالهما، بل كانت هناك مدن كنعانية سقطت فى أيدى الإسرائيليين ومع هذا تعيش حياتها كمدن مستقلة، وبعض المدن الأخرى التى عاش فيها الإسرائيليون إلى جوار سكانها، حيث لم يتمكنوا من طردهم (انظر مثلاً : سفر القضاة ١/١١؛ ٢١؛ ٢٧؛ ٢٨؛ ٢٩؛ ٣٠؛ ٣١؛ ٣٢؛ ٣٣؛ ٣٤...).

ويحاول أصحاب الاتجاه التوراتى تبرير ذلك الواقع المتناقض تبريراً لاهوتياً أكثر منه تاريخياً، إذ يذهب س.هـ غوردن فى كتابه «الشرق الأدنى القديم» إلى أنه «عند اقتحام أرض كنعان، لم يمارس الإسرائيليون عملية إبادة كاملة للكنعانيين ولم يطردوهم من مدنهم وأراضيهم. وحينما كانت شوكة الإسرائيليين تقوى كانوا يستعبدون الكنعانيين ويشغلونهم فى أعمال السخرة لصالحهم. لقد أرادت المشيئة الإلهية إبقاء الكنعانيين إلى جانب بنى إسرائيل من أجل إبقاء روح النضال قوية، وشعلة الإيمان متقدة، فإذا رجحت كفة الكنعانيين فى الصراع، عاد الإسرائيليون عن غيهم، وانقلبوا إلى عبادة الإله القادر على تخليصهم من يد أعدائهم. (٢٥)

إن التسلسل الزمنى فى سفر القضاة - كما أشار Hughes - هو محض خيال، اخترعه اليهود فى المنفى مع تسلسل أحداث سفرى صموئيل، لكى يمدونا بمشروع تاريخ عمره ألف سنة، يغطى تاريخ وجود إسرائيل فى أرض كنعان، ومن ثم لايمكننا الاعتماد على رواية سفر القضاة لمعرفة التسلسل التاريخى لبنى إسرائيل.

أما نوعية المعلومات المتعلقة بالبناءات الاجتماعية فى سفر القضاة، والتى يمكننا استنتاجها من نصوص للدلالة على صدق الرواية لفترة «ما قبل الدولة»، فهى غير كافية على الإطلاق، ولا تتطابق الرواية مع النص على نحو له مصداقيته ولايرقى إليه الشك، وذلك فيما

يتعلق بالقرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد، إذ كانت فلسطين عبر تاريخها الطويل مجتمعاً زراعياً فى أساسه مع عنصر رعوى منذ العصر البرونزى (٣٥٠٠ - ٨٠٠ ق.م) وحتى القرن الحالى. فالعناصر المكونة لهذا المجتمع - كما يحدد سفر القضاة - يمكنها أن تتلاءم بسهولة مع أية مرحلة تاريخية فى هذه الفترة الزمنية الهائلة. (٢٦)

ويفهم مما سبق أن إمكانية وقوع أحداث القضاة فى الفترة التاريخية التى تشير إليها نصوص السفر، مسألة قابلة للشك، وليست هناك أدلة تقوى من صدقها تاريخياً، خاصة وأن سفر القضاة هو المرجع الوحيد المباشر لهذه الفترة من تاريخ الإسرائيليين، ولايمكن استخدامه فى إعادة البناء التاريخية لأن الإطار المحرر «اصطناعى» وغير مقنع، وتفاصيل أحداثه تنقصها المصداقية. (٢٧)

وهكذا، فإن سفر القضاة، (٢٨) والذى يأتى فى مكانة هامة من دراسة الحروب الإسرائيلية، يفقد مصداقيته التاريخية، وتحليله وفق عناصر الأسطورة التى أشرت إليها فى البداية، يجعلنا نضيفه إلى زمرة «الأساطير المؤسسة للتاريخ الإسرائيلى».

٦- المملكة الموحدة والأساطير :

الجديد فى تفاصيل معارك سفر صموئيل هو هذا البعد الملحمى. فأحداثها أقرب إلى الواقع رغم المبالغة والتهويل، كما أن البطل فيها يشكل صورة مثالية عن الإنسان، وعن ما هو إنسانى.

فالقصص الحربى فى هذا السفر (بقسميه الأول والثانى) يتخذ من قصص الصراع بين القبائل الإسرائيلية والفلسطينية خلفية له، كما يتخذ من قصص ظهور الملكية وعلاقة شاؤل بداود مركزاً للأحداث، وذلك كله يمثل قضايا جدلية كبرى فى أروقة الدراسات التوراتية المعاصرة، ويثير العديد من التساؤلات.

ويشير روبرت كارول نقطة أساسية فى التعامل مع هذه النصوص عندما يقرر أنه ليس من الحكمة أن نزعم أن قصص الحروب وتفاصيل التكتيكات الحربية التى تظهر فى

النصوص موثوقة كالتاريخ، أو أنها تقدم رؤية جادة لواقع التاريخ الاجتماعى للفترة التى تنسب إليها.(٢٩)

وهذا لايعنى عدم وجود معلومات تاريخية واجتماعية قابلة للتصديق فى هذا القصص، لكن من الصعب للغاية أن نحدد فى أى قصة أى العناصر يمكن أن تكون تاريخية، وأيها يمكن أن يكون أسطورياً.

ومثال على ذلك الخلط التاريخى - الأسطورى، ما ورد فى صموئيل الأول بشأن قتل داود للعملاق الفلسطينى «جليات» (١٧/ ٥٠)، بينما نجد أن قاتل جليات فى نص آخر هو «ألحانان بن يعرى أرجيم البيتلحمى» (صموئيل الثانى ١٨/٢١).

لكن كاتب سفرى أخبار الأيام قد عالج ببراعة هذا النص وتلاعب به، وجعل «الحانان البيتلحمى» يقتل «لحمى» شقيق «جليات» الفلسطينى بدلاً من جليات نفسه (أخبار الأيام الأول ٢٠/٥). ولايفوتنا أن نأخذ بعين الاعتبار تطور القصة فى (صموئيل الأول/١٧) حيث تبلغ ضعف حجمها فى الترجمة السبعينية فى طبعتها اليونانية القديمة.

فمن قتل جليات؟ ومن قتل الحانان؟!

لاشك أن ثمة ملحمة لشخصية بطولية قامت بمهمة قتل جليات، أصبحت نموذجاً يتطلع المرء لتقليده، وينسج على متواله خيوط بطولات أسطورية مزعومة.

ومن جانب آخر، تشير نصوص المملكة المتحدة فى العهد القديم إلى أن داود قد وحد قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وأسس أول وآخر مملكة موحدة للإسرائيليين، وتقص علينا نصوص سفر صموئيل أن داود - بعد استقرار الأمور الداخلية - قد اتجه إلى التوسع، فأخضع منطقة شرقى الأردن ثم امتد شمالاً إلى آرام، فأخضع دمشق والممالك الآرامية الأخرى (انظر : صموئيل الثانى /١٨)، وجاء بعده سليمان ليتولى مهام الإعمار والبناء والتشييد والازدهار الحضارى.

هذا الإطناب التوراتى فى تفخيم وتضخيم أعمال داود وسليمان، هل يجد له صدى فى التاريخ الواقعى والأركيولوجى؟!

قد تشير التنقيبات إلى قيام سلطة مركزية خلال القرن العاشر قبل الميلاد فى فلسطين الداخلية، لكن ليس ثمة دلائل على التقدم الحضارى والازدهار الاقتصادى المشار إليه فى نصوص العهد القديم، بل كانت غالبية السكان فى المملكة المتحدة يعيشون حياة بسيطة وأقرب إلى الفقر.

ومن جانب آخر، تشير المكتشفات إلى أن الديانة الكنعانية المتركزة حول آلهة الخصب المعروفة، قد سادت كل المواقع التوراتية المكتشفة، أما عظمة أورشليم المشار إليها، فلا دليل عليها على الإطلاق. (٣٠)

وفى اعتقادنا، أن مملكة داود وسليمان - وإن كانت حقيقية تاريخية - إلا أنها لم تكن بنفس الملامح الأسطورية التى وضعها كتّاب العهد القديم، والتى لم تؤكدها أية نصوص أو مكتشفات أثرية أخرى. (٣١)

٧- أساطير ما بعد الأنقسام :

المقارن لنصوص العهد القديم ومعاركه بوجه خاص، يلاحظ بعض التغيير فى منهج سرد الأحداث، إذ يميل محررو النصوص إلى تنسيق الروايات التاريخية، وإن كانت لا تتفق تماماً والشواهد التاريخية والأثرية.

ويميز هذه الفترة، تلك الحروب الأهلية العديدة التى راح ضحيتها ربما أكثر من التعداد الحقيقى للإسرائيليين.

ويغلب على نصوص هذه الفترة عنصران :

الأول : أسطورى تمثل فى العديد من المواقف نحو ضرب ملاك الرب لجنود سنحاريب عند أسوار أورشليم وقتل ما يقرب من مائتنى ألف، وهو ما ورد فى (الملوك الثانى ١٩/٣٥).

والثانى : ملحمى يتمثل فى تلك المهام البطولية التى قام بها بعض الأنبياء، على نحو ما نجد فى أعمال «إيليا» فى عصر الملك «آخاب» الذى فلق مياه الأردن لإحضاره (الملوك الثانى ٢/٨)، وقتل مائة من جنود الملك جاءوا لأخذه (الملوك الثانى فى ١/٣-١٤)، وإنزال المطر وحبسه عن الأرض (الملوك الأول ١٧/١؛ ١٨/١ - ٤٦) وغيرها.

وأخيـراً ،،،

فإن نصـوص العهـد القديم بوجـه عـام، ومـا يتـعلق منهـا بالحروب والمعـارك التى يتـصور الإسرائيليون أنهم قد خاضوها عبر التـاريخ، لتمتلئ بالأساطير والملاحم والخرافـات، وهذا فى حد ذاته موضوع دراسة مستقلة، تستحق منا الاهتمام.

ولقد اكتفيت فى هذا المقام بما ذكرت رغبة فى الإيجاز، وتركـاً لمجالات أخرى يقوم بهـا الباحثون لتتمة هذا العمل فهناك تأثيرات الأمم الأخرى التى جاورها الإسرائيليون ونقلوا عنهم أساطيرهم بعد أن « أسرلوها » وصبغوها بالروح العبرية، وظلوا يرددونها عبر قرون، بعد أن جعلوها جزءاً من عقيدتهم، وعقيدة آخرين.

هناك كثير من الدراسات التى فصلت ما أجملناه هنا، أبرزها تلك الدراسة المستـفيـضة لجيمس فريزر عن الفولكلور فى العهد القديم، ودراسة أنيس فريحه «فى القصص العبرى القديم»، ودراسة شفيق مقار «قراءة سياسيـة للتوراة» ودراستـه الثـانية عن «السحر فى التوراة» وغيرها.

الهوامش

١- كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة سحر الهنيدى عالم المعرفة (٢٤٩)، الكويت، ١٩٩٩، ص٢٨.

٢- المرجع السابق، ص ٥٩.

٣- فراس السواح، الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط٣، ١٩٩٧، ص٥.

٤- توماس، ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ترجمة صالح على سوداح، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٢- ٢٣.

٥- روجين جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة محمد هشام، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص ٦٦.

٦- كمال الصليبى، التوراة جاءت من جزيرة العرب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩١، ص ٥٣.

٧- Caroll, R., Op. Cit., pp. 25 - 26.

٨- Weinfeld, M., Divine War in Ancient Israel and in the Ancient Near East, 1984, pp. 121 - 147, C.F. Caroll, ibid, p. 37.

٩- Caroll, R., Op. Cit, p. 37; Mayes, A, Deuteronomy New Century Bible, London 1979, p. 283 - 304; Weinfield, P., Deuteronomy and the Deuteronomic School, Oxford, 1972, pp. 45- 51, 238 - 239.

١٠- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧، ص ١٤.

١١- فوزى فهمى، المفهوم التراجيدى والدراما الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٠.

١٢- حسن الحاج حسين، الأسطورة عند العرب فى الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٦.

١٣- فارس السواح، الأسطورة والمعنى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤.

١٤- أحمد أبو زيد، الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعى، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥، ص ١١.

١٥- لطفى عبد الوهاب يحيى، الأسطورة والحضارة والمسرح فى مأساة «أوديب ملكاً»، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥، ص ٩٢.

١٦- سامية أسعد، الأسطورة فى الأدب الفرنسى المعاصر، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥، ص ١٠٩.

١٧- كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

١٨- ياسين سويد، التاريخ العسكرى لبنى إسرائيل من خلال كتابهم، بيروت، ١٩٩٨، جـ١/ ١٣.

١٩- انظر : روجيه جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة محمد هشام، دار الشروق، القاهرة، ط٢ ١٩٩٨، ص ٦٩- ٧٠؛ فراس السواح، الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط٣ ١٩٩٧، ص ١٩٩.

٢٠- Kenyon, K.M., Digging up Jericho, London, 1947, pp. 256 - 265,

نقلاً عن : روجين جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

مرجع سبق ذكره،، ص ٧٠. انظر كذلك : Smith, R., H., Old Testament History The Book of Joshua, Abing don Press, Nashvelle, 1983, p. 17.

وانظر كذلك : جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨، ص١٢٤.

٢١- المزيد حول غزو أريحا وأسطوريته فى : كاثلين .م. كنيون، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة شوقى شعث وسليم زيد، دار الجليل للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ٥٧.

٢٢- Perea du Vaux (O.P.), Histoire ancienne d'Israel, ed. Le coffre et Gebalda, Pares, 1971, p. 565.

نقلا عن : روجيه جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مرجع سبق ذكره، ص ٧١.

انظر كذلك : Smith, R., H., Op. Cit., p. 18.

٢٣- كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣.

٢٤- حول أساطير يشوع بن نون فى حروبه ومعاركه انظر : ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم جمع من أساطير ترجمة حسان ميخائيل اسحاق، د.ن، ١٩٩٤، ص ٢١١ - ٢٢٠.

٢٥- C. H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, N.Y., 1965, pp. 148 - 149

نقلاً عن : فارس السواح، الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٢.

٢٦- كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مرجع سبق ذكره، ص ٧١.

٢٧- المرجع السابق، ص ٧٠.

٢٨- حول أساطير عصر القضاة، انظر : ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم جمع من أساطير، مرجع سبق ذكره، ص ٢١١ - ٢٥٤.

٢٩- War in Hebrew Bible, Op. Cit, p. 33.

٣٠- Kenyon, K., Archaeology in the Holy Land, London, 1985, p. 254.

نقلاً عن : فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٦.

٣١- المزيد حول أساطير هذه الفترة في ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم جمع من أساطير، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠١ - ٣٩٨.

الفصـــل الخامــس

مفهوم الإبادة «الهولوكوست» فى العهـد القديم

تقول الباحثة سوزان نيديتش عن أهمية دراسة الحرب فى النصوص الدينية العبرية: «إن العنف الخاص الذى تحمله النصوص العبرية المقدسة ليلهم ويثير العنف الذى اتخذ نموذجاً للاضطهاد والاستعباد والإبادة لآلاف السنين على خلاف الواقع، وهذا وحده يكفى كى يجعل من دراسة أعراف الحرب فى تلك النصوص العبرية مهمة خطيرة وهامة. فالعهد القديم - كأى عمل رئيسى من إبداع البشر - يعكس من نحن، وطبيعتنا كبشر». (١)

فحروب العهد القديم ومافيها من عنف وإبادة كانت مصدر إلهام لكثير من الشعوب والأمم، بمعنى أنها كانت «قدوة» ونموذجاً يحتذى به، ومن ثم وجدنا باحثين كثيرين قد ردوا الفكرة الصليبية - على سبيل المثال - إلى أصول يهودية، وهذا ماسطره رولاند بينتون وجيمس جونسون وغيرهما فى كتابات حديثة. (٢)

وجدير بالذكر أن معظم الأعمال الكلاسيكية حول أخلاقيات العهد القديم بوجه عام، منذ بدايات القرن العشرين، قد أعطت اهتماماً محدوداً لموضوع الحرب فى العهد القديم. ففى مناقشة موقف العبرانيين من الأجانب، والذى أخذ مساحة كبيرة فى مناقشات بعض الباحثين مثل سميث وهينكلى (٣)، لم تحظ فقرات سفر التثنية (٢٠/١٠-١٤) إلا بسطور قليلة منهما، فى الوقت الذى كانت تستحق فيه هذه السطور إسهابا وشرحاً، كما لم يكلفا نفسيهما عناء الخوض فى الأبعاد العويصة «للحيرم»، (الإبادة) بإستثناء باحث مثل بروس (٤) الذى خصص عدة صفحات عن «حروب الإبادة» ضد الكنعانيين، وحاول تبرير ذلك بوثنية الكنعانيين الحسية الشنيعة و«ضرورة عملية جراحة أخلاقية لاستئصاله».

من هذا المنطلق إذن : قلة معالجة موضوع الحرب من ناحية، وخطورة مصطلح «**الحيرم**» وتطوره فى أسفار العهد القديم من ناحية ثانية، ولأننا - كعرب ومسلمين- مازلنا نواجه بعض ظاهر هذا المصطلح فى العصر الحديث من ناحية ثالثة، رأيت أن أقوم بهذه الدراسة حول مصطلح «**الحيرم**» فى العهد القديم كجزء من دراستنا عن الحرب عند العبريين القدماء.

ويبدو أن بعض الباحثين قد رأى استحالة وقوع مثل تلك الحروب الواردة فى العهد القديم فراح يشكك فى مصداقيتها. يقول روبرت كارول : «من غير المؤكد أن مثل هذه الحروب قد وقعت فى عصور التاناخ، فمن الممكن أن تكون هذه النصوص الواردة فى العهد القديم، والتى تصور إبادة العدو، هى نصوص قد تم إخراجها لتلائم أيديولوجية الكتاب الذين كتبوا الأسفار الخمسة». (٥)

ويقول فى موضع آخر تعليقاً على صعوبات تفسير النصوص العبرية : «والآن، مثل هذه المجموعة من مشاكل تفسير وقراءة النصوص العبرية، تجعل من العسير أن نؤكد ما هو حقيقى من المعلومات التاريخية فى التوراة العبرية». (٦)

وفى أكثر من موضع يؤكد كارول على الطبيعة البشرية للنصوص العبرية، فهى ليست إلا «إنتاجاً فكرياً للمجتمعات القديمة»، ونصوص الحرب بصفة خاصة «تنتمى إلى إنتاجات فكرية لكتاب العهد القديم أكثر من كونها أوصافاً للحرب». (٧)

كما شكك آخرون غير كارول فى وقوع تلك المعارك (٨)، وعزت سوزان نيديتش ما ورد فى الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر العدد - على سبيل المثال - إلى «اعتقاد الكاتب فيما يجب أن يكون عليه العالم». (٩)

وبغض النظر عن مناقشة قضية مدى حقيقة المعارك الواردة فى العهد القديم وواقعيتها، فنحن هنا نتعامل مع نصوص «واقعية» بين أيدينا منذ قرون، وعلى أصحابها - إن أرادوا إنكار ما فيها - أن يقروا بزيفها ويتبرأون منها، فتلك قضية أخرى تخصهم هم بالدرجة الأولى، فحقيقة المضمون النصى ليست قضيتنا هنا، وإنما قضيتنا هى وجود هذا المضمون بين أيدينا.

تحـديـد المصطلـح :

استخدم مصطلح «**الحيرم**» في العهد القديم - بصوره اللغوية المختلفة - للدلالة على معان عديدة منها النذر والتخصيص ومصادرة الشئ من أيدى أصحابه. لكن الاستخدام الأكثر ذيوعاً لهذا المصطلح فى أسفار العهد القديم قد ارتبط بالإحراق وبالتدمير والقتل والتخريب والإماتة والإبادة التامة والاستئصال [١٠]، وهذا الاستخدام الذائع «للحيرم» يتفق والمعانى التى يشير إليها مصطلح «الهولوكست» الأجنبى الأصل. [١١]

ولست أول من وصف **الحيرم** بالهولوكوست، فقد رأى برنارد أندرسون أن «**الحيرم**» الوارد فى أسفار العهد القديم كنذر للرب «إنما هو هولوكوست [١٢]» ولعل دراستنا لهذا المصطلح على هذه الصفحات تبين العلاقة الوطيدة بين المصطلحين من ناحية، كما تكشف لنا مصدر الإلهام فى العصر الحديث لبعض الوقائع التى يمكن ردها إلى النصوص العبرية المقدسة.

معنى «الحيرم» فى النصوص العبرية :

فى استقراء للنصوص العبرية التى تتعلق «**بالحيرم**» يمكننا أن نقف على معنيين لهذا المصطلح، أولهما يرتبط بالحروب ويعنى إبادة تامة لكل الكائنات التى تتم هزيمتها فى الحرب، وهو ما تعكسه النصوص الآتية :

> «ولما سمع الكنعانى ملك عراد الساكن فى الجنوب أن إسرائيل جاء فى طريق أتاريم حارب إسرائيل وسبى منهم سبياً. فنذر إسرائيل نذراً للرب وقال: إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدى أحرم[١٣] مدنهم. فسمع الرب لقول إسرائيل، ودفع الكنعانيين فحرموهم ومدنهم، فدعى اسم المكان حرمة». (العدد ٢١/١-٣).

وقد نجد مبرراً لهذا التدمير الشامل للعدو، وعلى نحو ما نجد فى بعض النصوص (انظر : العدد ٢١/٢٣-٢٤، التثنية ٢/٣٠- ٣٥، ٧/٢- ٦)، ولكننا لانجد أى مبرر منطقى فى حالات أخرى عديدة، سوى مجرد الوفاء بالأمر من الرب (انظر: يوشع ٦/١٧،

٢١ وكذلك ٢٤/٨-٢٩، ٢٨/١٠، ثم الإصحاحات ٣٠. ٣١. ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠ من سفر يوشع أيضاً).

أما المعنى الثانى «للحيرم» فنجده فى غير نصوص الحرب ويعنى التخصيص للرب. ففى سفر اللاويين ٢٨/٢٧ نجد ما يلى :

«أما كل محرم يحرمه (يخصصه أو يقدسه أو يوقفه) إنسان للرب من كل ماله من الناس والبهائم ومن حقول ملكه فلا يباع ولا يفك، إن كل محرم هو قدس أقداس للرب» (١٤).

فكلمة «حيرم» فى مثل هذا النص لاعلاقة لها بالحرب، ولاتشير على الإطلاق إلى أشياء مدمرة، ولكنها تعنى ملكية تخصص ويضحى بها للرب، لاستخدامه أو لاستخدام كهنته، وهو مانص عليه أمر الرب فيما يتعلق بمهام كهنته فى سفر حزقيال ٢٩/٤٤ : «وكل محرم فى إسرائيل يكون لهم».

أما ما يدخل فى نطاق «الحيرم» بمعنييه : الإبادة الشاملة (الهولوكوست) أو الوقف، فقد أشار سفر صموئيل الأول ٣/١٥ إلى مشتملات الإبادة على النحو التالى: «فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له، ولاتعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة. طفلاً ورضيعاً. بقراً وغنماً. جملاً وحماراً» (١٥).

كما يوضح سفر يشوع ٢١/٦ كل ما تمت إبادته (تحريمه) فى مدينة أريحا بما يلى: «وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف».

وقد أشار نص اللاويين إلى مشتملات «الوقف» والتخصيص للرب، فى الإصحاح السابع والعشرين، فى الفقرة الثامنة والعشرين.

لكن الرب قد يفدى بعض هذه المشتملات المخصصة له مثل أبكار البشر، الأمر الذى يبدو جلياً فى ذلك النص الكهنوتى الوارد فى سفر العدد ١٤/١٨- ١٧ :

«كل محرم فى إسرائيل يكون لك (لهارون وبنيه وبناته). كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون لك غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكر البهيمة النجسة تقبل فداءه... لكن بكر البقر أو بكر الضأن أو بكر المعز لا تقبل فداءه. إنه قدس. بل ترش دمه على المذبح، وتوقد شحمه وقوداً رائحة سرور للرب».

وجاء أيضاً فى سفر العدد ٣/ ٣٠- ٤٨ ما يلى :

«وقال الرب لموسى عد كل بكر ذكر من بنى إسرائيل من ابن شهر فصاعداً وخذ عدد أسمائهم . فتأخذ اللاويين لى. أنا الرب. بدل كل بكر فى بنى إسرائيل. وبهائم اللاويين بدل كل بكر فى بهائم بنى إسرائيل . .... وكلم الرب موسى قائلاً . خذ اللاويين بدل كل بكر فى بنى إسرائيل وبهائم اللاويين بدل بهائمهم فيكون لى اللاويون. أنا الرب . وأما فداء المئتين والثلاثة والسبعين الزائدين على اللاويين من أبكار بنى إسرائيل . فتأخذ خمسة شواقل لكل رأس .... وتعطى الفضة لهارون وبنيه فداء الزائدين عليهم».

وفداء الإنسان نصت عليه أيضاً بعض فقرات من سفر الخروج، وذلك مثل : «ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين كما حلف لك ولأبائك وأعطاك إياها . أنك تقدم للرب كل فاتح رحم وكل بكر من نتاج البهائم التى تكون لك. الذكور للرب . ولكن كل بكر حمار تفديه بشاة. وإن لم تفده فتكسر عنقه. وكل بكر إنسان من أولادك تفديه». (الخروج ١٣/١١-١٣) .

«لى كل فاتح رحم. وكل ما يولد ذكراً مواشيك بكراً من ثور وشاه . وأما بكر الحمار فتفديه بشاة. وإن لم تفده تكسر عنقه. كل بكر من بنيك تفديه..» (الخروج ٣٤/١٩- ٢٠) .

وإذا كان بكر الإنسان يفتدى لقيمته عند الرب، فإن بكر الحمار يفتدى كذلك - أو يدق عنقه- لنجاسته. (١٦)

ولكن النصوص السابقة تتعارض مع نص كهنوتى آخر ورد فى سفر اللاويين (٢٨/٢٧ - ٢٩) حيث يخبر الرب موسى بما يلى :

« أما كل محرم يحرمه إنسان للرب من كل ما له من الناس والبهائم ومن حقول ملكه فلايباع ولايفك، إن كل محرم قدس أقداس للرب. كل محرم يحرم بين الناس لايفدى. يقتل قتلاً».

ويمكن حل التناقض بين نصوص العدد والخروج واللاويين فيما يتعلق بفك المحرم من الناس (العدد ٢٨/٢٧) وقتله قتلاً (اللاويين ٢٧/٢٨-٢٩) بأن الأمر الأول يتعلق بالمحرم من بنى إسرائيل، والأمر الثانى يتعلق بالمحرم من غير بنى إسرائيل، وذلك فى حالة النذر لا فى حالة الحرب .

أنواع الحيرم فى النصوص العبرية :

أولاً : الحيرم كقربان للرب

يعتبر تقديم القرابين من الطقوس الرئيسية فى عبادة اليهود ، وكانوا يقدمونها لله تعبيراً عن اعترافهم بخطاياهم ، أو لتكفيرهم عنها ، أو لتوبتهم عن ارتكابها ، أو لشكرهم لله ، أو لتكريس أنفسهم لخدمته ، أو لغير ذلك من الأسباب والأغراض[١٧] .

وكانت قرابين اليهود تشمل المحرقات والذبائح والرفائع والعشور والنذور[١٨]، ولم تخلُ كذلك من ذبح البشر أو حرقهم قرباناً للرب . إن القربان البشرى موضوع متكرر فى اليهودية ، ومحاولة ربطه بأصول وثنية مسألة صعبة التحقيق ، لأن " وضع خط فاصل بين الأجنبى أو الوثنى أو التعددى من الأفكار وبين الإسرائيلى أو اليهودى ليس بعملية سهلة أو يمكن القيام بها بدقة كما يظن البعض " [١٩] . وهناك إجماع من الباحثين خلال العقد الأخير على أن التضحية بالابن Child Sacrifice كانت جزءاً من الديانة الإسرائيلية القديمة فى أجزاء واسعة من المجتمعات الإسرائيلية فى العصور المختلفة [٢٠].

ومما لاشك فيه، أن القرابين البشرية كانت معروفة وممارسة بين تلك الشعوب والأمم التى احتك بها الإسرائيليون بشكل أو بآخر .

فعلى سبيل المثال، يذكر لنا جيمس فريزر بعض الاكتشافات التى تعد من الآثار الباقية لعادة التضحية بالإنسان، والتى لعبت دوراً بارزاً فى الديانة الكنعانية، وقد تبين ذلك من خلال دراسة الهياكل البشرية التى تم اكتشافها فى فلسطين، والتى ترجع إلى ماقبل الغزو العبرى لها [٢١].

ويذكر كونتنتو أن الكنعانيين قد مارسوا هذه العادة حتى عصور قريبة، وروى فيلون أنهم كانوا يضحون - فى حالات الكوارث - بأعز أبنائهم لدرء تلك الأخطار عنهم، كما روى ديودور الصقلى أنهم ضحوا بمائتى طفل فى صقلية [٢٢].

وكان العمونيون يقدمون أبناءهم ذبائح للإله ملكوم أشهر أصنامهم (ويعرف كذلك بمولك)[٢٣]، كما عرف الموآبيون تلك العادة، على نحو ما أخبرنا سفر الملوك الثانى ٢٧/٣.

أما المصريون القدماء فقد قدموا ضحاياهم وقرابينهم البشرية إلى آلهة النبات ليجود محصول الأرض[٢٤]، كما كانوا يتوسلون إلى الإله رع بتقديم القرابين البشرية له حتى يزول غضبه عنهم [٢٥]، كما قدموها كذلك للإله أوزوريس فى معابده، بل قدموها كذلك لأرواح الموتى ولخدمتهم فى قبورهم، واسترضاءً لإله النيل كى يغمر البلاد بخيره وفيضانه [٢٦].

وعلى الرغم من تعدد النصوص العبرية الى تحرم تقديم القرابين البشرية كعادة الوثنيين ، على نحو ماجاء فى سفر اللاويين ٢١/١٨ " ولا تعط من زرعك (أى نسلك للإجازة (تقديم الأطفال كذبيحة) لمولك (إله العمونيين) لئلا تدنس اسم إلهك" ، وماجاء فى سفر التثنية ٩/١٨-١٠ ونصه : " متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم . لايوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار .... "[٢٧]، فإننا نجد الإسرائيليين يمارسون عادة تقديم القرابين البشرية ،.ويذكر لنا جيمس هنرى برستد أنهم كانوا لايزالون فى عصر القضاة متأثرين بصورة واضحة بحياتهم خلال قرون طويلة ، وقبل دخولهم فلسطين ، حيث كانوا لايزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة مثل ذبحهم الولد البكر قرباناً لإله القبيلة [٢٨]

كما يؤكد تيودور هـ . روبنسون على تأثر بنى إسرائيل بعبادات الكنعانيين وشعائرهم بعد دخول فلسطين ، ومن تلك العبادات والشعائر تقديم القرابين البشرية للإله (٢٩).

وتحدثنا النصوص العبرية بأن تقديم القرابين البشرية كان منتشراً فى عصر الانقسام فى مملكتى يهودا وإسرائيل (٣٠).

فالملك آحاز بن يوثام ملك يهودا قد " عبّر ابنه فى النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل " . ملوك٢ (١٦/٣) .

والملك منسى بن حزقيا ملك يهودا أيضًا " عبّر ابنه فى النار ". ملوك٢ (٢١/٦).

أما ملوك إسرائيل فهم أيضًا "عبّروا بنيهم وبناتهم فى النار ". ملوك٢ (١٧/١٧)

وفى قائمة مفاسد بنى إسرائيل ، جاء فى إشعيا : " أما أنتم أولاد المعصية ، نسل الكذب . المتوقدون على الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون لأولادهم فى الأودية تحت شقوق المعاقل " ٥٧/٤-٥ .

ويتكرر ذكر تلك الجريمة فى إرميا : «وبنوا { بنو يهوذا } مرتفعات توفة التى فى وادى ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذى لم آمر به ولا صعد على قلبى» ٣١/٧ (٣١).

وفى إحصاء لرجاسات أهل أورشليم ، يذكر الرب شعبه بمخازيهم وأفعالهم النكراء ، ومنها قتل الأبناء وتقديمهم للآلهة . يقول الرب لأورشليم : «أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لى وذبحتهم لها طعامًا» (حزقيال ١٧/ ٢٠) .

وجاء فى شرح تلك الفقرة : إن أهل أورشليم قد مارسوا كل عبادة الكنعانيين الفاسدة ، كما مارسوا وثنية غيرهم من الأمم الوثنية كالأشوريين والمصريين والكلدانيين والأموريين والحثيين ، بل إنهم فاقوهم فى ممارسة هذه الوثنية حيث أخذوا بنيهم وبناتهم وذبحوهم للآلهة الوثنية طعامًا ، بل وأجازوهم فى النار(٣٢).

ويؤكد كثير من الباحثين على بقاء شكل من أشكال التضحية بالابن كجزء من طقوس الدولة حتى الحركة الإصلاحية فى القرن السابع قبل الميلاد ، فى عصر الملك يوشيا (٣٣).

وبعد أن بينا آنفًا تغلغل القرابين البشرية فى الديانة الإسرائيلية خلال فترات طويلة من تاريخ أصحابها ، يمكننا أن نفهم تلك النصوص العبرية التى تقدم لنا « **الحيرم** » كقربان للإله ، حتى أصبح هذا التقليد " **الحيرم** كقربان للرب " أمراً ذا صبغة عامة تطبع تاريخ الديانة الإسرائيلية القديم ، إذ لم يقتصر على تقديم الأبناء للرب وحسب ، بل تعداه ليشمل تقديم الأعداء المهزومين فى الحرب قرباناً للرب بذبحهم وحرقهم وإبادتهم إبادة تامة ، وما أكثر النصوص التى توضح لنا أن التقرب إلى الرب بالدم وبالتضحية بالإنسان كان أمراً شائعًا فى الديانة الإسرائيلية . ومن هذه النصوص على سبيل المثال :

> «فكان روح الرب على يفتاح ، فعبر جلعاد ومنسى مصفاة جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر إلى بنى عمون . ونذر يفتاح نذراً للرب قائلاً : إن دفعت بنى عمون ليدى. فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة . ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم فدفعهم الرب ليده. فضربهم من عروعير إلى مجيئك إلى منيت عشرين مدينة وإلى آبل الكروم ضربة عظيمة جداً . فذل بنى عمون أمام بنى إسرائيل . ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته، وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص . وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها. وكان لما رآها مزق ثيابه وقال : آه يابنتى، قد أحزنتنى حزنًا وصرت بين مكدرىّ لأنى قد فتحت فمى إلى الرب ولا يمكننى الرجوع . فقالت له: يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب فافعل بى كما خرج من فيك . بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك بنى عمون. ثم قالت لأبيها فليُفعل لى هذا الأمر. اتركنى شهرين فأذهب وانزل على الجبال وأبكى عذراويتى أنا وصاحباتى . فقال اذهبى ، وأرسلها إلى شهرين فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذره الذى نذر ، وهى لم تعرف رجلاً.

فصارت عادة فى بنى إسرائيل . أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة
إلي سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة».
(القضاة ١١/٢٩-٤٠) .

إن أبسط مايمكن أن يستخلص من قصة يفتاح الجلعادى مع ابنته أن مسألة تقديم الإبنة - أو الإنسان بوجه عام - كانت أمراً مألوفًا بين بنى إسرائيل ، إذ لو كانت فعلاً مستهجنًا لوجد من يراجعه فيه ، أو لتراجع يفتاح عن تنفيذ نذره . إنها صفقة بين يفتاح والرب . النصر مقابل القربان البشرى .

إن الوفاء بالنذر من قبل يفتاح مع ابنته وحيدته ، وعدم تراجعه أو حتى تردده فى حرق ابنته ليوحى بالاعتقاد الجازم فى أن النصر الإلهى له فى حربه ضد بنى عمون كان مرتبطًا بالنذر ، وإن عدم الوفاء به قد يعرضه لهزائم من قبل أعدائه .

ومن النصوص العبرية المقدسة نجد كذلك ما يلى :

«.... هكذا قال الرب ، لأنك أفلتُّ من يدك رجلاً قد حرمتُهُ ،
تكون نفسك بدل نفسه وشعبك بدل شعبه» (ملوك ١ ٢٠/٤٢).

«فهذا اليوم للسيد رب الجنود ، يوم نقمة للانتقام من مبغضيه،
فيأكل السيف ويشبع ويرتوى من دمهم . لأن للسيد رب الجنود
ذبيحة فى أرض الشمال عند نهاية الفرات» (إرميا ٤٦/١٠).

«وأنت يا ابن آدم فهكذا قال السيد الرب . قل لطائر كل جناح
ولكل وحوش البر اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى
ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل
لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا . تأكلوا لحم الجبابرة وتشربون دم
رؤساء الأرض كباش وحملان وأعتده وثيران كلها من مسمنات
باشان . وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من
ذبيحتى التى ذبحتها لكم» (حزقيال ٣٩/١٧-١٩).

«اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا ، وأيها الشعوب أصغوا . لتسمع الأرض وملؤها . المسكونة وكل نتائجها . لأن للرب سخطًا على كل الأمم وحموًا على جيشهم . قد حرمهم دفعهم إلي الذبح . فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم. ويفنى كل جند السموات . وتلتف السموات كدرج وكل جندها ينتثر كانتثار الورق من الكرمة والسُّقاط من التينة لأنه قد رَوِيَ في السموات سيفي . هو ذا على أدوم ينزل وعلى شعب حرَمْتُهُ للدينونة للرب سيف قد امتلأ دمًا . أطلى بشحم خراف وتيوس . بشحم كُلى كباش ، لأن للرب ذبيحة في بُصرة وذبحًا عظيمًا في أرض أدوم. ويسقط البقر الوحشي معها والعجول مع الثيران وتروى أرضهم من الدم وترابهم من الشحم يُسمَّن » (إشعيا ٣٤/١-٧).

ولعله من المتمم للفائدة هنا أن نشير إلى ذلك النص المطول والذى يتضمن تحريم "إريحا" ، وتطبيق " الإبادة الربانية " على تلك المدينة ومن فيها ، فقد جاءت تفاصيل تلك العملية فى الإصحاح السادس من سفر يشوع، ويمكن لنا أن نستخلص منها ما يلى .

أولاً : لقد كانت إبادة أريحا وتحريمها من قبل يشوع وجنده امتثالاً لأمر إلهى ، بشّر به الرب يشوع فى بداية القصة : «فقال الرب ليشوع : انظر . قد دفعت بيدك اريحا وملكها جبابرة البأس» (٦/٢).

ثانيًا : هناك شعائر وطقوس دينية قام بها بنو إسرائيل قبل تحريم المدينة ، الأمر الذى يعنى أن عملية الإبادة هى «عبادة» يتوجه بها الشعب لربه :

«تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب. حول المدينة مرة واحدة هكذا تفعلون ستة أيام وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت وفى اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع

مرات والكهنة يضربون بالأبواق . ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق أن جميع الشعب يهتف هتافًا عظيمًا فيسقط سور المدينة فى مكانة ويصعد الشعب كل رجل مع وجهه » (٦/٢-٥) .

ثالثًا : استثنى الرب الذهب والفضة وآنية النحاس والحديد من الإبادة ، واستأثر بها لتوضع فى خزانته ، وهى هنا أشياء ذات قيمة ، بل إن قيمتها تفوق قيمة النفس البشرية :

« وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسًا للرب وتدخل فى خزانة الرب » . (٦/١٩) .

رابعًا : هناك استثناء إلهى لراحاب الزانية وأهلها من الذبح بحد السيف ، جزاءً لما قدمته من خدمات جليلة للإسرائيليين أثناء تجسس غلامين من أتباع يشوع للمدينة :

« فتكون المدينة وكل مافيها محرمًا للرب . وراحاب الزانية فقط تحيا هى وكل من معها فى البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما » . (٦/١٧) .

لكننا نجد نصًا تثنويًا - يتعارض مع هذه الاستثناءات - لايستثنى من الإبادة حتى الإسرائيليين أنفسهم ، إذا ما اتبعوا سبيل الأمم الأخرى فى الشرك . فالمحرقة شاملة للوثنيين من أبناء الأمم الأخرى ، ولمن سار على ضلالتهم من بنى إسرائيل ، ولكل محتويات المدينة من ثروات وبهائم ، دون استثناء النجس منها أو ماله قيمة :

« إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً قد خرج أناس بنو لئيم من وسطك وطرحوا سكان مدينتهم قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفوها وفحصت وفتشت وسألت جيداً وإذا الأمر صحيح وأكيد قد عمل ذلك الرجس فى وسطك فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل مافيها مع بهائمهم بحد السيف تجمع كل أمتعتها

إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعده ولايلتصق بيدك شىء من المحرم لكى يرجع الرب من حمو غضبه ويعطيك رحمة يرحمك ويكثرك كما حلف لآبائك إذا سمعت لصوت الرب إلهك لتحفظ جميع وصاياه التى أنا أوصيك بها اليوم لتعمل الحق فى عينى الرب إلهك» (التثنية ١٣/١٢-١٨) .

ثانيًا : الحيرم كعقاب إلهى :

يمكن القول بأنه إلى جانب ظهور " الإبادة " أو " الحيرم " فى النصوص العبرية كقربان للرب ، كانت هناك أيديولوجية أخرى " للحيرم " تتمثل فى أنه عقاب إلهى وعدالة ربانية . إن كتّاب سفر التثنية ومؤيدى إصلاحات يوشيا يعتبرون " الحيرم " وسيلة لاقتلاع الرجس والخطيئة ، ولتحقيق علاقة نقية طاهرة بين إسرائيل والرب .

وفى الحقيقة ، إن الشكل الغالب على النصوص العبرية هو التعامل مع " الحيرم " لا كقربان للرب مقابل النصر ، وإنما كعقاب عادل ومستحق للوثنيين والخطائين وهؤلاء الذين يقودون إسرائيل إلى الضلالة ، أو يرتكبون ظلمًا مباشراً ضد إسرائيل ، ومن هنا نجد أن «الحيرم» كعقاب إلهى عادل يدفع للحرب ويشجع عليها وذلك بهدف تطهير الجماعة لنفسها ولنزع الشر فيما وراء الجماعة ذاتها ، ولتطبيق الحكم الإلهى .

هناك حد فاصل إذن بين "الأنا" و" الآخر"، بين الطاهر والنجس، بين هؤلاء الذين يستحقون الخلاص، وأولئك المستحقين للإبادة ، ومن ثم ، فالعدو ليس مجرد بشر ،بل قربان ضرورى للفوز بالعون الإلهى ، وهنا يتداخل المفهومان : القربان والعدل الإلهى ، لكن الهدف واحد .

إن خطورة أيديولوجية " الحيرم " كعدالة إلهية تكمن فى أنها تخول لفريق قبول مبدأ قتل الفريق الآخر وتجريده من الصفات الإنسانية .

ومن هذا المنطلق ، وجدنا " الحيرم " كعقاب إلهى ليس قاصراً على الأمم الوثنية الأخرى ، بل إنه يطبق أيضًا على بنى إسرائيل أنفسهم عند انحرافهم .

فمن النصوص التى تشير إلى الانتقام الإلهى من الأغيار عقابًا لهم على ما اقترفوه فى حق إسرائيل نجد مايلى :

«وقال صموئيل لشاول : إياى أرسل الرب لمسحك ملكًا على شعبه إسرائيل ، والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود : إنى قد افتقدت ماعمل عماليق بإسرائيل حين وقف له فى الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولاتعفُ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعًا، بقراً وغنمًا، جملاً وحماراً» (صموئيل ١ ١٥/١-٣).

وحكم الرب على بابل يدخل فى هذا الإطار ، ويتضح ذلك فى سفر إرميا حيث جاء فيه :

«بسبب سخط الرب لا تُسكن بل تصير خربة بالتمام. كل مارٍ ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها. اصطفوا على بابل حواليها يا جميع الذين ينتزعون فى القوس. ارموا عليها. لا توفروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها. قد أعطت يدها. سقطت أسسها. نُقضت أسوارها. لأنها نقمة الرب هى فانقموا منها. كما فعلت افعلوا بها، اقطعوا الزراع من بابل وماسك المنجل فى وقت الحصاد ...» (٥٠/١٣-١٦) .

ثم يأتى العقاب الإلهى ممثلاً فى الأمر بإبادة بابل وتحريمها واضحًا وصريحًا :

«هلم إليها من الأقصى .افتحوا أهراءها. كوموها عرامًا وحرموها ولاتكن لها بقية. أهلكوا كل عجولها. لتنزل للذبح. ويل لهم لأنه قد أتى يومهم زمان عقابهم» (إرميا ٥٠/٢٦-٢٧).

والإصحاح الخمسون من سفر إرميا يقدم لنا تفاصيل " الإبادة اليهودية " مع البابليين ، لأنهم قد أخطأوا إلى الرب .

وكما أن الإبادة التامة هى عقاب الوثنيين من الأمم الأخرى ، فقد نبه الرب بنى إسرائيل إلى ما ينتظرهم من عمليات التدمير الجزئى والكلى : لعنة واضطراب وزجر وهلاك وفناء وأمراض وأوبئة وهزائم . والإصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية يقدم لنا صورة مفصلة لعمليات الإبادة الإلهية للشعب المختار ، إذا ما عصاه ولم يطبق الناموس :

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك . ملعونًا تكون فى المدينة وملعونًا تكون فى الحقل . ملعونًا تكون سلتك ومعجنك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك . ملعونًا تكون فى دخولك وملعونًا تكون فى خروجك . يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعًا من أجل سوء أفعالك إذ تركتنى . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها. يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك. وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاسًا والأرض التى تحتك حديداً. ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وترابًا ينزل عليك من السماء حتى تهلك. يجعلك الرب منهزمًا أمام أعدائك. فى طريق واحد تخرج عليهم وفى سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقًا فى جميع ممالك الأرض. وتكون جثتك طعامًا لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس من يزعجها. يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء. يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب. فتتلمس فى الظهر كما يتلمس الأعمى فى الظلام ولاتنجح فى طرقك بل لاتكون إلا مظلومًا مغصوبًا كل الأيام وليس مخلص. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها. تبنى بيتًا ولاتسكن فيه.

تغرس كومًا ولاتستغله. يذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه. يغتصب حمارك من أمام وجهك ولايرجع إليك. تدفع غنمك إلى أعدائك وليس لك مخلص . يسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار فتكلان وليس فى يدك طائلة . ثمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لاتعرفه فلا تكون إلا مظلومًا ومسحوقًا كل الأيام. وتكون مجنونًا من منظر عينيك الذى تنظره. بضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لاتستطيع الشفاء من أسفل قدمك إلى قمة رأسك. يذهب بك الرب وبملكك الذى تقيمه عليك إلى أمة لم تعرفها أنت ولا آباؤك، تعبد هناك آلهة أخرى من خشب وحجر. وتكون دهشًا ومثلاً وهزأة فى جميع الشعوب الذين يسوقك الرب إليهم. بذاراً كثيراً تخرج إلى الحقل وقليلاً تجمع لأن الجراد يأكله. كرومًا تغرس وتستغل وخمراً لاتشرب ولاتجنى لأن الدود يأكلها . يكون لك زيتون فى جميع تخومك وبزيت لاتدهن لأن زيتونك ينتثره. بنين وبنات تلد ولايكونون لك لأنهم إلى السبى يذهبون. جميع أشجارك وإثمار أرضك يتولاه الصرصر. الغريب الذى فى وسطك يستعلى عليك متصاعداً وأنت تنحط متنازلاً. هو يقرضك وأنت لاتقرضه. هو يكون رأسًا وأنت تكون ذنبًا. وتأتى عليك جميع هذه اللعنات وتتبعك وتدركك حتى تهلك لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه التى أوصاك بها. فتكون فيك آية وأعجوبة وفى نسلك إلى الأبد. من أجل أنك لم تعبد الرب إلهك بفرح وبطيبة قلب لكثرة كل شىء. تستعبد لأعدائك الذين يرسلهم الرب عليك فى جوع وعطش وعرى وعوز كل شىء فيجعل نير حديد على عنقك حتى يهلكك. يجلب الرب عليك أمة من بعيد من أقصاء الأرض كما يطير

النسر أمة لاتفهم لسانها. أمة جافية الوجه لاتهاب الشيخ ولاتحن إلى الولد. فتأكل ثمرة بهائمك وثمرة أرضك حتى تهلك ولاتبقى لك قمحًا ولا خمراً ولازيتًا ولا نتاج بقرك ولا إناث غنمك حتى تفنيك. وتحاصرك فى جميع أبوابك حتى تهبط أسوارك الشامخة الحصينة التى أنت تثق بها فى كل أرضك. تحاصرك في جميع أبوابك فى كل أرضك التى يعطيك الرب إلهك. فتأكل ثمرة بطنك لحم بنيك وبناتك الذين أعطاك الرب إلهك فى الحصار والضيقة التى يضايقك بها عدوك. الرجل المتنعم فيك والمترفه جداً تبخل عينه على أخيه وامرأة حضنة وبقية أولاده الذين يبقيهم. بأن يعطى أحدهم من لحم بنيه الذى يأكله لأنه لم يبق له شيء فى الحصار والضيقة التى يضايقك بها عدوك فى جميع أبوابك. والمرأة المتنعمة فيك والمترفهة التى لم تجرب أن تضع أسفل قدمها على الأرض للتنعم والترفه تبخل عينها على رجل حضنها وعلى ابنها وبنتها. بمشيمتها الخارجة من بين رجليها وبأولادها الذين تلدهم لأنها تأكلهم سراً فى عوز كل شيء فى الحصار والضيقة الى يضايقك بها عدوك فى أبوابك. إن لم تحرص لتعمل بجميع كلمات هذا الناموس المكتوبة فى هذا السفر لتهاب هذا الاسم الجليل المرهوب الرب إلهك. يجعل الرب ضرباتك وضربات نسلك عجيبة ضربات عظيمة راسخة وأمراضًا رديئة ثابتة. ويرد عليك جميع أدواء مصر التى فزعت منها فتلتصق بك. أيضًا كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك. فتبقون نفراً قليلاً عوض ماكنتم كنجوم السماء فى الكثرة لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك. وكما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض التى

أنت داخل إليها لتمتلكها. ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر. وفى تلك الأمم لاتطمئن ولايكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلبًا مرتجفًا وكلال العينين وذبورل النفس. وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك. فى الصباح تقول يا ليته المساء وفى المساء تقول يا ليته الصباح من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ومن منظر عينيك الذى تنظر. ويردك الرب إلى مصر فى سفن فى الطريق التى قلت لك لاتعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء وليس من يشترى». (التثنية ٢٨/١٥-٦٨).

ولانملك تعليقًا على ذلك النص إلا أن نقول : إن تاريخ بنى إسرائيل - كما هو مدون فى العهد القديم - لدليل واضح على " عدم سماع صوت الرب وخرق وصاياه وفرائضه " ، فلماذا لم يحقق الرب كلمات هذا العهد " الذى أمر الرب موسى أن يقطعه مع بنى إسرائيل فى أرض موآب فضلاً عن العهد الذى قطعه معهم فى حوريب " ؟! (التثنية ٢٩/١-١) .

ومن أبرز " أدبيات الحيرم " التى تشير إليه كعقاب ربانى وعدالة إلهية ، قصة يشوع مع عخان الذى غلَّ فى الحرب ، وتعدى على ما تم تحريمه للرب : " وخان بنو إسرائيل خيانة فى الحرام ،فأخذ عخان بن كرمى بن زبدى بن زارح من سبط يهوذا من الحرام ، فحمى غضب الرب على بنى إسرائيل " . يشوع ٧/١ .

وهنا يصدر الأمر الإلهى بإبادة عخان وأهله وممتلكاته : " ويكون المأخوذ بالحرام يحرق بالنار، هو وكل ماله ، لأنه تعدى عهد الرب ولأنه عمل قباحة فى إسرائيل " يشوع ٧/١٥ .

وعلى الرغم من أن عخان لم يغل من الغنيمة إلا " رداءً شنعاريًا نفيسًا ومائتى شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً " (يشوع ٧/٢١) ، إلا أنه قد استحق العقاب الربانى

نتيجة هذه الخيانة : " فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه .... فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة ". يشوع ٧/٢٤-٢٥.

ولعل الأمر الملفت للنظر والداعي إلى الدهشة والتساؤل هو ذلك العقاب الإلهى المتمثل فى إبادة عخان وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله .

لماذا يدفع الأبرياء ثمن خطيئة رجل واحد ؟

ولماذا يحمل المكان علامة الغضب الإلهى " إلى هذا اليوم " (٧/٢٦) ؟

إن أيديولوجية " **الحيرم** " هنا ، لتتعارض مع العلاقات الإيجابية الداخلية بين الجماعات، وأغلب الظن - لتبرير هذه الإبادة الجماعية لمجرد خطأ شخص واحد - هو أن فى فرض " **الحيرم** " كعدالة إلهية اعتقاداً بأن الشر ينتقل من الأشخاص المذنبين إلى أفراد أسرهم .

ومع هذا لانجد تبريراً لإبادة البقر والحمير والغنم والسكن ، فهى لاتتحمل إثم صاحبها من ناحية ، كما أنها ليست مما قد تم " اختلاسه " من مخصصات الرب.

أسباب الهولوكوست " الحيرم " فى أسفار العهد القديم :

تعددت أسباب تطبيق الهولوكوست الإسرائيلى على نحو ما عرضتها لنا أسفار العهد القديم ، ووصل الأمر إلى درجة من التناقض فى بعض الأحيان . فالرب يأمر بتنفيذ " **الحيرم** " لسبب محدد ، ويطبقه الإسرائيليون حسب أمر الرب ، وفى موضع آخر نجد السبب واقعاً ، و"**الحيرم** " غير مطبق على نحو ما أمر الرب ، الأمر الذى يوقع الباحث عن عليّة " **الحيرم** " وسببيته فى حيرة بالغة .

وفى تلك السطور نشير إلى أبرز الأسباب التى أمكن الوقوف عليها من خلال النصوص ، والتى كانت وراء أحداث الهولوكوست فى التاريخ الإسرائيلى .

أولاً : احتــلال الأرض :

كان احتلال أراضى الأمم الأخرى هو أبرز الأسباب وأقواها وراء تنفيذ " **الحيرم** " ضد الأمم والشعوب الأخرى وبخاصة فى عصر يشوع ، وهو عصر تنفيذ الأوامر اليهوية باحتلال أراضى الأمم الساكنة فى فلسطين .

لكن ازدهار وقوع أحداث الهولوكوست فى عصر يشوع بهدف احتلال الأرض لايعنى أن التاريخ الإسرائيلى لم يشهد مثل هذه الأحداث قبل عصر يشوع .

فسفر التثنية يحدثنا فى أكثر من موضع عن ممارسة موسى ومن معه " **للحيرم** " تجاه الأمم الأخرى بهدف الاستيلاء على أراضيهم :

«وقــال الرب لى { لموسى } انظر : قــد ابتــدأت أدفع أمــامك سيحون وأرضه . ابتدىء تملك حتى تمتلك أرضه . فخرج سيحون للقائنا هو وجميع قومه للحرب إلى ياهص . فدفعه الرب إلهنا أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه . وأخذنا كل مدنه فى ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . لم نبق شارداً. لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التى أخذنا...» (التثنية ٢/٣١-٣٥).

والسبب الذى تشير إليه الفقرات السابقة على هذا النص ، والذى كان وراء تنفيذ موسى وصحبه " للحيرم " ضد سيحون ملك حشبون واحتلال كل مدنه ، هو أن سيحون رفض مرور بنى إسرائيل عبر أرضه لبدء مسيرة السيطرة الإسرائيلية على أراضى الأمم الأخرى ، ولعل سيحون كان يدرك خطورة وجود بنى إسرائيل فى المنطقة آنذاك ، ومن ثم حاول صد الغزو ، أو إغلاق الطرق أمام تلك الجحافل .

وجدير بالذكر أن " يهوه " قد خطط مسبقًا للأحداث فهو الذى " قسّى روح سيحون وقوّى قلبه لكى يدفعه إلى أيدى بنى إسرائيل " ، وهو الذى أصدر حكمه وحدد استراتيجية **«الحيرم»** الموسوى الإسرائيلى ضد سيحون حين قال : " قوموا ارتحلوا واعبروا وادى أرنون .

انظر . قد دفعت إلى يدك سيحون ملك حشبون الأمورى وأرضه. ابتدىء تَملّك وأثِرْ عليه حربًا" التثنية ٢/٢٥ .

واستراتيجية " الجهوم " الموسوى لم تتغير فى سفر التثنية ، فالهدف واضح ومحدد: تملك الأرض ، وهذا نص آخر :

«تم تحولنا [موسى ومن معه] فى طريق باشان فخرج عوج ملك باشان للقائنا هو وجميع قومه للحرب فى إذرعى . فقال لى الرب لاتخف منه لأنى قد دفعته إلى يدك وجميع قومه وأرضه. فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الذى كان ساكنًا فى حشبون . فدفع الرب إلهنا إلى أيدينا عوج أيضًا ملك باشان وجميع قومه فضربناه حتى لم يبق له شارد . وأخذنا كل مدنه فى ذلك الوقت . لم تكن قرية لم نأخذها منهم. ستون مدينة كل كورة أرجوب مملكة عوج فى باشان . كل هذه كانت مدنًا محصنة بأسوار شامخة وأبواب ومزاليج سوى قرى الصحراء الكثيرة جدًا . فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون محرمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا وأخذنا فى ذلك الوقت من يد ملكى الأموريين الأرض التى فى عبر الأردن من وادى أرنون إلى جبل حرمون» (التثنية ٣/١-٩).

فالرب قضى باحتلال بنى إسرائيل لأرض باشان ، والإسرائيليون " أخذوا كل المدن فى ذلك الوقت حتى لم تكن هناك قرية لم يأخذوها ، ستون مدينة "

ولم تكن حرب بنى إسرائيل هنا دفاعية ، ولا دفاعًا عن عقيدة ، اللهم إلا عقيدة احتلال الأرض . إن عوج ملك باشان قد خرج لصد الغزو الإسرائيلى ، أى أن دفاعه المشروع عن أرضه وقومه قد استوجب تطبيق الهولوكوست الإسرائيلى ضده

أما " **الحيرم** " المرتبط بيشوع فقد تم تحديد استراتيجيته فى بداية السفر على يدى القائد الأعلى للقوات الغازية الإسرائيلية : يهوه ، الذى قال :

> «وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذاالشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات : جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم . لايقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك . لا أهملك ولا أتركك . تشدد وتشجع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التى حلفت لآبائهم أن أعطيهم» (يشوع ١/١-٧).

فالنص السابق يبين لنا بوضوح ارتباط النشاط العسكرى الإسرائيلى بقيادة يشوع بعملية احتلال الأرض ، وهذا يرتبط بدوره بالدعم الإلهى غير المحدود : المعنوى والمادى، من أجل تحقيق الهدف الأسمى وتقسيم الأرض على الغزاة .

ومن هذا المنطلق جاءت عمليات الهولوكوست الإسرائيلى المتعددة . التى سطرها لنا سفر يشوع ، ونسوق بعضًا منها :

> «فقال الرب ليشوع : لاتخف ولاترتعب . خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاى . انظر قد دفعت بيدك ملك عاى وشعبه ومدينته وأرضه . فتفعل بعاى وملكها كما فعلت بأريحا وملكها . غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم ... ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار كقول الرب تفعلون ... ودخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار ... وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت ... لكن

البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى أمر به يشوع . وأحرق يشوع عاى وجعلها تلاً أبديًا خرابًا إلى هذا اليوم» (يشوع ٨/١-٢٨).

وهاهى سلسلة أخرى من أحداث الإبادة : إحراق وذبح وإبادة تامة لكل مظاهر الحياة تأتى مسجلة على صفحات سفر يشوع :

«وأخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها وكل نفس بها . لم يبق شارداً . وفعل بملك مقيدة كمافعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة . فدفعها الرب هى أيضًا بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها . لم يبق بها شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها. فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها فى اليوم الثانى وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل مافعله بلبنة . حينئذ صعد هورام ملك جازر لإعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له شارداً . ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها . وأخذوها فى ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها فى ذلك اليوم حسب كل مافعل بلخيش . ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها. وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. لم يبق شارداً حسب كل مافعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها. ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها. وأخذها مع ملكها وكل مدنها وضربوها بحد السيف وحرموا كل نفس بها. ولم يبق شارداً. كما فعل بحبرون كذلك فعل بدبير وملكها وكما فعل بلبنة وملكها . فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها . لم يبق شارداً بل حرم كل نسمة

كما أمر الرب إله إسرائيل . فضربهم يشوع من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون . وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل». (يشوع ١٠/٢٨-٤٢).

والفقرة الأخيرة من النص السابق تؤكد لنا أن الإبادة هنا " ربانية " ، وأن استراتيجيتها الكبرى ليست نشر عقيدة صحيحة أو القضاء على شرك أو وثنية ، وإنما الاستيلاء على أرض الأمم الأخرى تمهيداً لتوزيعها على الشعب المختار .

ويواصل سفر يشوع تقديم المزيد من صور الإبادة دون وجود أى اختلاف كبير عما سبق ، سواء من ناحية الاستراتيجية أم من ناحية التكتيك .

فالإصحاح الحادى عشر من هذا السفر يبين لنا تفاصيل إبادة الأمم والشعوب والمدن التى واجهت جموع الغازين من بنى إسرائيل، فأبيدت حاصور " وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرموهم . ولم يبق نسمة . وأحرق حاصور بالنار " ١١/١١ ، و"أخذ يشوع كل تلك الأرض الجبل وكل الجنوب وكل أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل وسهله . من الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد فى بقعة لبنان تحت جبل حرمون ، وأخذ جميع ملوكها وضربهم وقتلهم ... يبادون كما أمر الرب موسى " ١١/١٦ - ٢٠ .

وكذلك فعل يشوع مع العناقيين من الجبل ، من حبرون ومن دبير ومن عناب ، ومن جميع جبل يهوذا ومن كل جبل إسرائيل " حرمهم يشوع مع مدنهم " ١١/٢١ .

وأهم ملاحظة لنا على الإصحاح السابق ، أن الرب قد شدد قلوب الأعداء على بنى إسرائيل حتى تتم إبادتهم (١١/ ٢٠) ، وأن هدف هذه السلسلة من أعمال الإبادة التامة لمظاهر الحياة : إنسانية وبيئية ، إنما هو ما حددته لنا الفقرة الأخيرة من هذا الإصحاح : " فأخذ يشوع كل الأرض حسب كل ما كلم به الرب موسى ، وأعطاها يشوع ملكًا لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم " ١١/٢٣ .

وتطبيق " **الحيرم** " من أجل الاستيلاء على الأرض واضح وجلى فيما فعله سبط دان ، وسطره لنا سفر القضاة (١٨/٢٧-٣١) حيث جاء فيه :

«وأما هم { بنو دان } فأخذوا ما صنع ميخا { تمثال منحوت وآخر مسبوك وأفود وترافيم - انظر الفقرة ١٧ } والكاهن الذى كان له وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن { الصيدونيين } وضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار . ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون ولم يكن لهم أمر مع إنسان وهم فى الوادى الذى لبيت رحوب . فبنوا المدينة وسكنوا بها . ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذى ولد لإسرائيل ، ولكن اسم المدينة أولاً لايش . وأقام بنو دان لأنفسهم التمثال المنحوت... ووضعوا لأنفسهم تمثال ميخا المنحوت الذى عمله كل الأيام التى كان فيها بيت الله فى شيلوه» .

والنص السابق - وما قبله - يشير إلى مجموعة من الحقائق الهامة التى ينبغى لنا أن نبينها فى هذا المقام :

أولاً : لم يكن لسبط دان نصيب فيما تم تقسيمه من أراضى الأمم المنهوبة ، فقد جاء فى الفقرة الأولى من القضاة / ١٨ " ... فى تلك الأيام كان سبط الدانيين يطلب ملكًا للسكنى ، لأنه إلى ذلك اليوم لم يقع له نصيب فى وسط أسباط إسرائيل " .

ثانيًا : إن الشعب الصيدونى الآمن فى لايش، لم يكن معاديًا لبنى إسرائيل (سبط دان)، ولم يرتكب إثمًا يستحق عليه الوقوع فى تلك المحرقة الإسرائيلية والتعرض للإبادة التامة

ثالثًا : إن بنى دان الإسرائيليين كانوا أثناء تنفيذهم لهذا الهولوكست يحملون معهم أوثانًا كانت فى بيت ميخا وتحت حراسة كاهن من سبط لاوى ، وهذا فى حد ذاته يعكس انطباعًا واضحًا بأنه لاتوجد ثمة علامة بين " الحهيرم " ومحاربة الشرك والأوثان، كما سيتضح فى مواضع أخرى ، بل إن بنى دان بعد تمكنهم من الأرض قد عبدوا التمثال المنحوت على نحو ما تشير فقرات سفر القضاة السابقة

رابعًا : إن سياسة تغيير معالم الأراضى المحتلة هى عقيدة متأصلة فى الفكر الإسرائيلى وإن مانشاهده اليوم هو ترجمة لمكونات الوعى الصهيونى المعاصر فالسكنى فى

الأراضى المغتصبة ، والبناء فى أرض الغير، وتغيير أسماء الأماكن ومنحها أسماء إسرائيلية خالصة لإيهام الآخرين بإسرائيلية هذه الأماكن ، كانت من السمات السياسة لبنى دان الإسرائيليين ، ومازالت من سمات سياسة الإسرائيليين المعاصرين .

ثانيًا : الوثنيـة :

فى الإصحاح السابع من سفر التثنية ، يواصل الرب إملاء وصاياه على شعبه ، فيقول " يهوه " لموسى :

> «متى أتى الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك : الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، سبعة شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم . لاتقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم . ولاتصاهرهم . بنتك لاتعط لابنه ، وبنته لا تأخذ لابنك . لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا . ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك .إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب . بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذى أقسم لآبائكم ... » (١-٨).

منذ العصر الموسوى وقد قرر الرب تطبيق سياسة " **الهولوكوست** " تجاه سبع أمم . والسبب واضح : عدم المصاهرة بين شعبه المقدس من جهة ، وهذه الشعوب من جهة أخرى ، حتى لاينحرف الشعب المقدس ويعبد آلهة الأمم الأخرى .

فثمة علاقة توضحها لنا الفقرات بين " الإبادة " وقضية الاختيار الإلهى لبنى إسرائيل " لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض " .

فالهولوكوست ضد الأمم الأخرى هو ضمان لاستمرارية قداسة شعب بنى إسرائيل واختياره من قبل الرب ، هذا الاختيار الذى يفتقد - على نحو ما تبين آخر فقرة من الاستشهاد السابق - المبرر الأخلاقى الموجب له . فالهولوكوست والتقديس والاختيار ، كلها ليست لأن بنى إسرائيل من أكثر الشعوب التصاقًا وتمسكًا بالرب ، وإنما لمجرد الحب الإلهى والوفاء اليهوى بالقسم .

وتتوالى الإرشادات الإلهية لبنى إسرائيل مؤكدة على ضرورة تطبيق " الحيرم " تجاه الأعداء لوثنيتهم ، ولإبقاء الشعب المختار بعيداً عن مؤثرات الوثنية :

«حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح . فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريمًا الحثيين والأموريين والكنعانين والفرزين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك . لكى لايعلموكم أن تعملوا حسب أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» .
(التثنية ٢٠/ ١٠-١٨) .

وقد فهم الإسرائيليون من نص الخروج ٢٢/٢٠ والذى جاء فيه : " من ذبح لآلهة غير الرب يُهلك " ، أن " **الحيرم** " هنا ليس قاصراً على الوثنيين والمشركين من الأعداء، بل يشمل كذلك كل من انحرف من بنى إسرائيل عن طريق الرب ، وعبد الآلهة الأخرى وذبح لها ، ومن ثم جاءت نصوص العهد القديم واضحة فى تطبيق " **الحيرم** " على هؤلاء المشركين من بنى إسرائيل .

جاء فى سفر الملوك الثانى ٩/٤-٩ ما يلى :

> «فانطلق الغلام ، أى الغلام النبى إلى راموث جلعاد ودخل وإذا قواد الجيش جلوس . فقال لى كلام معك يا قائد . فقال ياهو مع من منا كلنا . فقال معك أيها القائد . فقام ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال هكذا قال الرب إله إسرائيل ، قد مسحتك ملكًا على شعب الرب إسرائيل . فتضرب بيت آخاب سيدك وانتقمُ لدماء عبيدى الأنبياء ، ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابيل. فيبيد كل بيت آخاب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا ...» ..

" **فالحيرم** " فى النص السابق - وإن أشير إليه دون ذكر مصطلح " **الحيرم** " ذاته - ينتمى إلى ذلك النوع من العقاب اليهوى والعدالة الربانية ، أما سببه فهو وثنية وشرك بيت آخاب وبيت يربعام ، والذى نص عليه سفر الملوك الأول ٢٢/٥١-٥٣ صراحة :

> «أخزيا بن أخاب ملك على إسرائيل فى السامرة فى السنة السابعة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا . ملك على إسرائيل سنتين . وعمل الشر فى عينى الرب ، وسار فى طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يخطىء . وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إله إسرائيل حسب كل مافعل أبوه»

واستمرت عملية التطهير من الوثنية التى استشرت فى بيت آخاب ، وظل ياهو يبيد ويهلك كل فلول هذا البيت ، فى انصياع تام لأمر الرب : **الحيرم** كعقاب للوثنيين والمشركين :

«وقتل ياهو كل الذين بقوا لبيت آخاب فى يزرعيل وكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارداً» (الملوك ٢ ١٠/١١).

«وقتل { ياهو } جميع الذين بقوا لآخاب فى السامرة حتى أفناه حسب كلام الرب الذى كلم به إليا» (الملوك ٢ ١٠/١٧) .

ومن العجيب أن يقع ياهو فى المحظور ، وأن يفعل مافعله آباؤه من عبادة عجول الذهب، فقد جاء فى سفر الملوك الثانى ١٠/٢٥-٢٩ :

«ولما انتهوا { عبدة البعل من الإسرائيليين } من تقريب المحرقة قال ياهو للسعاة والشوالث ادخلوا اضربوهم . لايخرج أحد ، فضربوهم بحد السيف وطرحهم السعاة والشوالث وساروا إلى مدينة بيت البعل . وأخرجوا تماثيل بيت البعل وأحرقوها . وكسروا تمثال البعل وهدموا البعل وجعلوه مزبلة إلى هذا اليوم * واستأصل ياهو البعل من إسرائيل . ولكن خطايا يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يخطىء لم يحد ياهو عنها أى عجول للذهب التى فى بيت إيل والتى فى دان» .

وتوالت أوامر الرب بالإبادة جزاءً وفاقًا للوثنيين وعبدة البعل ، وللحفاظ على قدسية شعبه المختار .

وباستقراء النصوص العبرية المرتبطة " **بالحيرم** " - والتى أوردت هنا بعضًا منها - يمكننا الوقوف على بعض الملاحظات ومنها :

أولاً : فى الإصحاح السابع من سفر التثنية ، وبعد أن حدد الرب أسماء الأمم المستحقة للإبادة على نحو ماأشرنا آنفًا ، يحذر الرب من الاحتفاظ بفضة وذهب هذه الأمم لأنها رجس عند الرب : " وتماثيل آلهتهم تحرقون بالنار . لاتشته فضة ولا ذهبًا مما عليها لتأخذ لك لئلا تصاد به لأنه رجس عند الرب إلهك " ٧/٢٥ .

لكن يشوع وأتباعه قد أخلوا بهذا الأمر اليهوى عندما دخلوا أريحا : " وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها . إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها فى خزانة بيت الرب " يشوع ٢٤/٦ .

ولعلهم قد استجابوا للأمر الصادر عن يهوه ذاته فيما يخص أريحا حيث قال : "وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسًا للرب وتدخل فى خزانة الرب" يشوع ١٩/٦ .

إذن نحن أمام أمرين للرب . أمر ورد فى التثنية ٢٥/٧ يحذر من أخذ الذهب والفضة واستثنائها من التحريم ، وأمر آخر يأمر بتقديسها للرب .

ولتعليل ذلك نحن أمام احتمالين :

الأول : وهو أن يكون الأمر التثنوى بتحريم أخذ ذهب وفضة وحديد ونحاس الوثنيين لبنى إسرائيل أنفسهم ، لايمنع من إجازته لخزانة الرب ذاته .

الثانى : أن لايكون هذا الأمر التثنوى موجوداً وقت يشوع .

ثانيًا : إن نص الخروج ٢٠/٢٢ " من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك " والذى تم بموجبه تطبيق " **الحيرم** " على من أشرك من بنى إسرائيل ، لم يتم تطبيقه بصورة مضطردة ، ولننظر فى بعض أحداث سفر الملوك الثانى حيث يقص علينا الإصحاح الثانى والعشرون أن ملوك يهودا وشعبهم قد تركوا الرب وأوقدوا لآلهة أخرى كى يغيظوه بكل عمل أيديهم (١٨/٢٢) ، كما يحدثنا الإصحاح الثالث والعشرون عما فعله الملك يوشيا حيث " أمر الكاهن العظيم حلقيًا وكهنة الفرقة الثانية وحراس البيت أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم فى حقول قدرون وحمل رمادها إلى بيت الرب إيل ... ونجس توفة التى فى وادى بنى هنوم لكى لايُعَبِّر أحد ابنه أو ابنته فى النار لملوك..." ٤-١١.

إن هذا الإصحاح يخبرنا بإصلاحات الملك يوشيا ، تلك الإصلاحات التى تشير بما لايدع مجالاً للشك إلى وجود كل أنواع الشرك والوثنية ،ومع هذا كله لم يطبق "**الحيرم**" من قبل يوشيا على شعبه ، مما يعد خرقًا لنص الخروج الواضح (٢٠/٢٢) .

ولما كان من المستبعد أن يتغاضى يوشيا عن تطبيق مثل هذا الأمر ، وهو الذى قاد تلك الحملة الكبرى من أجل الإصلاح الدينى بين قومه ، فإن الاحتمال الأكثر ترجيحًا فى رأينا هو أن نص الخروج لم يكن موجوداً فى سفر شريعة الرب الذى ظل ضائعًا لفترة من الزمن ووجد فى عصر يوشيا ، ثم يأتى بعد ذلك احتمال آخر - قد يبدو منطقيًا إلى حد ما - وهو أن تلك الوثنية شملت آنذاك كل أفراد يهودا ، وتطبيق "الحيرم" عليهم استجابة لنص الخروج إنما يعنى إبادة شعب بأسره، الأمر الذى يبدو مستحيل التنفيذ ، فكان تعطيل النص من أجل بقاء الشعب .

ثالثًا : الدوافع السياسية :

إن كثرة النصوص العبرية التى تعالج قضية " **الحيرم** " تجعلنا نستشف منها قضايا عديدة، ماكان لنا أن نقف عليها لو كانت هذه النصوص محدودة فى عددها ، أو غامضة فى معانيها .

وبعيداً عن الدوافع اللاهوتية وراء تطبيق " **الحيرم** " ، وجدنا بعض النصوص التى تشير إلى الأخذ بأيديولوجية " **الإبادة التامة** " لأسباب سياسية بالدرجة الأولى .

ففى سفر صموئيل الأول نجد قصة صراع سياسى بين شاؤل وداود ، ومحاولات عدة من جانب شاول للتخلص من داود دون جدوى(٣٤). إن حب " الجماهير " آنذاك لداود ، قد جعل شاول يخشى انتشار نفوذه بين الناس ، الأمر الذى ينتهى حتمًا بتحول الملك إليه ، وقد جاء ذلك صراحة فى صموئيل الأول ١٨/٧-٩ ، حين خرجت النساء فى استقبال شاول وداود بعد انتصارهما على الفلسطينيين : " فأجابت النساء اللاعبات وقلن ضرب شاول ألوفه وداود ربواته { الربوة : عشرة آلاف } . فاحتمى شاول جداً وساء هذا الكلام فى عينيه ، وقال : أعطين داود ربوات وأما أنا فأعطيننى الألوف . وبعد فقط تبقى له المملكة . فكان شاول يعاين داود من ذلك اليوم فصاعداً " .

إنه الخوف إذن من قبل شاول على مستقبله السياسى ، ومن هنا بدأت محاولاته لتصفية خصمه ، لكن داود اشتهر بين الناس ، " واجتمع إليه كل رجل يتضايق ، وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس ، فكان عليهم رئيسًا ، وكان معه نحو أربع مائة رجل " (صموئيل الأول ٢٢/٢).

لقد أصبح داود إذن بطلاً شعبيًا منذ أن قتل جليات الفلسطيني، وتدافع المطحونون والمضطهدون والمظلومون للانضمام إليه، وتلك قضية مازالت حتى عصرنا هذا تثير حفيظة أي حاكم.

وبدأ شاول مناوراته ، وحاول " شراء " المحيطين بداود :

«وسمع شاول أنه قد اشتهر داود والرجال الذين معه . وكان شاول مقيمًا فى جبعة تحت الأثلة فى الرامة ورمحه بيده وجميع عبيده وقوفًا لديه . فقال شاول لعبيده الواقفين لديه اسمعوا يا بنايمينيون . هل يعطيكم جميعكم ابن يسى حقولاص وكرومًا وهل يجعلكم جميعكم رؤساء ألوف ورؤساء مئات حتى فتنتم كلم علي وليس من يخبرني بعهد ابنى مع ابن يسى وليس منكم من يحزن علي أو يخبرني بأن ابنى قد أقام عبدى على كمينًا كهذا اليوم . فأجاب دواغ الأدومى الذى كان موكلاً على عبيد شاول وقال قد رأيت ابن يسى آتيا إلى نوب إلى أخيمالك بن أخيطوب . فسأل له من الرب وأعطاه زاداً وسيف جليات الفلسطينى أعطاه إياه . فأرسل الملك وساتدعى أخيمالك بن أخيطوب الكاهن وجميع بيت أبيه الكهنة الذين فى نوب فجاؤا كلهم إلى الملك . فقال شاول اسمع يا ابن أخيطوب . فقال ها أنذا ياسيدى . فقال له شاول لماذا فتنتم على أنت وابن يسى بإعطائك إياه خبزا وسيفًا وسألت له من الله ليقوم على كامنا كهذا اليوم . فأجاب أخيمالك الملك وقال ومن من جميع عبيدك مثل داود أمين وصهر الملك وصاحب سرك ومكرم فى بيتك . فهل اليوم ابتدأت أسأل له من الله . حاشا لى . لاينسب الملك شيئًا لعبده ولا لجميع بيت أبى لأن عبدك لم يعلم شيئًا من كل هذا صغيراً أو كبيراً . فقال الملك موتا تموت يا أخيمالك أنت وكل بيت أبيك» (صموئيل الأول ٢٢/٦-١٦) .

ولما باءت محاولات شاول للفتك بداود بالفشل ، كان القرار الملكى : الإبادة التامة لداود وكهنة الرب . ولكل حاكم ، فى كل عصر ، بطانته ممن لا يرقبون إلاَّ ولاذمة :

" وقال الملك للسعاة الوافين لديه دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم أيضًا مع داود ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبرونى . فلم يرض عبيد الملك أن يمدوا أيديهم ليقعوا بكهنة الرب . فقال الملك لدواغ در أنت وقع بالكهنة . فدار دواغ الأدومى ووقع هو بالكهنة وقتل فى ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسى أفود كتان. وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف . الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف " (صموئيل الأول ٢٢/١٧-١٩) .

" فالحيرم " هنا كان لتحقيق أطماع سياسية معينة ، داخل معسكر بنى إسرائيل، وطرفاه شاؤل ورجاله من جانب ، وداود وكهنة الرب من جانب آخر .

ويقص علينا الإصحاحان التاسع والعاشر من سفر الملوك الثانى عمليات إبادة لـ"كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق فى إسرائيل " على أيدى ياهو ورجاله حتى يتم الاستقرار السياسى آنذاك ، جنبًا إلى جنب مع القضاء على مظاهر الانحراف العقدى.

كما جاءت تصفية ياهو لبيت أخزيا تصفية تامة حتى لاينهض من هذا البيت من يتولى الحكم فى أورشليم : " وإذا كان ياهو يقضى على بيت آخاب وجد رؤساء يهوذا وبنى أخوة أخزيا الذين كانوا يخدمون أخزيا فقتلهم . وطلب أخزيا فأمسكوه وهو مختبىء فى السامرة وأتوا به إلى ياهو وقتلوه ، ودفنوه ، لأنهم قالوا : إنه ابن يهوشافاط الذى طلب الرب بكل قلبه ، فلم يكن لبيت أخزيا من يقوى على المملكة " (الأيام الثانى ٢٢/٨-٩) .

ولم يكن شاول من التقوى والورع ومخافة الرب - وسجله فى سفر صموئيل الأول حافل بالتآمر والغدر - ليخوض تلك الحروب الضارية ضد الفلسطينيين بدافع عقدى دينى ، وإنما هو الخوف من زوال سلطانه السياسى ، ولتعضيد ملكه على إسرائيل ، ومن هذا المنطلق - فى رأينا - جاء الهولوكوست الإسرائيلى بزعامة شاول ضد الفلسطينيين ، والذى أمر به الرب :

«هكذا يقول رب الجنود : إني قد افتقدت ما عمل العماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرموا كل ما له ولا تعفُ عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعًا ، بقرًا وغنمًا ، جملاً وحمارًا» (صموئيل ١٥/٢-٣) .

فالسبب وراء هذا الإبادة التامة كما يشير قول الرب، اعتراض عماليق لإسرائيل في الطريق عند صعوده من مصر لاحتلال أرض فلسطين ، أي أن وثنية الفلسطينيين آنذاك لم تكن سبب " **الحيرم** " ، وإنما منع إسرائيل من بسط السيطرة واحتلال الأرض.

ومما يؤكد لنا افتقاد شاول للوازع الديني وراء أفعاله ، أنه لم يقم بتطبيق **الحيرم** على نحو ما أمره به الرب .

فالنص السابق يفيد " **الإبادة التامة** " لعماليق وقومه دون عفو على الإطلاق ، لكن كان لشاول رأي آخر :

«وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر . وأمسك أجاج ملك عماليق حيًا وحرّم جميع الشعب بحد السيف . وعفا شاول والشعب عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر والثنيان والخراف وعن كل الجيد ولم يرضوا أن يحرموها . وكل الأملاك المحتقرة والمهزولة حرّموها» (صموئيل الأول ١٥/٧-٩) .

إن النص السابق ينسف مفهوم " **الحيرم** " كقربان من ناحية ، لأنه يحتفظ بكل ما هو جيد للملك والشعب ، ويقدم ماهو " حقير ومهزول " للحيرم . كما أنه ينسف مفهوم " **الحيرم** " كعقاب كذلك ، فالأولى بالعقاب هو رأس العدو وملكه .

وهكذا نجد تفاوت وعدم اطضراد مفهوم " **الحيرم** " في التاريخ الإسرائيلي، كما نجد مخالفة شروطه من قبل ملوك بني إسرائيل وزعمائهم .

رابعًا : التطهير من الخطيئة :

جاءت أوامر الرب بتطبيق " **الحيرم** " وبخاصة على شعبه المقدس بهدف التطهير من الخطيئة التى ارتكبها الشعب ، أو حتى فرد واحد من هذا الشعب .

وقد سقت - عند الحديث عن **الحيرم** كعقاب ربانى - نصًا مطولاً (يشوع ٧/١-٢٦) يقص علينا حكاية عخان بن كرمى من سبط يهوذا، وكان قد انتهك حرمات " **الحيرم**" المقدس للرب، وغلّ من غنائم الحرب مع أريحا رداءً ومائتى شاقل فضة، ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً.

اعتبر الرب هذا العمل الفردى " خيانة إسرائيلية " وكان قول الرب : " قد أخطأ إسرائيل ، بل تعدوا عهدى الذى أمرتهم به ، بل أخذوا من الحرام ، بل سرقوا ، بل أنكروا ، بل وضعوا فى أمتعتهم " (يشوع ١١/٧) .

وكان الحكم الإلهى بتطهير الشعب حتى يتحقق النصر على الأعداء :" قم قدس الشعب وقل تقدسوا للغد . لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل . فى وسطك حرام يا إسرائيل فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم " (يشوع ١٣/٧) .

وتم رجم عخان وما غَلّ ، وعلاوة على ذلك : " بنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله " يشوع ٢٤/٧ ، بل تم حرق كل شىء بعد أن تم الرجم ، وبعدها " رجع الرب عن حمو غضبه " يشوع ٢٦/٧ .

إنه " حيرم محدود " ، الهدف منه تطهير جماعة بنى إسرائيل من الخطيئة التى ارتكبها فرد واحد منهم والتى أدت إلى انكسارهم أمام " عاى " حتى " ذاب قلب الشعب وصار مثل الماء " يشوع ٥/٧ .

ويرى بعض الباحثين هنا آثاراً لنظرية كبش الفداء ، فقد ذهب رينيه جيرارد[٣٥] إلى أن المجتمع الذى يعانى من الشقاق أو من نكبة حقيقية أو متوقعة ، يبنى علاقة سببية زائفة بين كبش الفداء المختار وبين سبب وقوع تلك النكبة أو الشقاق . فهذا "الكبش " هو السبب فى وقوع تلك النكبة .

وفى قصة يشوع وقومه مع عاى ، نجد بدايتها تلك الفقرة : " وخان بنو إسرائيل خيانة فى الحرام ، فأخذ عخان بن كرمى بن زيدى بن زارح من سبط يهوذا من الحرام فحمى غضب الرب على بنى إسرائيل " (١/٧) .

وكانت النتيجة أن قتل الأموريون - أهل عاى - من بنى إسرائيل «ستة وثلاثين رجلاً»، ومزق يشوع ثيابه هلعًا ، وتضرع إلى الرب ، فكان الجواب : «قد أخطأ إسرائيل بل تعدوا عهدى ... فلم يتمكن بنو إسرائيل للثبوت أمام أعدائهم » ٧/١١-١٢ .

وبعد " التضحية " بعخان وأهله ، تحقق النصر على أهل عاى " وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت " (يشوع ٢٢/٧) .

لقد تمت الصفقة بنجاح . عخان كان سببًا فى هزيمة قومه بما ارتكبه من خيانة. تم تطبيق " **الحيرم**" عليه وعلى آله وممتلكاته، أى تم تقديمه كبش فداء للرب، فكان النصر على الأعداء.

لقد كان " **الحيرم** "هنا" محاكمة إلهية "وإبادة مشروعة لاستئصال الشر من جماعة بنى إسرائيل.

ومن أدلة تطبيق " **الحيرم** " على جماعة بنى إسرائيل للتطهير من الخطيئة ، تلك القصة التى يرويها لنا سفر القضاة فى الإصحاحين التاسع عشر والعشرين وموجزها أن رجالاً من بنى بليعال { من بنى بنيامين } اعتدوا على حرمات بيت أحد الشيوخ ، وزنوا بامرأته ، وكانوا يريدون اللواط بضيوفه . وشاع الأمر بين جماعة بنى إسرائيل ، واجتمعوا " كرجل واحد " على مدينة " جبعة بنيامين " مطالبين بتسليم تلك الشرذمة التى فعلت " رذالة وقباحة فى إسرائيل " لقتلهم و " نزع الشر من بنى إسرائيل " . لكن بنى بنيامين أخذتهم العزة بالإثم ، ورفضوا تسليم بنى بليعال ، واستعد الطرفان للحرب ، ونشبت بالفعل معارك حامية الوطيس ، سقط خلالها عشرات الآلاف من بنى بنيامين ، وكانت النتيجة أن " رجع رجال بنى إسرائيل إلى بنى بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها ، حتى البهائم ، حتى كل ما وجد ، وأيضًا جميع المدن التى وجدت أحرقوها بالنار " ٢٠/٤٨ .

فسبب هذا " **الحيرم** " الذى كاد يباد فيه سبط كامل من أسباط بنى إسرائيل هو تطهير الجماعة من الشر والخطيئة التى ارتكبتها قلة من بينهم .

لكننا نتسـاءل هنا : هل كـان " **الحـيـرم** " هنا عقابًا إلهيًا للمخطئين من بنى إسرائيل ولتطهير شعبه المقدس حقًا ؟! .

ظاهر النص يقر ذلك ، لكن حقيقة الأمر أنه لو كان " **الحيرم** " عقابًا للمخطئين من بنى إسرائيل بوجه عام ، ما بقى إسرائيلى واحد ، لكثرة ما ارتكبه " الشعب المختار " من خطايا تقدمها لنا نصوص العهد القديم .

ويبقى سؤال آخر محير بحق : لماذا كانت عمليات الإبادة هذه ، على النحو الذى أشرنا إليه فى تلك النصوص ومثيلتها ؟! .

أغلب الظن أنه حب يهوه للقرابين البشرية المقدسة من شعبه المقدس ، فهى ربما كانت أحب ما يُتقرب به إليه .

خامسًا : القــرصنــة :

بعد تلك الحادثة التى رواها لنا سفر القضاة عن جماعة بنى بليعال من سبط بنيامين ، واعتدائهم على زوجة رجل من بنى إسرائيل ، وبعد وقوع الحرب بين بنى إسرائيل من جهة وسبط بنيامين من جهة أخرى ، حلف رجال إسرائيل قائلين " لا يسلم أحد منا ابنته لبنيامين امرأة " (القضاة ٢١/١) .

قرار بالإجماع : عدم مصاهرة بنى إسرائيل لاخوانهم من بنى بنيامين ، وهذا يعنى انقراض سبط بنيامين بعد فترة من الزمن ، وقد أدرك بنو إسرائيل خطورة هذا القرار : " وندم بنو إسرائيل على بنيامين أخيهم وقالوا قد انقطع اليوم سبط واحد من إسرائيل . ماذا نعمل للباقين منهم فى أمر النساء وقد حلفنا نحن بالرب أن لانعطيهم من بناتنا نساء " ٢١/٦-٧ .

لكن بنى إسرائيل لايعدمون وسيلة للتحايل وتحقيق المآرب : **الحيرم هو الحل** !! .

«فعد الشعب فلم يكن هناك رجل من سكان يابيش جلعاد .
فأرسلت الجماعة إلى هناك اثنى عشر ألف رجل من بنى البأس
وأوصوهم قائلين : اذهبوا واضربوا سكان يابيش جلعاد بحد
السيف مع النساء والأطفال . وهذا ما تعملونه : تحرمون كل ذكر

وكل امـرأة عـرفت اضطجـاع ذكـر . فـوجـدوا من سكان يابيش جلعاد أربعمائة فتاة عذارى لم يعرفن رجلاً بالاضطجاع مع ذكر ، وجـاءوا بهـن إلى المحلة إلى شـيلوه التى فى أرض كنعـان . وأرسلت الجماعة كلها وكلمت بنى بنيامين الذين فى صخرة رمون واستدعتهم إلى الصلح . فرجع بنيامين فى ذلك الوقت فأعطوهم النساء اللواتى استحيوهن من نساء يابيش جلعاد ولم يكفوهم هكذا » (٢١/٩-١٤) .

لقد طبق الإسرائيليون " الحيرم " هنا من أجل سبى النساء العذارى لسد عجز محدد فى سبط أخيهم بنيامين .

لم يكن هناك دافع آخر لتطبيق " الحيرم " سوى " القرصنة " وخطف نساء قوم آمنين ، ولكنهم مع ذلك لم يوفروا " امرأة لكل بنيامينى " ، فأشارت جماعة بنى إسرائيل على إخوانهم بإعداد كمين لبنات " شيلوه " وخطفهن أثناء رقصهن واحتفالهن بعيد الرب : " ففعل هكذا بنو بنيامين واتخذوا نساء حسب عددهم من الراقصات اللواتى اختطفوهن وذهبوا ورجعوا إلى ملكهم وبنوا المدن وسكنوا بها " .(٢١/٢٣) .

الحيرم الإسرائيلى ونقش ميشع :

اكتشف العلماء فى القرن التاسع عشر الميلادى أكبر الاكتشافات ذات الصلة بالتوراة وأعظمها فى العصر الحديث ، ألا وهو نقش ميشع ملك موآب فى القرن التاسع قبل الميلاد ، والذى سجل فيه ذكرى انتصاره على إسرائيل .

ويقدم لنا هذا النقش رؤية هامة للديانة وتاريخ وأيديولوجية الحرب عند جيران إسرائيل على الحدود الجنوبية الشرقية .

ومن بين ماجاء فى هذا النقش من ذكريات وأحداث ، يحكى لنا ميشع أن الرب كيموش قد أمره باحتلال مدينة " نبو " من إسرائيل ، فيقول :

«والآن قال لى كيموش : اذهب واستولِ على نبو من إسرائيل ، فذهبت ليلاً وقاتلتهم من مطلع الفجر حتى المساء . استوليت عليها وقتلت كل إنسان فيها ، سبعة آلاف رجل من أهلها ، والرجال الأجانب ، والنساء من أهلها ، والنساء الأجنبيات والمحظيات ، لأنى نذرتهم { قدستهم - كرستهم } لعشتار كيموش " السطور ١٤-١٧ من النقش» (٣٦).

«لهذا ذهبت ليلاً وحاربتها من مطلع الفجر حتى المساء أخذتها {مدينة نبو} وذبحت الجميع ، سبعة آلاف من الرجال ، الصبيان، النساء ، البنات ، الإماء ، حيث نذرتهم {قدستهم - كرستهم} للإبادة من أجل (الإله) عشتار كيموش» (٣٧).

وجدير بالذكر أن الفعل فى النصين السابقين والذى تمت ترجمته بـ " نذر " ، "نذر للإبادة " هو جذر الفعل " حيرم " الذى وجد فى النصوص العبرية .

وهناك العديد من الباحثين(٣٨) الذين أشاروا إلى علاقات لغوية ومفاهيم مشتركة بين هذا النص الحربى المنسوب إلى ميشع ملك موآب وتلك النصوص التوراتية العديدة التى تشير إلى أمر الرب بالحرب وتدمير العدو المنهزم كمحرم للرب .

ولعل التشابه المشار إليه هنا هو الماثل فى نص سفر العدد ٢١/٢-٣ والذى جاء فيه :

«ولما سمع الكنعانى ملك عراد الساكن فى الجنوب أن إسرائيل جاء فى طريق أتاريم حارب إسرائيل وسبى منهم سبيًا . فنذر إسرائيل نذراً للرب وقال : إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدى أحرم مدنهم . فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرموهم ومدنهم ، فدعى اسم المكان حرمة» .

نعم، هناك تشابه بينه وبين مضمون نقش ميشع، وربما مع بعض ألفاظه. ففى حالات عديدة من تنفيذ " **الحيرم** " الإسرائيلى وتطبيقه، سبقه أمر الرب باحتلال هذه المدينة أو تلك، ثم كان نذر إسرائيل بتطبيق " **الحيرم** " مع العدو المهزوم، تقربًا للرب.

إن محاولات الربط بين " **الحيرم** " الإسرائيلى " **والحيرم** " الموآبى للإيحاء بأن الإسرائيليين قد أخذوا " حيرمهم " عن موآب قد تدفعنا إلى موقف محير إذا ما عدنا إلى النصوص السابقة على نص سفر العدد ، أو تلك النصوص السابقة تمامًا على أى معارك إسرائيلية مع سكان فلسطين وما حولها .

فنصوص سفر التثنية مثلاً التى تأمر موسى بتنفيذ قرارات الإبادة الشاملة فى الأمم الأخرى التى لم تكن قد دخلت بعد فى صراعات مع بنى إسرائيل ، وعلى نحو مانجد فى الإصحاح ٧/١-٨ ، أو فى حالات الإبادة التى طبقها بنو إسرائيل بالفعل مع موسى على نحو مانجد تجاه سيحون (التثنية ٢/٣١-٣٥) وكذلك (٣/١-٩) وغيرها من النصوص ، كلها حالات تنفيذية لأوامر يهوه بتطبيق " **الحيرم** " قبل زمن ميشع ملك موآب .

كما أن تخصيص " الإنسان " بوجه عام كقربان للرب ، قد عرفه بنو إسرائيل فى صورة التضحية بالأبكار على نحو ماجاء فى الخروج ١٣/١١-١٣ ، ٣٤/١٩-٢٠ ، قبل ظهور ميشع على مسرح الأحداث .

ولايمكننا أن نقبل تفسير وجود " **الحيرم** " فى النصوص العبرية - وإن تشابه فى ألفاظه ومضامينه مع نقش ميشع - على أنه من آثار الاختلاط بالموآبين ، إلا إذا سلمنا بأن جميع هذه النصوص التى تروى على أنها سابقة للقرن التاسع قبل الميلاد ، قد كتبت بالفعل بعد القرن التاسع هذا ، وأنها وضعت فى غير موضعها من أسفار العهد القديم.

فوجود " **الحيرم** " عند الموآبيين كقربان للرب ونذر له ، له سابقات فى النصوص العبرية . وليس ثمة ما يمنع أن تتفق أيديولوجيات الأمم والشعوب فى فترات معينة من تاريخ البشرية .

وهكذا ، بعد أن قدمنا مصطلح " الإبادة " من خلال نصوص العهد القديم ، وربطناه بالملابسات التاريخية التى عاصرته ، يمكننا أن نحدد بعض النتائج على النحو التالى :

أولاً : لمصطلح " **الحيرم** " معنيان ، الأول منهما يرتبط بالحروب ويعنى الإبادة الشاملة لكل الكائنات القائمة على أرض الخصم المقهور ، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الإبقاء على أيٍ من مقومات الحياة الإنسانية كالبشر والحيوانات والنباتات . أما المعنى الثانى فهو

معنى لاهوتى يتمثل فى تخصيص شىء ما وتقديسه للرب ، مع إمكانية فداء الإنسان من هذا التخصيص .

ثانيًا : على الرغم من تعدد النصوص الدينية العبرية الناهية عن القرابين البشرية ، فإن بنى إسرائيل قد مارسوا هذه العبادة خلال فترات طويلة من تاريخهم ، وبنفس المعتقد الوثنى الموجود عند الأمم الأخرى وهو : التقرب إلى الرب وطلب العون منه .

ثالثًا : تدخل الإله " يهوه " فى كثير من قرارات تطبيق " الحيرم " ، ومن ثم جاء الحرق والتدمير والإهلاك تحقيقًا للمشيئة الإلهية اليهوية (انظر مثلاً : التثنية ٧ ؛ ٢٠ ، ويشوع ٦ وغيرها) .

رابعًا : أشارت النصوص العبرية المقدسة إلى أيديولوجية أخرى " للحيرم " ، تمثلت فى تطبيقه كنوع من العدالة الإلهية والعقاب الربانى ضد الوثنيين والإسرائيليين على حد سواء . ومن هذا المنطلق وجدنا عقاب عماليق على أيدى شاؤل (صموئيل الأول ١٥/١-٣) ، وعقاب بابل (إرميا ٥٠/١٣-٢٧) ، وتهديدات الرب الشديدة لشعبه المختار (التثنية ٢٨/١٥-٢٨) وغيرها .

خامسًا : بعد تحليل للنصوص الواردة بشأن مصطلح " الحيرم " فى أسفار العهد القديم ، أمكننا أن نستخلص عدة عوامل ودوافع وراء تطبيق عمليات الإبادة الجماعية، منها :

١ - احتلال الأرض ، وهو ما وضح جليًا فى نصوص كثيرة وعلى نحو ماجاء فى التثنية (٢/٣١-٣٥ ؛ ٣/١-٩) ، وفى معظم إصحاحات سفر يشوع (١/١-٧؛ ٨/١-٢٨ ؛ ١٠/٢٨-٤٢ ؛ ١١/١-٢٣) وفى سفر القضاة أيضًا (٨/٢٧-٣١) .

٢ - الوثنية ، فقد كانت وثنية " الجوييم " ووثنية بنى إسرائيل - فى كثير من فترات تاريخهم - سببًا فى تطبيق " الحيرم " على هؤلاء وهؤلاء ، وهذا ما استنتجناه من نصوص سفر التثنية (٧/١-٨ ؛ ٢٠/١-١٨ ، وسفر الخروج (٢٢/١٠) ، وسفر الملوك الثانى (٩/٤-٩ ؛ ١٠/١١ ؛ ١٠/١٧ ؛ ١٠/٢٥-٢٩) وغيرها .

٣ - السياسة ومتطباتها وأطماعها ، فقد كان الصراع السياسى بين داود وشاول فى سفر صموئيل الأول (١٨/٧-٩) سببًا بارزاً فى عمليات الإبادة من جانب شاول ضد خصومه ، وكذلك فى الإصحاح الثانى والعشرين من السفر ذاته . كما قدم لنا الإصحاح الخامس عشر من صموئيل الأول جانبًا آخر من الصراع السياسى الإسرائيلى - الفلسطينى .

٤ - التطهير من الخطيئة ، ويبدو أن مفهوم انتقال الخطيئة من المخطىء إلى أهله ومن حوله كان شائعًا فى الفكر الدينى الإسرائيلى ، ولذلك جاء " الحيرم " للتطهير من الخطايا التى يرتكبها البعض - ولو كانوا أفراداً - والتى لحقت بمن حولهم من الأهل والممتلكات . كما كان " الحيرم " كذلك تطهيراً من إثم الغلول من غنائم الحرب (يشوع ٧) ، وتطهيراً من إثم اللواط والزنا (القضاة ١٩:٢٠) .

٥ - القرصنة . قد نجد مبرراً منطقيًا - بشكل أو بآخر - يدفع إلى تطبيق " الحيرم " للدوافع السياسية ، لكن ليس ثمة مبرر يمكن قبوله عند إبادة الآمنين ، وذبح الضعفاء والأبرياء ، لمجرد سبى العذارى وإشباع الرغبات الجنسية لقوم ما .إن عمليات إبادة من هذا النوع يمكن ردها إلى " قرصنة " مرفوضة وفق كل الأعراف والقيم (القضاة ٢١/٩-١٤) .

سادسًا : هناك تشابه بين نصوص " **الحيرم** " فى نقش ميشع المؤآبى ، ونصوص العهد القديم، الأمر الذى قد يؤدى إلى نوع من الاعتقاد بوجود تأثير مؤآبى فيما يتعلق بأيديولوجية " **الحيرم** " عند بنى إسرائيل ، لكن من السهولة أن نستنتج من خلال التتبع التاريخى للنصوص العبرية - فريضة " **الحيرم** " الأبدية على بنى إسرائيل، قبل الاحتكاك بالمؤآبيين .

وأخيراً ليس من نافلة القول أن نرجع التأثير الفكرى لنصوص الإبادة الجماعية فى أسفار العهد القديم عى عمليات الإبادة (الهلولوكست) بمفهومها الحديث ، الأمر الذى تحاشينا الإسهاب فى الحديث عنه حتى لايخرج البحث عن إطاره المحدد له ، على أمل أن تتاح لنا - أو لغيرنا من الباحثين - إمكانية التحقق من هذا الاستنتاج الذى تسنى لنا من خلال تلك الدراسة .

الهوامش

1 - Niditch, Suzan, War in Hebrew Bible : A study in the Ethics of Violence, Oxford University Press, New York, Oxford, 1993, p. 4 .

2 - Bainton, R., Christian Attitudes Towards War and Peace, Nashuille : Abingdon, 1960, p. 44; g., Ideology Reason and the Limitation of War , Princeton, NJ : Princeton University, 1975, pp. 125 - 131 .

3 - Smith , J., The Moral life of the Hebrews, Chicago : University of Chicago, 1923, p. 129; Hinckley, G., The Ethics of the Old Testament, Chicago University, 1912, p. 173 ;
نقلاً عن : سوزان ينديتش ، المرجع السابق ، ص : ٦ .

4 - Bruce, W., S., The Ethics of the Old Testament, Edinburgh, 1909, pp. 288 - 289 .

5 - Carroll, R., Op. Cit, p. 37 .

٦ - المرجع السابق ، ص ٣٩ .

٧ - المرجع السابق ، ص ٤١ .

٨ - انظر علي سبيل المثال : Mayes, A., Deuteronomy (New Century Bible) Op. Cit., pp. 283-304; Weinfield, M., Deuteronomy and the Deuteronomic School, Op. Cit., 1972, pp. 45 - 51, 238 - 39 .

٩ - سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص : ١٤ .

١٠ - انظر :يعقوب كنعانى، معجم اللغة العبرية، تل أبيب، المجلد ٥ ، ١٩٦٤.

١١ - من المعانى التى يشير إليها هذا المصطلح فى اللغات الأوربية المختلفة مايلى : قربان يرتبط بالنار ، تقدمة ، محرقة ، تضحية على نطاق واسع ، تدمير كامل بالنيران ، تدمير كامل بالحرق يشمل عدداً كبيراً من البشر ، مذبحة عظيمة . انظر : مادة Holocoust فى The Shorter Oxford English Dictionary by Littel, W., Oxford, 1965 .

12 - Anderson, Bernard, Understanding the Old Testament, Englewood Cliffs, N.J, Prentice Hell, 1957, p. 138 , 129 .

١٣ - دأبت الترجمات العربية للعهد القديم على ترجمة الفعل العبرى " هِحريم " بمعنى حَرَّم ، أى أباد واستأصل ، والأقرب لهذه المادة اللغوية هو " خَرَم " ، على نحو ما جاء فى لسان العرب : "تخرمهم : أى اقتطعهم واستأصلهم ، ويقال : خَرَمَتْهُ الخوارم إذا مات ... وانخرامه : ذهابه وانقضاؤه . وفي حديث ابن الحنفية : كدت أن أكون من السواد المخترَم ، من اخترمهم الدهر وتخرمهم استأصلهم. " انظر مادة : خرم ، لسان العرب لابن منظور.

١٤ - ينطبق هذا النوع من الحيرم بمعنى التخصيص على قول مريم ابنة عمران - وهى من بنى إسرائيل - والوارد فى آل عمران/ ٣٥ «رب إني نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم».

١٥ - انظر كذلك صموئيل الأول ١٩/٢٢ .

١٦ - انظر : تفسير الكتاب المقدس ، تأليف جماعة من اللاهوتيين برئاسة فرنسيس دافدس ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٦ ، جـ١ ، ص : ٢٣٤ .

١٧ - زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، مرجع سبق ذكره، ص : ١٨٥ .

١٨ - تفاصيل هذه القرابين فى المرجع السابق ، ص : ١٨٦ - ٢٠٠ .

١٩ - سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٤٧ .

20 - Green, Alberto Ravinell whitney, The Role of Human Sacrifice in the Ancient Near East, ASDR Diss. Ser.1. Missoula, MT. Scholares, 1975, p. 179, 187 .

نقلاً عن سوزان نيديتش ، مرجع سابق ذكره ص ٤٧ .

٢١ - جيمس فريزر ، الفولكلور فى العهد القديم ، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ .

٢٢ - عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد : مقدمة فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى ٣٢٣ق.م ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٠٢ ؛ ج. كونتنتو ، الحضارة الفينيقية ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، مركز الشرق الأوسط بالقاهرة ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ سبتينو موسكاتى ، الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، ص : ١٩ .

٢٣ - انظر السنن القويم فى تفسير أسفار العهد القديم ، ١٢٧/٢ .

٢٤ - على عبد الواحد وافى ، غرائب النظم والتقاليد والعادات ، دار نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، د.ت. ص : ٨٢ .

٢٥ - سليمان مظهر ، قصة الديانات ، دار الوطن العربى ، بيروت ، د.ت ، ص : ٧ .

٢٦ - على عبد الواحد وافى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ . وعن تقديم القرابين للنيل انظر : أدولف أرمان ، ديانة مصر القديمة . نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة ، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ، مصطفى الحلبى ، القاهرة ، د.ت ، ص : ١٧-١٨

٢٧ - انظر : اللاويين ٢/١-٥ ، والتثنية ١٢/٢٩-٣٢ وإرميا ١٩/٣-٥ ؛ ٧/٢٩-٣١ وغيرها

٢٨ - فجر الضمير ، ترجمه سليم حسن ، مكتبة مصر ، سلسلة الألف كتاب (٨١) ، ص : ٣٧٥

٢٩ - إسرائيل فى ضوء التاريخ ، بحث يصور الأيام الأولى من تاريخ الأمة اليهودية فى مجلدين من كتاب تاريخ العالم ، دار النهضة المصرية ، ص ١١٤ - ١١٦ . نقلاً عن : فتحى محمد الزغبى ، القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود ، طنطا ، ١٩٩ ، ص : ١٦٧ وحول التأثير الكنعانى على العبادة الإسرائيلية انظر : Baynes, H. Norman, Israel Amongst the Nations, London, 1929, pp. 43-53 .

٣٠ - حول الأوضاع الدينية لملكتى إسرائيل ويهوذا انظر : Oesterley, W.O.E. and Robinson, T.H., Hebrew Religion, its Origin and Development, London, 1944, pp. 202 , 254 .

٣١ - انظر كذلك إرميا ١٩/١-٦ وكذلك ٣٢/٣٥

٣٢ - رشاد فكرى ، شرح سفر حزقيال ، مكتبة كنيسة الأخوة ، شبرا - مصر ، د.ت ، ص ١٣٦

33 - Heider, George C., The Cult of Molek. A Reassessment, Sheffield, JSOT Press, 1985, pp. 406 - 407; Mosca, Poul G., " Child Sacrifice in Cananite and Israilite Religion : A study of mulk and mlk " Unpublished ph.D. Diss., Harvard University, 1975, p. 216, 238 - 39 , 225 .

نقلاً عن سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨

٣٤ - حول مملكة شاول والصراع بينه وبين داود انظر Herrman , S., A History of Israel in Old Testament Times, London, 1973, pp. 131 - 141 .

35 - René Gerard, Violence and the Sacred. Trans. Patrick Gregory, Baltimore, John Hopkins, 1977, p. 103 .

نقلاً عن : سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠

36 - Jackson, Kent, p. and J. Anderw Dearman, "The Text of the Masha Inscription "In Andrew Dearman, ed. Studies in the Masha Inscription and Moab 1989, p.98.

نقلاً عن سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٣١

37 - Albright, W., F., From the Stone Age to Christianity, Garden City , NJ, 1957 , ANET321 .

نقلاً عن سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٣١

38 - Atern, Philip, D., " A Window on Ancient Israeli's Religious Experience : The Herem Re-investigáted and Re-interpreated." Unpublished ph.D. Diss, New York University, 1989, pp. 19-76 ; Mattingly, G., " Moabite Religion" In Andrew Dearman, ed. Studies in the Mesha Inscription and Moab, 1989, pp. 214 - 215 .

نقلاً عن سوزان نيديتش ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٣٢

وحول العلاقة بين يهوه والإله كيموش المؤآبي والنذر والتضحية انظر :

Smith, R. W., The Prpohets of Israel and their place in History, London, 1997 , pp. 55 - 56.

البـــاب الثـانـى

فـن القتـال فـى الحروب الإسرائيلية

الفصل الأول

التخطيط العسكرى

لفن القتال - أوالتكتيك - ملامح وسمات تميزه فى كل عصر وآن، ولكل شعب وأمة.

وكان من الطبيعى - مع كثرة الحروب الإسرائيلية - أن تكون هناك سمات لتلك العمليات العسكرية، تختلف وتتطور من عصر لآخر، مستفيدة من الاحتكاك بالأمم الأخرى.ونحاول فيما يلى عرض أبرز هذه السمات بإيجاز، للوقوف على الملامح العامة لفن القتال عند بنى إسرائيل.

أولاً : الاستعداد للحرب :

هناك استعدادات عامة للحروب لابد من القيام بها حتى يتسنى للجيوش خوض أى معارك، ونظراً لارتباط الحروب الإسرائيلية بالتوجيهات «اليهوية»، فقد كان من الضرورى استشارة الرب قبل بدء أى حرب. والاستشارة هنا ليست مسألة شكلية، بل هى جزء لا يتجزأ من العقيدة العسكرية على نحو ما فصلنا من قبل.

«فصعد جميع بنى إسرائيل وكل الشعب، وجاءوا إلى بيت إيل وبكوا وجلسوا هناك أمام الرب... وسأل بنو إسرائيل الرب ... قائلين : أأعود أيضاً للخروج لمحاربة بنى بنيامين أخى أم أكف؟ فقال الرب : اصعدوا لأنى غداً أدفعهم ليدك». (قضاة ٢٠/٢٦ - ٢٩)

«فسأل داود من الرب قائلاً : أأذهب وأضرب هؤلاء الفلسطينيين، فقال الرب لداود : اذهب واضرب الفلسطينيين وخلص قعيلة» (صموئيل أول ٢٣/٢).

«ثم قال يهوشافاط لملك إسرائيل اسأل اليوم عن كلام الرب.
فجمع ملك إسرائيل الأنبياء، نحو أربعمائة رجل وقال لهم :
أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم امتنع؟ فقالوا : اصعد فيها
فيدفعها السيد ليد الملك». (ملوك أول ٢٢/٥ - ٧).

ثانياً : إعداد القوات الجارية :

يمر إعداد أى جيش لخوض المعارك بمراحل متعددة لابد منها، وقد كان لهذه العملية ملامح عند بنى إسرائيل نوجزها فيما يلى :

(أ) التجنيد :

رسمت النصوص العبرية صورة واضحة لاختيار الجنود وعملية التجنيد، وذلك فى بدايات تاريخ بنى إسرائيل، فقد حدد سفر العدد (١/٣) سن التجنيد صراحة «من ابن عشرين سنة فصاعداً»، وذلك من خلال عملية التعداد التى أمر بها الرب موسى، كما اهتمت النصوص بالصحة العامة للأفراد (العدد ٥/١-٣)، بل ووضعت الاختبارات اللازمة لاستبعاد ذوى القلوب الضعيفة وذلك من خلال عملية «الاغتراف» التى قدمها لنا سفر القضاة (٧/٤-٧).

كما جاءت النصوص صريحة لإعفاء ذوى الأعذار من التجنيد :

«وأما اللاويون حسب أسباط آبائهم فلم يعدوا منهم (أى من الخارجين للحرب)». (العدد ١/٤٧)

«... الرجل الذى يبنى بيتاً جديداً ولم يدشنه، فليذهب وليرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيدشنه رجل آخر،

«الرجل الذى غرس كرماً ولم يبتكره (أى يقطف أول محصوله)، ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيبتكره رجل آخر،

«... الرجل الذى خطب امرأة ولم يأخذها، ليذهب ويرجع إلى بيته، لئلا يموت فى الحرب فيأخذها رجل آخر،

«... الرجل الخائف والضعيف القلب، ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يذوب قلوب اخوته مثل قلبه». (تثنية ٢٠/٤ - ٨)

«إذا اتخذ رجل امرأة جديدة فلا يخرج فى الجند ولايحمل عليه أمر ما، حراً يكون فى بيته سنة واحدة، ويسر امرأته التى أخذها». (تثنية ٢٤/٥)

(ب) تنظيم القوات :

يقدم لنا الإصحاح الأول من سفر العدد صورة واضحة لتنظيم القوات الإسرائيلية بعد أن تم إحصاء عدد المقاتلين، إذ يحدد لنا الانتماء القبلى لكل مجموعة (١/ ٢٠ - ٤٥)، ومن ثم يمكن الوقوف على قوة كل سبط فى مقابل الأسباط الأخرى.

أما الإصحاح الحادى عشر من سفر أخبار الأيام الأول (١٥- ٤٧)، فيحدد لنا فى الإطار التنظيمى - لقوات داود المسلحة - أسماء أبطال (قادة) الحروب على النحو التالى :

«ونزل ثلاثة من الثلاثين رئيساً إلى الصخر إلى داود إلى مغارة عدلام وجيش الفلسطينيين نازل فى وادى الرفائيين. وكان داود حينئذ فى الحصن. وحفظة الفلسطينين حينئذ فى بيت لحم. فتأوه داود وقال من يسقينى ماء من بئر بيت لحم التى عند الباب. فشق الثلاثة محلة الفلسطينيين واستقوا ماء من بئر بيت لحم التى عند الباب وحملوه وأتوا به إلى داود فلم يشأ داود أن يشربه بل سكبه للرب وقال. حاشا لى من قبل إلهى أن أفعل ذلك. أأشرب دم هؤلاء الرجال بأنفسهم. لأنهم إنما أتوا به بأنفسهم. ولم يشأ أن يشربه. هذا ما فعله الأبطال الثلاثة. وأبشاى أخو يوآب كان رئيس ثلاثة. وهو قد هز رمحه على ثلاث مئة فقتلهم فكان له اسم بين الثلاثة. من الثلاثة أكرم على الاثنين وكان لهما رئيساً إلا أنه لم يصل إلى الثلاثة الأول. بنايا بن

يهوياداع ابن ذى بأس كثير الأفعال من قبصئيل. هو الذى ضرب أسدى موآب وهو الذى نزل وضرب أسداً فى وسط جب يوم الثلج. وهو ضرب الرجل المصرى الذى قامته خمس أذرع. وفى يد المصرى رمح كنول النساجين. فنزل إليه بعصا وخطف الرمح من يد المصرى وقتله برمحه. هذا ما فعله بنايا بن يهوياداع فكان له اسم بين الثلاثة الأبطال. هو ذا أكرم على الثلاثين إلا أنه لم يصل إلى الثلاثة. فجعله داود من أصحاب سره.

وأبطال الجيش هم عسائيل أخو يوآب وألحانان بن دودو من بيت لحم شموت الهروري حالص الفلوني عيرا بن عقيش التقوعى أبيعزر العناثوثى سبكاى الحوشاتى عيلاى الأخوخى مهراى النطوفاتى خالد بن بعنة النطوفاتى إتاى بن ريباى من جبعة بنى بنيامين بنايا الفرعتونى حوارى من أودية جاعش أبيئيل العرباتى عزموت البحرومى إليحبا الشعلبونى بنو هاشم الجزونى يوناثان بن شاجاى الهرارى أخيآم بن ساكار الهرارى أليفال بن أور حافر الميكراتى وأخيا الفلونى. حصرو الكرملى نعراى بن أزباى يوئيل أخو ناثان مبحار بن هجرى صالق العمونى نحراى البئيرونى حامل سلاح يوآب ابن صورية عيرا اليثرى جارب اليثرى أوريا الحثى زاباد بن أحلاى عدينا بن شيزا الرأوبينى رأس الرأوبينين ومعه ثلاثون. حانان ابن معكة يوشافاط المثنى عزيا العشترونى شاماع ويعوئيل ابنا حوثام العروعيرى يد يعئيل بن شمرى ويوحا أخوه التيصى إيليئيل من محويم ويريباى ويوشويا ابنا ألنعم ويثمة الموآبى إيليئيل وعوبيد ويعسيئيل من مصوبايا ».

كما يستمر الإصحاح الثانى عشر من أخبار الأيام الأول فى تحديد قادة الوحدات المقاتلة فى جيش الملك داود، مع تحديد دقيق للمهام العسكرية الملقاة على عاتق بعضهم. فبنو يهوذا

- مثلاً - حاملوا الأتراس والرماح (١٢/٢٤)، وهناك ثلاثة آلاف من بنى بنيامين لحراسة بيت شاؤل (١٢/ ٣٠)، ومن نفتالى ألف رئيس ومعهم سبعة وثلاثون ألفاً بالأتراس والرماح (١٢/٣٤).

أما الإصحاح السابع والعشرون من أخبار الأيام الأول ففيه تحديد دقيق كذلك للمهام المساندة للقوات المقاتلة، من خدمة للملك، وتنظيم للأمور المالية وغيرها، كل فرقة بعددها وقائدها ومهمتها.

وهكذا يمكن أن نستشف صورة منظمة للقوات المقاتلة من بنى إسرائيل، روعى فيها «التجانس القبلى»، وهى مسألة ضرورية - مازالت فى كثير من جيوش بعض الدول فى عصرنا الحاضر - حتى يضمن القائد العام (داود) حسن أداء المهام.

ثالثاً : التعبئة المعنوية :

بعد أن تمت عملية التجنيد، وإعفاء ذوى الأعذار، وبعد أن تم توزيع المهام، وتحديد القادة والأبطال، كان من الطبيعى أن تكون هناك تعبئة معنوية، ولمسات نهائية، بعضها بأمر يهوىّ ربانى، والبعض الآخر من اجتهاد القادة.

يقول الرب لموسى : «إذا خرجت للحرب على عدوك، ورأيت خيلاً ومراكب، قوماً أكثر منك، فلا تخف، لأن معك الرب إلهك الذى أصعدك من أرض مصر». (تثنية ٢٠/١)

والعبارة السابقة على ما فيها من حث ودعم معنوى، إنما تذكر المقاتلين بحدث إعجازى هو الخروج من مصر - فقد خرج الإسرائيليون - دون إعداد حربى على الإطلاق - وتبعهم فرعون بكامل عتاده ، ومع هذا تم تحقيق النصر بعون الرب، وانهزم فرعون، فكأن «يهوه» هنا يذكر شعبه بأنه قد انتصر على العدو دون استعداد ، بل ودون قتال، فما بالهم وهم هنا قد خرجوا للحرب، أى على أهبة الاستعداد !!

وفى موضع آخر يقول الرب لموسى : «إذا خرجت فى جيوش على أعدائك فاحترز من كل شى ردئ». (تثنية ٢٣/٩).

إن طهارة النفس والبدن مسألة ضرورية للمقاتلين وبخاصة عندما ترتبط الحرب بمفاهيم دينية. فإذا كانت «الحرب للرب» فمن باب أولى أن تتم تنقية النفس والبدن من كل شئ دنس ردئ.

ولقد أدرك يشوع أهمية التعبئة المعنوية لجنوده، وذلك عن طريق الضرب على وتر «الأرض الموعودة» :

> «فأمر يشوع عرفاء الشعب قائلاً : جوزوا فى وسط المحلة وأمرو الشعب قائلين : هيئوا لأنفسكم زاداً لأنكم بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن هذا لكى تدخلوا فتمتلكوا الأرض التى يعطيكم الرب إلهكم لتمتلكوها». (يشوع ١/١٠/١١)

ويواصل يشوع مهمته بنجاح فى تذكير أتباعه بالأرض، وهى «كلمة السر» التى تشحذ الهمم وتقوى العزائم.

> «ثم كلم يشوع الرأوبينيين والجاديين ونصف سبط منسى قائلاً : اذكروا الكلام الذى أمركم به موسى عبد الرب قائلاً : الرب إلهكم قد أراحكم وأعطاكم هذه الأرض. نساؤكم وأطفالكم ومواشيكم تلبث فى الأرض التى أعطاكم موسى فى عبر الأردن وأنتم تعبرون متجهزين أمام إخوتكم كل الأبطال ذوى البأس وتعينونهم. حتى يريح الرب إخوتكم مثلكم ويمتلكوا هم أيضاً الأرض التى يعطيهم الرب إلهكم، ثم ترجعون إلى أرض ميراثكم وتمتلكونها التى أعطاكم موسى عبد الرب فى عبر الأردن نحو شروق الشمس». (يشوع ١/١٢- ١٥)

> «فأجابوا يشوع قائلين : كل ما أمرتنا به نعمله. وحيثما ترسلنا نذهب ... كل إنسان يعصى قولك ولايسمع كلامك فى كل ما تأمره به يقتل. إنما كن متشدداً وتشجع». (يشوع ٦/١ - ١٨)

وكعملية تشجيع وتحفيز للمقاتلين، ينبغي ضم كل الأبطال والجبابرة إلى صفوف الجيش، فهم قوة ضاربة من ناحية، ودفعة معنوية لضعفاء القلوب من ناحية أخرى. وهذا ما فطن إليه شاؤل :

«وإذا رأى شاؤل رجلاً جباراً، أو ذا بأس ضمه إلى نفسه».
(صموئيل أول ١٤/٥٢)

واستغلال النزعة الدينية، والشرف العائلى والقبلى كوسائل لشحذ الهمة والتعبئة المعنوية فى القتال مسألة أدركها قادة وزعماء بنى إسرائيل فى القديم، فقد فهم «نحميا بن حكليا» هذا المغزى جيداً عندما هم العمونيون والأشدوديون والعرب بمحاربة أورشليم، فقام بتنظيم قواته من ناحية، ومارس دوره التعبوى من ناحية أخرى :

«فأوقفتُ الشعب من أسفل الموضع وراء السور وعلى القمم أوقفتهم للعظماء والولاة ولبقية الشعب : لا تخافوهم، بل اذكروا السيد العظيم المرهوب، وحاربوا من أجل اخوتكم وبنيكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم». (نحميا ٤/١٣- ١٤)

رابعاً : الاستطلاع والتجسس :

برع الإسرائيليون قديماً في أمور الجاسوسية بين الشعوب والأمم بهدف خداعها، وقد استغلوا ثقة هذه الأمم فيهم للاطلاع على أسرارها وخباياها، ثم استخدام هذه الأسرار والخبايا فى السطو على هذه الشعوب والقضاء عليها (١١).

ويبدو أن يوسف بن يعقوب كان يعلم بعض صفات قومه - حسب روايات سفر التكوين - فقال لهم : «جواسيس أنتم، لتروا عورة الأرض جئتم». (تكوين ٤٢/٩)

والتجسس مهمة ربانية، أمر بها «يهوه»، فهو مؤسس العقيدة العسكرية الإسرائيلية وواضع دعائمها

«ثم كلم الرب موسى قائلاً : أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل، رجلاً واحداً لكل سبط من آبائه ترسلون. كل واحد رئيس منهم». (العدد ١٣/١)

وقد حدد موسى المهام الاستطلاعية للجواسيس على النحو التالى :

«فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل. وانظروا الأرض ما هى. والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف، قليل أم كثير. وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها. أجيدة أم ردية. وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون وكيف هى الأرض : أسمينة أم هزيلة. أفيها شجر أم لا. وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض». (العدد ١٣/١٧ - ٢٠)

وهكذا كانت المهام :

١- تقرير عام عن حالة البلاد.

٢- قوة العدو وعدده.

٣- نوعية الأرض.

٤- الحالة الاجتماعية للسكان

٥- الحالة الاقتصادية للبلاد

وقد قام الجواسيس بأداء مهامهم، وقدموا تقاريرهم بعد عودتهم إلى موسى. (العدد ١٣/١٦- ٣٣)

كما اتبع موسى نهج الاستطلاع والتجسس تجاه أرض الأموريين كذلك، واستطاع بذلك الاستيلاء على «يعزيز» وقراها. (العدد ٢١/ ٣١- ٣٢)

وقصة «راحاب الزانية» مع جاسوسى يشوع يسطرها لنا كاتب سفر يشوع فى الإصحاح الثانى، وكيف أرسلهما يشوع لإعطاء تقرير عن أريحا قبل غزوها، وكيف كان إيواء الزانية لهذين الجاسوسين سبباً فى إنقاذها هى وأسرتها من التدمير الشامل الذى لحق بالمدينة على أيدى يشوع وأتباعه. لقد قامت راحاب بدور العميل، ونالت بحق أجرها على ذلك.

وقد تؤدى تقارير الاستطلاع المضللة إلى ما لا تحمد عقباه. فلقد أرسل يشوع رجالاً من أريحا للتجسس على «عاى التى عند بيت أون شرقى بيت إيل»، وكان تقريرهم كما يلى :

«لايصعد كل الشعب. بل يصعد نحو ألفى رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عاى. لاتكلف كل الشعب إلى هناك لأنهم قليلون».

وتصرف يشوع وفقاً لهذا التقرير، وكانت النتيجة أن هؤلاء «هربوا أمام أهل عاى، فضرب منهم أهل عاى نحو ستة وثلاثين رجلاً ولحقوهم من أمام الباب إلى شباريم وضربوهم فى المنحدر».

هذا التقرير الاستخبارى المضلل، المبنى على تقديرات خاطئة، لم تكن نتيجته مقتل ستة وثلاثين فقط، بل كان له أثر سئ على نفوس بنى إسرائيل جميعاً: «فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء» (يشوع ٧/٢-٥)

ولما ضاقت الأرض بسبط الدانيين من بنى إسرائيل، ولم يجدوا لهم نصيباً من الأرض، أرسلوا خمسة من ذوى البأس من «صرعة» للتجسس على «لايش»، أرض الصيدونيين، وقد أفادت تقارير الاستطلاع التى قدمها الجواسيس الإسرائيليون بما يلى (قضاة ١٨/٧- ٣٠) :

١- سكان لايش يعيشون فى طمأنينة كعادتهم مستريحين.

٢- ليس فى الأرض مؤذ.

٣- ليس لسكان لايش أى علاقة أو شأن بمن يحيط بهم.

٤- اتساع مساحة الأرض وجودتها.

وكانت نتائج هذا التقرير المشجع أن «جاء بنو إسرائيل إلى لايش، إلى شعب مستريح مطمئن، وضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار، ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون، ولم يكن لهم أمر مع إنسان، وهى فى الوادى الذى لبيت رحوب. فبنوا المدينة وسكنوا بها ، ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذى ولد لإسرائيل، ولكن اسم المدينة أولاً لايش».

ولعلنا لانغفل دلالة الفقرة الأخيرة من النص السابق، وهى تشير بوضوح إلى السياسة الإسرائيلية - قديماً وحديثاً - تجاه الأراضى المحتلة، والتى تمثلت معالمها - من خلال النص السابق - فيما يلى :

١- اتباع سياسة الأرض المحروقة.

٢- تغيير معالم الأراضى المحتلة.

٣- تهويد الأماكن المحتلة وعبرنتها من خلال إطلاق مسميات إسرائيلية عليها.

وتكنيك التجسس ليس قاصراً على الأعداء من «الأغيار»، بل هو أسلوب متعمق فى النفسية الإسرائيلية، ولعله نتاج حياة الترحال التى صاحبت تاريخهم منذ ظهورهم على مسرح الأحداث.

فالتجسس الإسرائيلى - الإسرائيلى أمر معهود وممارس داخل بنى إسرائيل وفيما بينهم، إذ أرسل الملك داود جواسيس على شاؤل (صموئيل الأول ٢٦/٤).

كما استطاع داود أن يجند عميلاً مصرياً، كان غلاماً عبداً لعماليقى، وكانت معلوماته سبباً فى انتصار داود عليهم. (صموئيل الأول ٣٠/١٣- ٢٠)

ويبدو أن الملك داود قد اشتهر بإرسال الجواسيس والعيون فى عصره، إذ عندما أرسل داود عبيده لحانون ابن ملك عمون - لتعزيته فى وفاة أبيه - لم يقتنع أهل عمون بذلك وقالوا : «أليس لأجل فحص المدينة وتجسسها وقلبها أرسل داود عبيده إليك». (صموئيل الثانى ١٠/٣)

وكان التجسس داخل مملكة داود سياسة مألوفة، إذ نجد ابنه أبشالوم الذى «أرسل جواسيس فى جميع أسباط إسرائيل» لإيقاع الفتنة بين الناس». (صموئيل الثانى ١٥/ ١٠)

حتى الكهنة فى مملكة داود، كانوا يقومون بمهمة التجسس على من بالمملكة، إذ يقول داود لحوشاى الأركى :

« أليس معك هناك صادوق وأبياثار الكاهنان، فكل ما تسمعه من بيت الملك فأخبر به صادوق وأبياثار الكاهنين، هو ذا هناك معهما ابناهما : أخيمعص لصادوق، ويوناثان لأبياثار. فترسلون على أيديهما إلىّ كل كلمة تسمعونها ». (صموئيل الثانى ١٥/٣٥- ٣٦)

إنها - على نحو ما نرى - شبكة تجسس، انتقى الملك داود أعضاءها : كهنة، وأبناء كهنة، بعيدين عن الشكوك. وفى نفس الوقت يقومون بالمهمة عن إيمان ويقين، فداود رجل الله ومسيحه.

خامساً : الحيل والخداع :

الحرب خدعة. هكذا يقال. وقد أدرك الإسرائيليون هذه المقولة جيداً منذ بداية تاريخهم، إذ بدأ أبناء يعقوب بأول خدعة لشن قتال - غير متكافئ - مع أبناء «حمور» الحوى، حين اضطجع ابنه «شكيم» مع «دينة» ابنة يعقوب وطلب الزواج منها، لكن أبناء يعقوب رفضوا مصاهرتهم إلا بعد الاختتان، فلما استجاب حمور وابنه وكل رجال المدينة وذكورها لذلك واختتنوا :

«فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابنى يعقوب : شمعون ولاوى أخوى دينة، أخذ كل واحد سيفه، وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كل ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف، وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب (إسرائيل) على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نحسوا اختهم، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه. وسلبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت». (تكوين ٣٤/٢٥-٢٩).

قد يقصد من «الحرب خدعة» إباحة الخداع والمكر والحيل فى ميدان القتال، ولكن هذه حرب من جانب واحد. طرف آمن مستقر، وآخر مقاتل معتد، استغل الخدعة والحيلة لا للانتقام فحسب، بل للسلب والنهب كذلك.

ولم يتمكن يشوع من إسقاط أريحا واحتلالها وإبادة ما فيها إلا بحيلة «النفخ فى البوق»، التى تعد شعيرة وطقساً من شعائر وطقوس الحرب المقدسة فى تاريخ الإسرائيليين. (يشوع ٦/١- ٢٢)

وفى حرب «جدعون» مع جيش المديانيين، لجأ «جدعون» إلى حيلة البوق وحيلة الجرار على النحو التالى :

«وكان لما سمع جدعون خبر الحلم وتفسيره أنه سجد ورجع إلى محلة إسرائيل وقال قوموا لأن الرب قد دفع إلى يدكم جيش المديانيين. وقسم الثلاث مئة الرجل إلى ثلاث فرق وجعل أبواقاً فى أيديهم كلهم وجراراً فارغة ومصابيح فى وسط الجرار. وقال لهم انظروا إلى وافعلوا كذلك. وها أنا آت إلى طرف المحلة فيكون كما أفعل أنكم هكذا تفعلون. ومتى ضربت بالبوق أنا وكل الذين معى فاضربوا أنتم أيضاً بالأبواق حول كل المحلة وقولوا للرب ولجدعون.

فجاء جدعون والمئة الرجل الذين معه إلى طرف المحلة فى أول الهزيع الأوسط وكانوا إذ ذاك قد أقاموا الحراس فضربوا بالأبواق وكسروا الجرار التى بأيديهم. فضربت الفرق الثلاث بالأبواق وكسروا الجرار وأمسكوا المصابيح بأيديهم اليسرى والأبواق بأيديهم اليمنى ليضربوا بها وصرخوا سيف للرب ولجدعون. ووقفوا كل واحد فى مكانه حول المحلة فركض كل الجيش وصرخوا وهربوا. وضرب الثلاث المئين بالأبواق وجعل الرب سيف كل واحد

بصاحبه وبكل الجيش. فهرب الجيش إلى بيت شطة إلى صردة حتى إلى حافة آبل محولة إلى طباة. فاجتمع رجال إسرائيل من نفتالي ومن أشير ومن كل منسى وتبعوا المديانيين». (قضاة ٧/١٥- ٢٣)

وقد تمتع «شمشون» الإسرائيلي بابتكار الحيل والخدع، ففي محاولة انتقامية من الفلسطينيين، عمد شمشون إلى حيلة بارعة بحق مفادها كما يلي :

«ذهب شمشون وأمسك ثلثمائة ابن آوى، وأخذ مشاعل وجعل ذنباً إلى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط. ثم أضرم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون». (قضاة ١٥/٤- ٦)

لاشك أن العقلية العسكرية الإسرائيلية في هذا الوقت قد حققت كثيراً من إنجازاتها بما توصلت إليه وابتكرته من حيل، وما عمدت إليه من خداع، وما سقناه غيض من فيض.

سادساً : عنصر المفاجأة والمباغته :

من أهم عناصر التكتيك الحربي منذ القديم، وحتى عصرنا هذا ما يسمى بعنصر المفاجأة والمباغتة، أو ما يطلق عليه البعض : «الضربة الأولى».

ولم يكن ليغيب عن يشوع تقدير أهمية هذا العنصر كعامل حاسم في تحقيق الانتصار، وبخاصة عندما تتعاظم قوة العدو.

فقد اجتمع ملوك الأموريين الخمسة لمحاربة يشوع الذي أخذ يزحف غازياً ومحتلاً ومدمراً لكل من يقابله. ويبدو أن يشوع قد أوجس خيفة، وطمأنه «يهوه» واستغل يشوع فوائد عنصر المفاجأة «فأتى إليهم يشوع بغتة. صعد الليل كله من الجلجال، فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة ...» (يشوع ١٠/٩- ١٠)

كما استغل يشوع تكنيك المفاجأة مرة أخرى فى قتاله أمام تحالف الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين، الذين نزلوا على مياه «ميردم» لكى يحاربوا إسرائيل : «فجاء يشوع وجميع رجال الحرب معه عليهم عند مياه ميروم بغتة وسقطوا عليهم. فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم وطردوهم ...» (يشوع ١١/٦- ٨)

ولقد أدرك «جدعون» - فى عصر القضاة - أن اختيار الوقت المفاجئ والانقضاض على العدو وهو مطمئن غير مستعد هو أحد عوامل النصر، لذلك «صعد جدعون فى طريق ساكنى الخيام شرقى نويح وضرب الجيش، **وكان الجيش مطمئناً**. فهرب زبح وصلمناع فتبعهما وأمسك ملكى مديان زبح وصلمناع وأزعج كل الجيش». (قضاة ٨/١١- ١٢)

وهكذا يبرز جانب من جوانب فن القتال عند بنى إسرائيل، كما صورته لنا نصوص الحرب فى الأسفار العبرية المقدسة.

سابعاً : الكمائن :

تعد الكمائن من أشهر وسائل التكنيك فى الحروب الإسرائيلية، وقد استخدمت فى عصور مختلفة من تاريخ معاركهم، ويبدو أنها كانت وسيلة قتالية ناجحة، ومفضلة عند يشوع، إذ بفضلها حقق كثيراً من انتصاراته واحتلاله لمدن فلسطين المختلفة.

ولقد أدرك إله بنى إسرائيل بوصفه «المحارب» و«رب الجنود» قيمة هذه الكمائن، فجاء أمره المباشر إلى يشوع إثر الإعداد لاحتلال «عاى» :

> «فقال الرب ليشوع ... اجعل كميناً للمدينة من ورائها ... فقام يشوع وجميع رجال الحرب للصعود إلى عاى وانتخب يشوع ثلاثين ألف رجل جبابرة البأس وأرسلهم ليلاً وأوصاهم قائلاً : انظروا، انتم تكمنون للمدينة من وراء المدينة. لا تبتعدوا من المدينة كثيراً وكونوا كلكم مستعدين». (يشوع ٨/١ - ٤)

وعندما حانت ساعة الصفر، وأعطى يشوع إشارته «قام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مد يده (بالمزراق الذى كان فى يده) ودخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار». (يشوع ١٨/٨ - ١٩)

فاختلال «عاى» وتدميرها لم يكن على أيدى يشوع ورجاله إلا بفضل تكنيك الكمين، الذى جاء بأوامر «يهوية» عليا.

وعرف عصر القضاة هذا التكنيك، فاستخدمه بنو إسرائيل فى حروبهم فيما بينهم وكانوا قد خبروا فوائد الكمائن منذ عصر يشوع.

ففى الحرب التى وقعت بين بنى إسرائيل وإخوانهم من بنى بنيامين «وضع إسرائيل كميناً على جبعة محيطاً، وصعد بنو إسرائيل على بنى بنيامين فى اليوم الثالث...» (قضاة ٢٩/٢٠ - ٣٠)

لقد تم سحب بنى بنيامين إلى خارج جبعة حتى يتمكن الكمين من القيام بدوره جيداً «فأسرع الكمين واقتحموا جبعة وزحف الكمين وضرب المدينة بحد السيف». (قضاة ٣٧/٢٠)

وساهم هذا الكمين - بالإضافة إلى احتلال المدينة والتمكن منها - فى مقتل ثمانية عشر ألفاً من بنى بنيامين» جميع هؤلاء ذوو بأس». (قضاة ٤٤/٢٠)

وهكذا نجح تكنيك الكمين مرة أخرى فى دخول الكامنين للمدينة وإسقاطها، وفى مقتل الآلاف من الطرف الآخر. (٢)

كما عرف شاؤل تكنيك الكمائن وطبقه فى حروبه كما تخبرنا بذلك نصوص العهد القديم: «ثم جاء شاؤل إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى». (صموئيل الأول ٥/١٥)

وكانت النتيجة على ما هو معهود ومألوف بعد تمكن الكمين من الهدف «وحرّم (أى أباد تماماً) جميع الشعب بحد السيف». (صموئيل الأول ٨/١٥)

ثامناً : الحصـــار :

يتميز الحصار بعدة مزايا تجعله وسيلة تكنيكية مفضلة فى الحروب. فهو لايكلف على المدى الطويل فى تجهيزاته، ولايحتاج إلى قوى بشرية إذا ما قورن باحتياجات المعارك الالتحامية. وللحصار - كذلك - تأثيره المدمر على العدو، ونتائجه مؤكدة وواسعة المدى، وهو لا يتطلب أكثر من تنظيم قوى، وصبر لاينفد.

وكان الحصار بمثابة عنصر الحسم فى سياسة يشوع العسكرية، إذ مكنه من إسقاط مدينة تلو أخرى، فقد استخدمه أولاً فى إسقاط أريحا : «وكانت أريحا مغلقة بسبب بنى إسرائيل، لا أحد يخرج ولا أحد يدخل». (يشوع ٦/١)

واشتد حصار يشوع وأتباعه، وكانت حيلة الأبواق والهتاف «فسقط السور فى مكانه وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة، وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير. بحد السيف». (يشوع ٦/ ٢٠- ٢١)

واستغل «يوآب» تكتيك الحصار تجاه «آبل بيت معكة» وهو يسعى للقبض على «شبع بن بكرى» : «وعبر فى جميع أسباط إسرائيل إلى أبل وبيت معكة وجميع البيريين، فاجتمعوا وخرجوا أيضاً وراءه. وجاءوا وحاصروه فى آبل بيت معكة وأقاموا مترسة حول المدينة. فأقامت فى الحصار وجميع الشعب الذين مع يوآب كانوا يخرجون لأجل إسقاط السور». (صموئيل الثانى ٢٠/١٤ - ١٥)

ولما أدرك أهل المدينة سبب الحصار - وهو تسليم شبع بن بكرى ليوآب - وأنهم لاطاقة لهم بنتائج هذا التكنيك التى ستؤدى إلى هلاك المدينة ومن فيها : «قطعوا رأس شبع بن بكرى وألقوه إلى يوآب، فضرب بالبوق، وانصرفوا عن المدينة كل واحد إلى خيمته». (صموئيل الثانى ٢٠/٢٢)

وفى إطار الحروب الأهلية - كذلك - استخدم بنو إسرائيل تكنيك الحصار دائماً - ففى الصراع الدائر على الحكم بين ملوك مملكة إسرائيل : «صعد عمرى وكل إسرائيل معه من جبثون وحاصروا ترصة». (ملوك أول ١٦/١٧)

وقد تمكن «عمرى» من أخذ المدينة، الأمر الذى دفع منافسه «زمرى» إلى أن ينتحر : «وأحرق عل ينفسه بيت الملك بالنار فمات». (ملوك أول ١٦/١٨)

لقد أدرك «زمرى» النتائج الحتمية للحصار، ففضل أن يميت نفسه بيده، قبل أن يتمكن منه «عمرى» ويقتله.

وإذا ما أدرك أهل مدينة أن العدو سيلجأ إلى حصارهم، فإنهم يتخذون الوسائل المضادة للحصار بهدف مقاومته من ناحية، وإطالة أمده من ناحية أخرى، عسى أن ييأس المحاصرون وينصرفون.

فعندما واصل «سنحاريب» ملك أشور زحفه ودخل يهوذا، ونزل على المدن الحصينة وطمع فى إخضاعها لسيطرته، توجه إلى أورشليم. لكن «حزقيا» - ملكها آنذاك - تشاور مع «هيئة أركان» قواته حول الوسائل المضادة للحصار المتوقع من قبل «سنحاريب»، واتفق على ما يلى :

١- طم الينابيع والنهر الجارى فى وسط الأرض بهدف قطع إمدادات المياه عن العدو.

٢- بناء ما تهدم من السور المحيط بالمدينة وبخاصة أعلاه.

٣- بناء سور آخر خارج السور القديم.

٤- تحصين القلعة.

٥- توفير السلاح والأتراس.

٦- تنظيم القوات المسلحة داخل المدينة.

٧- رفع الروح المعنوية للجبهة الداخلية.

لكن «سنحاريب» عندما علم باستعدادات «حزقيا» عمد إلى خلخلة الروح المعنوية لأهل أورشليم، وبث روح اليأس والقنوط فى صفوفهم، فأرسل رسله للقيام بهذه المهمة، وفعلوا كل ما يمكنهم لبث الرعب فى نفوس الأورشليميين.

ولم يكن أمام «حزقيا» وأتباعه وهم محاصرون إلا الاستعانة بالنبى إشعياء بن آموص : «لذلك صرخا إلى السماء، فأرسل الرب ملاكاً فأباد كل جبار بأس ورئيس وقائد فى محلة ملك أشور ... وخلص الرب حزقيا وسكان أورشليم من سنحاريب ملك أشور». (أخبار الأيام الثانى ٣٢/١ - ٢٤)

وقد ركز سفر نحميا فى العديد من فقراته على أهمية تحصين أورشليم وتجديد أسوارها، وسد كل الثغرات فيها، لتكون على أهبة الاستعداد لأى حصار من قبل الأعداء وبخاصة العرب والعمونيين والأشدوديين (نحميا ٤/١ - ١٤؛ ٦/١ - ٢).

ونظراً لأهمية مقاومة الحصار، فقد تكلم الرب إلى «حزقيال» وأوصاه بإعداد أورشليم لمواجهة هذا التكنيك قائلاً :

> «وأنت يا ابن أدم، فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أورشليم، واجعل عليها حصاراً، وابن عليها برجاً، وأقم عليها مترسة، واجعل عليها جيوشاً، وأقم عليها مجانق حولها ...». (حزقيال ٤/١ - ٢)

وهكذا كان تكنيك الحصار، وعلى هذا النحو كانت مقاومته ومواجهته، كما أخبرتنا نصوص العهد القديم، إذ تقدم لنا هذه النصوص مزيداً من المعلومات حول تجهيزات الحصار (انظر : أخبار الأيام الثانى ١١/٥ - ١٢؛ ٣٢/٣٠ وغيرها).

تاسعاً : التحصينات الدفاعية :

على نحو ما أسلفنا فى الحديث عن تكنيك الحصار، شاهدنا بعض ملامح سياسة التحصينات الدفاعية عند بنى إسرائيل فى حروبهم الخارجية والأهلية. وقد رأيت أن أفرد فى هذا المقام الحديث عن هذه التحصينات حيث تبرز فى النصوص العبرية كملمح هام من ملامح فن القتال عند الإسرائيليين.

وتشير نصوص العهد القديم إلى ملمحين هامين للتحصينات الدفاعية وهما :

١- القلاع والحصون :

عرف الإسرائيليون الحصون في عهد مبكر من تاريخهم العسكري، فقد جاء في سفر القضاة : «فاعتزت يد مديان على إسرائيل، بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال والمغاير والحصون». (٢/٦)

وتعتبر سياسة بناء الحصون معلماً بارزاً من معالم الاستراتيجية الإسرائيلية في عهد الملكية [٣]، إذ استمرت في معظم عصورها، ولم تكن قاصرة على المناطق المحتلة فيما وراء حدود إسرائيل ويهوذا، بل أيضاً كانت بطول حدود هاتين المملكتين :

«فصعد الزيفيون إلى شاؤل إلى جبعة قائلين : أليس داود مختبئاً عندنا في حصون في الغاب في تل حخيلة التي إلى يمين القفر». (صموئيل الأول ١٩/٢٣)

«وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكاً على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، ولما سمع داود نزل إلى الحصن». (صموئيل الثاني ١٧/٥)

واستمر التكنيك بعد داود :

«وأقام رحبعام في أورشليم وبنى مدناً للحصار في يهوذا، فبنى بيت لحم وعيطام وتقوع وبيت صور وسوكو وعدلام وجت ومريشة وزيف وأدورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون التي في يهوذا وبنيامين مدناً حصينة وشدد الحصون وجعل فيها قواداً وخزائن مأكل وزيت وخمر وأتراساً في كل مدينة ورماحاً وشددها كثيراً جداً ...». (أخبار الأيام الثاني ٥/١١ - ١٢)

لقد اكتشفت في شكيم ومجدو وبيت شان نماذج من هذه القلاع والحصون، والتي تسمى في التوراة «مجدال» [٤]، كما أظهرت الحفريات في جبعة شاؤل المعروفة اليوم باسم تل الفول - وكانت عاصمة مملكة شاؤل - وجود تحصينات ترجع إلى عهد شاؤل وداود وسليمان،

وأظهرت كذلك وجود قلعة يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد، تتكون من معقل فى السور وبرج فى إحدى الزوايا وثلاث غرف. (٥)

وربما كانت حروب الفرعون المصرى شيشق مع المملكة العبرية عام ٩٢٠ ق.م والتى دمر خلالها عدداً كبيراً من المدن الإسرائيلية سبباً فى تغيير تكنيك التحصينات الذى بدت ملامحه فيما بعد، حيث قامت كل مملكة من المملكتين بإنشاء سلسلة دائرية من القلاع والحصون التى اقيمت على طول الطرق الرئيسية والتجارية وعلى الحدود. (٦)

ونظرة عامة على هذه التحصينات التى انشئت فى عهد المملكة الموحدة تنبئ عن ملامح هذه المنشآت التى تميزت بأسوارها ذات المعاقل والبروج المزدوجة والبوابات الضخمة، وهى أسوار مزدوجة أحدها داخلى والثانى خارجى (وهو ما رأينا امتداده فيما بعد على نحو ما ورد فى أخبار الأيام الثانى ٣٢/١- ٢٤)، تحيط بالمدينة فى خطين متوازيين وبشكل دائرى حيث توجد جدران على مسافات متباينة - تصل بين السورين - وتوجد فى هذه الجدران أبواب صغيرة تسمح بالمرور بين السورين، وهذا ما يبدو فى مجدو وحاصور وجازر وغيرها من المدن. (٧)

٢- الأسوار والبروج :

يبدو أن بنى إسرائيل قد اكتشفوا أهمية البروج منذ عصر القضاة، إذ يحدثنا الإصحاح التاسع من سفر القضاة عن معارك «أبيمالك» مع أهل برج «شكيم» فيقول :

> «ثم ذهب أبيمالك إلى تاباص وأخذها. وكان برج قوى فى وسط المدينة فهرب إليه جميع الرجال والنساء وكل أهل المدينة وأغلقوا وراءهم وصعدوا إلى سطح البرج. فجاء أبيمالك إلى البرج وحاربه، واقترب إلى باب البرج ليحرقه بالنار، فطرحت امرأة قطعة رحى على رأس أبيمالك فشجت جمجمته. فدعا حالاً الغلام حامل عدته وقال له : اخترط سيفك واقتلنى لئلا يقولوا عنى قتلته امرأة، فطعنه الغلام فمات». (قضاة ٩/ ٥٠- ٥٤)

فلقد ساعد البرج هنا أهل «شكيم»، حيث كان الملاذ الأخير لهم، ومنه كانت نهاية «أبيمالك»، الذى تفرق أتباعه بعد مقتله، تاركين البرج وأهله.

وقد أدرك «عزيا بن أمصيا» ملك يهوذا أهمية الأبراج من الناحية الدفاعية : «فبنى عزيا أبراجاً فى أورشليم عند باب الزاوية وعند باب الوادى وعند الزاوية وحصنها. وبنى أبراجاً فى البرية ...». (أخبار الأيام الثانى ٩/٢٦- ١٠).

أما الأسوار، فعلى نحو ما تنبئنا نصوص العهد القديم، كانت تحيط بالمدن المختلفة، وكانت ذات أبواب تفتح نهاراً وتغلق ليلاً، ومن أبرز المدن ذات الأسوار : جت ويبنة وأشدود الفلسطينية، وجبع بنيامين والمصفاة، وقد بنيت أسوار هاتين المدينتين الأخيرتين بحجارة نقلها «آسا» - ملك يهوذا - من الرامة، وكان «بعشا» - ملك إسرائيل - قد بناها فى أرضه، إلا أن ملك آرام - بنهدد الأول - قد هدمها بطلب من «آسا»، ووفقاً لتحالفات تمت بين الطرفين فى إطار الحرب الأهلية بين «آسا» و«بعشا». (انظر الملوك الأول ١٥/ ٢٠- ٢٣)

وكانت تقام على هذه الأسوار وفى زواياها أبراج، تنصب عليها «المنجنيقات» للدفاع عن المدينة وقت حصارها أو مهاجمتها، ولرمى السهام والحجارة الضخمة منها، وهو ما قام به بالفعل «عزيا بن أمصيا» ملك يهوذا :

«وهيأ لهم عزيا لكل الجيش أتراساً ورماحاً وخوذاً ودروعاً وقسياً وحجارة مقاليع، وعمل فى أورشليم منجنيقات اختراع مخترعين لتكون على الأبراج، وعلى الزوايا لترمى بها السهام والحجارة العظيمة». (أخبار الأيام الثانى فى ١٤/٢٦ - ١٥)

وقد عثر على آثار لبعض الأسوار فى مجدو وعاى وأريحا، وكذلك على بروج نصف دائرية لتحصين الأسوار فى عاى وأريحا وعراد، وعلى بروج ذات شكل مستطيل فى أريحا وعاى وطرزه. (٨)

تاسعاً : بناء المستوطنات :

الاستيطان اليهودى فى أرض فلسطين وما حولها هو فى رأينا عقيدة دينية قبل أن يكون نزعة استعمارية، ودليلنا على هذا، ذلك الكم - غير القليل - من النصوص التوراتية المقدسة، التى تحمل عهد الرب «يهوه» ووعده لشعبه «المدلل» :

«واجتاز ابرام فى الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض». (سفر التكوين ١٢/٦-٧)

«وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه. ارفع عينيك وانظر من الموضوع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد». (سفر التكوين ١٣/١٤ - ١٥)

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». (سفر التكوين ١٥/١٨)

«وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. واعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم». (سفر التكوين ١٧/٧ - ٨)

«وظهر الرب لاسحق وقال لا تنزل إلى مصر. اسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرب فى هذه الأرض. فأكون معك وأباركك. لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد. وأفى بالقسم الذى اقسمت لابراهم أبيك. وأكثر نسلك كنجوم السماء. وأعطى نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض». (سفر التكوين ٢٦/٢-٤)

«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً موسى عبدى قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم ... فتشدد وتشجع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التى حلفت لآبائهم أن أعطيهم». (يشوع ١/١ - ٦)

ونحن لسنا هنا فى مجال إحصاء النصوص المتعلقة بالأرض، وإنما أوردت تلك النخبة لبيان عدة ملاحظات :

أولاً : التركيز على عملية «منح الأرض» من الرب لشعبه فى إصحاحات متتالية من سفر التكوين، مما يوحى بأهمية هذه القضية.

ثانياً : الأرض فى البداية كانت وعداً من الرب ومنحة إلهية منه لنسل ابراهيم. أى ذريته من ولديه اسماعيل واسحق.

ثالثاً : إن «الأرض الموعودة» كانت ملكاً للكنعانيين سكانها ولم تكن خراباً.

رابعاً : تحديد الأرض الموعودة من نهر مصر - وهو النيل غالباً إلى الفرات.

خامساً : تحول العهد والوعد بالأرض - دون سبب يذكر - إلى نسل اسحق (الذى انحدر منه بنو إسرائيل) واستبعاد نسل اسماعيل (الذى انحدر منه العرب).

سادساً : فتح حدود الأرض الموعودة لتشمل كل موضع تطؤه أقدام بنى إسرائيل.

تلك هى عناصر الاستيطان فى كتاب اليهود المقدس :

١- أرض موعودة. ٢- لنسل محدد. ٣- بحدود مفتوحة.

وتلك هى العناصر التى تتحكم فى السياسة الاستيطانية الإسرائيلية المعاصرة، والتى قد يعتقد البعض أنها من صنع حزب متشدد يتزعمه بيجن أو شارون أو شامير أو نتنياهو.

فالمسألة على نحو ما نرى أكبر وأعمق. إنها مسألة عقيدة ثابتة، لا سياسة.

واستناداً إلى تلك الأساطير الدينية. ومواقف بعض الدول الاستعمارية، بنى الإسرائيليون لأنفسهم ثلاث ذرائع للتمسك بالأرض العربية :

١- الذريعة العنصرية.

٢- الذريعة التاريخية.

٣- الذريعة القانونية الدولية.

أما **الذريعة العنصرية** فتتمثل فى ادعائهم العنصرى بأنهم شعب الله - إلههم هم - المختار :

«لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض». (سفر التثنية ٦/٧)

وأما **الذريعة التاريخية** فتتمثل فى دولة قصيرة الأجل، أقامها داود وسليمان فى فلسطين، لم تتجاوز بضعة وسبعين عاماً، على الرغم من استقرار القبائل العربية قبلهم وبعدهم وأثناء وجودهم، بشهادة نصوصهم المقدسة.

وأما **الذريعة القانونية**، فهى أشد وهناً مما سبق، فهى ذريعة قانونية واهية، حيث يرون فى وعد بلفور بإقامة وطن لهم فى فلسطين، وفى صك الانتداب البريطانى على فلسطين، والذى أقرته عصبة الأمم فى ١٩٢٢/٧/٢٤، والذى تضمن فى مقدمته إشارة صريحة إلى تنفيذ وعد بلفور، يرون فى ذلك «ضماناً قانونياً» لابتلاع الأرض، مع التغاضى عن مخالفة بلفور لميثاق عصبة الأمم آنذاك، والتجاوز عن حق الشعب الفلسطينى فى أرضه وسيادته ودولته.

وقد تطور مفهوم الاستيطان الإسرائيلى من مجرد وعد من الرب «يهوه» إلى ضرورة أملتها العقيدة العسكرية الإسرائيلية وبخاصة فى عهد الملكية.

فالسيطرة على الأراضى المحتلة تتطلب توطين هذه الأراضى بحشود ومستعمرات سكنية مناسبة لهذه الحشود. مثل هذه الحاميات سوف تخدم عدة أهداف، فهى على المستوى الرمزى، سوف تمثل القوة المحتلة، وتبقى تذكاراً للسكان المحليين على وضعهم الحقيقى، وهى كذلك تخدم المراكز الإدارية التى من خلالها تتم السيطرة على المناطق المحلية وجباية الضرائب. أما على المستوى العسكرى، فسوف تخدم - فى حالة تمرد السكان المحليين - الإسرائيليين فى قمع مثل هذه الحالات. أما حجم المستوطنات فسيعتمد على الهدف المنشود من ورائها. وهناك هدف إضافى من وراء إقامة هذه المستوطنات وهو تشجيع الاستيطان فى الأراضى التى تم احتلالها. (٩)

ولعل أبرز الأمثلة على الاستيطان الإسرائيلى ودوافعه ووسائله، يتجسد فى سياسة الملك داود تجاه بناء المستوطنات فى الأراضى المحتلة. ففى أعقاب هزيمة سوريا وأدوم، قام داود ببناء الحصون فى أراضيهم بهدف السيطرة والتحكم فى السكان المحليين، وكانت رغبة داود مزدوجة : تحصيل الجزية من المقهورين، وضمان عدم انتفاضة هؤلاء ضده. وقد استمر «أخاب» فى سياسة بناء المستوطنات السكانية والمدن والتحصينات فى المناطق الاستراتيجية والمواقع، كما وجد فى عصر أسرة «عمرى» العديد من المستوطنات المحصنة فى «بير سبع» غرباً و«عراد» شمالاً و«قادش» و«جبل رامون» جنوباً. (١٠)

ولقد أثبت بحث إسرائيلى أثرى أن السيطرة الكاملة على النقب وعلى الطرق من خلالها كان مؤمناً بنظام الحصون والمستوطنات المتواجدة بالقرب منها والهدف من هذا النظام كما يرى «أهارونى» هو السيطرة على الطرق الهامة من خلال النقب، تلك الطرق المؤدية إلى الميناء الجنوبى «إيلات»، ويمكن عن طريق هذه المستوطنات تحقيق أهداف أخرى مثل الدفاع ضد الهجمات الأدومية التى تزايدت فى الفترة الأخيرة من العصر الملكى فى يهوذا. (١١)

ولبيان أهمية السياسة الاستيطانية عند الإسرائيليين، نضرب مثالاً بمستوطنة «عراد» الواقعة فى نهاية الشمال الشرقى للسلسلة الجبلية، والتى كانت بسبب حجمها وتاريخها مركزاً إدارياً وقيادياً للنظام آنذاك، وتقع على المرتفع الشمالى الشرقى للمكان.

إن الموقع الجغرافى للمكان ذو أهمية بالغة، فمن حصونه يمكن رؤية وحماية الطريق الذى يخترق وادى الملح ووادى بير سبع غرباً. ويمكن من الناحية الشرقية رؤية وادى عربة وبرية أدوم (الملوك الثانى ٨/٣)، كما يمكن كذلك رؤية الحصون الأخرى جنوب مرتفعات النقب، وهناك خلف الحصون شمالاً طريق يؤدى إلى قلب يهوذا عبر «معون».

إن القيمة الاستراتيجية للموقع لايمكن إغفالها، وقد أقيم أول حصن إسرائيلى فيها فى القرن العاشر قبل الميلاد، ربما خلال عصر الملك سليمان، وبعد تدميرها على يد الفرعون المصرى شيشق فى ٩٢٥ ق.م، أعيد بناؤها وتصميمها خلال عصر الملكية ما لا يقل عن ست مرات، مما يعكس أهميتها الاستراتيجية.

الهوامش

١- زكى شنوده، المجتمع اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٣.

٢- انظر من كمائن عصر القضاة أيضاً فى ٩/٤٣ - ٤٥.

٣- Hobbs, Op. Cit, p. 159.

٤- Encyclopaedia Judaica, vol, 16. p. 275.

٥- Ibid.

٦- Ibid. p. 276.

٧- ياسين سويد، التاريخ العسكرى لبنى إسرائيل من خلال كتابهم، مرجع سبق ذكره، جـ١ / ١٥١.

٨- Encyclopaedia Judaica, vol, 16. p. 273.

٩- Hobbs, Op. Cit, p. 159.

١٠- Ibid. pp. 160 - 161.

١١- Y. Aharoni, "Forerunner of the Limes : Iron Aye Fortresses in the Negev" IEJ 17 (1964) : 1- 17, Cited from : Hobbs, Ibid, p. 161.

الفصــل الثانـى

معدات القتال فى الحروب الإسرائيلية

لم يكن بنو إسرائيل - من خلال نصوص العهد القديم - مبدعين فى مجال التسليح، وإنما استخدموا ماكان شائعاً فى عصرهم، بل وصل الأمر إلى احتكار الفلسطينيين لصناعة الأسلحة وفرض نوع من الاحتكار - بلغة عصرنا - على صناعة السلاح :

«ولم يوجد صانع فى كل أرض إسرائيل، لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً، بل كان ينزل كل إسرائيل إلى الفلسطينيين لكى يحدد كل واحد سكّته ومنجله وفأسه ومعوله عندما كلّت حدود السكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس ولترويس المناسيس. وكان فى يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولارمح بيد جميع الشعب الذى مع شاؤل ومع يوناثان».
(صموئيل الأول ١٣/١٩- ٢٢)

هكذا احتكر الفلسطينيون صناعة السلاح، وهكذا فرضوا حصاراً على إسرائيل، ومن ثم لم نجد فى أكثر فترات بنى إسرائيل اشتغالاً بالحروب، إبداعاً أو ابتكاراً من ناحية، كما لم نجد لديهم أسلحة متقدمة بمقاييس عصرهم من ناحية أخرى.

فما هى إذن أهم الأسلحة ومعدات القتال التى استخدمها بنو إسرائيل فى حروبهم على نحو ما تخبرنا نصوص العهد القديم ؟!

١- **المقــلاع** : وهو عبارة عن أداة مصنوعة من الجلد لها طرفان رفيعان ومقبض عريض فى الوسط، يوضع فيه الحجر، وكان يمسك بالطرفين ثم يطوح بالمقلاع بشده حيث يفلت أحد الطرفين فى تندفع الحجر بقوة ليصيب العدو إصابة مباشرة قد تودى بحياته.

ولعل أبرز المعارك التى استخدم فيها المقلاع وكانت نتائجه حاسمة، ذلك القتال بين داود وجليات الفلسطينى (صموئيل الأول ١٧، ٤٩- ٥٠)، كما استخدمه بنو إسرائيل فى قتالهم ضد موآب (الملوك الثانى ٣/٢٥). ويمكن أن نسجل لبنى إسرائيل تفوقاً فى استخدام المقلاع، سجلته لنا نصوص سفر القضاة، إذ كان من بين بنى بنيامين «سبعمائة رجل منتخبون عسر، كل هؤلاء يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة ولا يخطئون». (قضاة ٢٠/١٦)

ويبدو أن المقلاع كان من الأسلحة الهجومية عند بنى إسرائيل، إذ لم نجد النصوص الدالة على استخدامه ما يفيد غير ذلك.

٢- السهم والقوس : كان الإسرائيليون يصنعون السهام - فى الغالب - من الخشب المرن أو النحاس على نحو ما يخبرنا المزمور (١٨/٣٤)، كما كانت أوتار القوس من الجلد أو شعر الخيل، وكانوا يلقونها وهم مشاة أو على ظهور الخيل. [١]

وجدير بالذكر أن القوس سلاح قديم يعود إلى العصر البرونزى الأول (٣١٥٠ - ٢٢٠٠ ق.م)، وقد اتخذ أشكالاً مختلفة، فهو محدب فى مصر ومقعر أو منحنى فى بلاد ما بين النهرين[٢]، ويرمى بالأقواس ذخائر مثل السهام (صموئيل الأول ٢٠/٢٠ -٢٢) التى تحمل رؤوساً من حجر الصوان، وفيما بعد رؤوساً حديدية توضع فى جعب من الجلد ذات أشكال متعددة أبرزها الشكل الأسطوانى، يحملها النّبال، أو توضع فى المركبات المقاتلة [٣]، كما كانت توضع فى رؤوسها كذلك جمراً من النار لإشعال الحرائق فى أماكن انطلاقها. (ايوب ٦/ ٤)

وقد تطورت الأقواس والسهام فى العصور اللاحقة، كما ظل القوس من أهم الأسلحة حتى ظهور الأسلحة النارية. [٤]

٣- الرمح والمزراق : عرفت الجيوش القديمة الرمح واستخدمته منذ أقدم العصور بشكليه : العادى المستخدم فى القتال وجهاً لوجه، والقصير (المزراق) الذى يرمى به من مسافات قصيرة. وكان الرمح عبارة عن قناة خشبية جوفاء، تنتهى بسنان من حديد أو نحاس (صموئيل الأول ١٧/٦- ٧) يطعن به فى النزال (عدد ٢٥/٧- ٨)، أو يتم غرزه فى الأرض فى حالة عدم استعماله. (صموئيل الأول ٢٦/٧)

وتقص علينا معارك الإسرائيليين استخدام هذا السلاح فى معاركهم أو عمليات الاغتيال الأهلية التى شهدها تاريخهم الملئ بالصراعات، وتحكى لنا «دبورة» كيف عانت القوات الإسرائيلية فى زمنها من نقص الرماح (قضاة ٥/٨)، مما يعكس أهمية هذه الآلة العسكرية آنذاك.

٤- الـــدرع : وهو عبارة عن قميص من الجلد أو النحاس أو الحديد، يرتديه المقاتل كى يتقى به ضربات العدو، حماية لظهره وصدره، وقد كان معروفاً قبل ظهور بنى إسرائيل على مسرح الأحداث، إذ كان المشاه السومريون يرتدون سترات من الجلد ذات مسامير معدنية. [٥] ومع ظهور وسائل الهجوم، مرت وسائل الدفاع كذلك بعمليات تطوير لتواكب التطور الهجومى، فوجدنا فى العصر البرونزى الأخير وما يليه دروعاً تغطى جسم المقاتل وتتكون من الجلد أو القماش الخشن المغطى بصفائح مستطيلة ورقيقة من البرونز، تختلف أشكالها وأعدادها فى السترة الواحدة لتصل إلى ستمائة صفحة تقريباً، مما يجعل الدرع بوجه عام عبئاً ثقيلاً على المقاتل [٦]، كما أن من أخطر نقاط ضعف الدروع، تلك الفراغات الموجودة بين الصفائح، أو فى مناطق معينة من الدرع كالتقاء الأكمام وغطاء الرقبة، والتى تتيح للخصم إصابة مقاتله المدرع بضربة سيف أو طعنة رمح فى هذه المناطق الضعيفة من الدرع، وهذا ما حدث بالفعل حين رمى رجل قوسه - دون عمد - فأصاب ملك إسرائيل «أحاب بن عمرى» بين مفاصل الدرع، مما أدى إلى موته فى معركة «راموث جلعاد». (ملوك أول ٢٢/٣٤- ٣٥)

وقد طور الفلسطينيون الدرع حيث استخدموا «الدرع الحرشفية»، كما لم يعد الدرع عندهم قاصراً على حماية النصف الأعلى للمقاتل، بل كان يمتد ليشمل الجزء الأسفل والساقين، فقد ارتدى المقاتلون الفلسطينيون تنانير جلدية، وكانوا يلفون سيقانهم بلفافات نحاسية، وقد وضح ذلك فى الشكل الذى ظهر عليه «جليات» الفلسطينى عندما برز لمقاتله داود : «... وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابساً درعاً حرشفياً، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقا نحاس على رجليه، ومزراق نحاس بين كتفيه». (صموئيل الأول ١٧/٥-٦)

ثم تطور الدرع وبخاصة فى القرن التاسع قبل الميلاد، حتى يحقق مزيداً من السهولة فى الاستخدام، والأمان فى القتال، وقد استفاد الإسرائيليون من هذه الوسائل القتالية التى عرفت وتم استخدامها فى عصرهم.

٥- التـرس أو المجن : وهو عبارة عن لوح خشبى أو من الجلد أو المعدن، يتقى به المقاتل ما يقذفه به عدوه من حجارة أو رماح أو سهام أو ضربات السيوف والفؤوس أو جمرات النار. وقد رافق الترس الدرع فى صناعته وتطوره، فكان فى العصر البرونزى الأول ذا شكل مثلث عريض، يصنع من الخشب الذى يغطى بالجلود والصفائح المعدنية. (٧) ولقد طور المصريون والحثيون والكنعانيون من شكل التروس وأحجامها لتواكب ما لحق بالدروع من تطور، فكانت هناك دروع مثلثة ومستديرة ومقعرة ومنحنية، تغطى برؤوس مدببة ومستديرة، كما شكل حملة التروس وحدة خاصة بهم بين الوحدات القتالية. (٨)

وقد استفاد الإسرائيليون من تكنولوجيا القتال فى عصرهم، ووجدنا بعض ملوكهم يصنع التروس من الذهب، إذ صنع الملك سليمان مائتى ترس من الذهب الخالص، وثلثمائة مجن من الذهب الخالص أيضاً. (ملوك أول ١٠/١٦- ١٧)

٦- السيف والخنجر : من أقدم وسائل القتال وأشهرها عند الأمم على مر التاريخ، وهما سلاح القتال «وجهاً لوجه». وقد احتكر الفلسطينيون صناعة السيوف - على نحو ما أشرنا آنفاً - وإن كان هذا الاحتكار لم يدم طويلاً.

ومادة صناعة السيف هى الحديد. أما شكله فقد تطور كثيراً، وأقدم أشكاله فى صورة «منجل» أو على شكل مستقيم قصير (خلال العصر البرونزى الأول)، بعدها أصبح أكثر طولاً وذا حدين حتى يمكن استخدامه للقطع والطعن بالإضافة إلى الضرب. وقد عرفه الإسرائيليون على هذا الشكل المطور فى عهد مملكة داود وسليمان، واستخدموه آنذاك على نطاق واسع.

وربما يشير سفر القضاة إلى صورة السيف المستخدمة وقتئذ، وهى أقرب إلى الخنجر، حيث جاء فيه : «فعمل إهود لنفسه سيفاً ذا حدين طوله ذراع، وتقلده تحت ثوبه على فخذه اليمنى». (٣/ ١٦)

٧- الفـأس : أحد أهم الأسلحة القديمة منذ العصر البرونزى الأول، وقد حل محل السيف فى القتال الالتحامى، وقد استخدمه المصريون للقطع والطعن كذلك، إلا أنه بدأ فى الانزواء أمام تطور السيف نحو الأفضل مع بدء ظهور العصر الحديدى. (٩)

وقد عرفه الإسرائيليون كأداة ذات بأس شديد فى القتال، وأشار إليه النبى إرميا بقوله : «أنت لى فأس وأدوات حرب، فأسحق بك الأمم وأهلك بك الممالك». (إرميا ٥١/ ٢٠)

فالفأس أداة حربية يتم بواسطتها سحق الأمم وإهلاك الممالك، وهذا يعكس لنا أهميته فى عالم العسكرية.

٨- المنجنيق : سلاح هجومى عرفته الأمم القديمة لهدم أسوار المدن، وقد استخدمه بنو إسرائيل فى بعض حروبهم كسلاح دفاعى على نحو ما فعل «عزيا» حين بنى أبراجاً على سور أورشليم وأقام على الزوايا منجنيقات لكى يرمى بها على المهاجمين السهام والحجارة الضخمة. (أخبار الأيام الثانى ١٥/٢٦)

كما ذكر المنجنيق فى نبوءات حزقيال (حزقيال ٢/٤؛ ٢٢/٢١) فى إطار تحصين أورشليم.

والمنجنيق عبارة عن مقلاع كبير يتكون من قاعدة خشبية فى وسطها عمود، فى أعلاه ذراع تتحرك إلى أعلى وأسفل، ويتدلى منها صدوق يملأ بالحجارة أو السهام أو الخرق المبلولة بالزيت بعد إحراقها ، يتم قذفها إلى مسافات بعيدة بواسطة تحريك الذراع الخشبية. وينسب المؤرخون هذا السلاح إلى الفرس. (١٠)

٩- رأس الكبش : عبارة عن جذع عظيم من شجر السنديان، ينحت أحد طرفيه على شكل رأس كبش، وله طرف حديدى مدبب، يعلق فى برج من الخشب المنصوب على دواليب ضخمة. يتم دفع الجذع بقوة تجاه السور المراد اقتحامه عدة مرات حتى تفتح فيه ثغرة يقتحم المهاجمون منها المدينة. (١١)

وقد ورد ذكر هذا السلاح فى سفر حزقيال (٢١/ ١٧) عندما أتى به «نبوخذ نصر» ملك بابل إلى أورشليم لاجتياحها.

١٠- الخوذة : إحدى المعدات الوقائية الدفاعية، وقد عرفت الخوذة منذ العصر البرونزى الأول، وساهمت فى تطوير الفأس كسلاح للقطع والطعن. (١٢)

وقد اختلفت أشكال الخوذة ومواد صنعها من أمة إلى أخرى، إذ كان الكنعانيون يلبسون خوذة معدنية ذات شكل مستدير تغطى الرقبة من الخلف، إلا أنها تكشف الأذنين، واختار الآسيون خوذة مغطاة بالريش أو الجلد، وكانت خوذة الحثيين ذات ضفيرة طويلة مع حماية للرقبة. (١٣)

وفى عصر الممالك العبرية (العصر الحديدى) عُرفت أشكال مختلفة من الخوذ، حيث اتخذ الفلسطينيون لمقاتليهم خوذة مزينة بعرف من الريش يشبه عرف الديكة، واتخذ آخرون خوذة ذات قرون أو ذات أقراص وقرون. (١٤)

ويصف لنا سفر صموئيل الأول خوذة «جليات» الفلسطينى بأنها كانت «من نحاس» (٥/١٧)، كما كانت خوذة داود أيضاً من «نحاس». (صموئيل الأول ٣٨/١٧)

ولقد جهز «عزيا» ملك يهوذا جيشه البالغ عدده أكثر من ثلثمائة ألف مقاتل بالأتراس والرماح والخوذ والدروع والقسى وحجارة المقاليع (أخبار الأيام الثانى ١٤/٢٦) فى الوقت الذى كان أعداؤه من الفلسطينيين يعتمرون خوذاً يعلوها ريش.

١١- العصا : وهى وسيلة بدائية من وسائل القتال، ذكرها النبى إشعياء فى مواضع متعددة من سفره (٥/١٠، ١٥....)

١٢- المنطقة : وهى حزام يطوق به المحارب خصره، يدلى منه سيفه إلى جهة اليسار كى يكون فى متناول يده اليمنى عندما يشرع فى القتال. وقد ذكرت المنطقة ضمن معدات «يوناثان» التى أعطاها لدواد. (صموئيل الأول ٤/١٨)

١٣- المركبة : أهم وأخطر معدات القتال عند الأمم القديمة، عرفتها معارك العصر البرونزى الأول حيث استخدمها المصريون فى قتالهم (خروج ٧/١٤)، كما كانت مراكب الكنعانيين الحديدية سبباً فى هلع بنى إسرائيل (قضاة ٣/٤)، وكانت كذلك مصدر قلق ليشوع فى معاركه ضد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والحويين. (يشوع ٤/١١)

وللمركبة ميزتان أساسيتان تحققهما للمقاتل وهما : الثبات والسرعة، وكانت المركبة تسير - فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد - على عجلتين، ثم على أربع، ويجرها زوجان من الخيل.(١٥) وقد مرت بمراحل مختلفة من التطوير لملاءمة كل زمن وعصر.

وعرف الفلسطينيون المركبات واستخدموها قبل أن تصل إلى أيدى بنى إسرائيل، وكانت مركباتهم تسير على ست عجلات وتحمل طاقماً من ثلاثة مقاتلين مسلحين بالمزاريق، الأمر الذى شكل صعوبة بالغة لبنى إسرائيل كى يتمكنوا من طرد أعدائهم المسلحين بهذا النوع الفعال من معدات القتال. (قضاة ١/ ٩ -١٩؛ ٤/ ١٢- ١٦)

وأول من استعمل المركبات فى تاريخ بنى إسرائيل الحربى هو الملك داود، وقد استطاع الحصول عليها بعد أن تغلب على «هدد عزر بن رحوب» ملك صوبة، واستولى على مائة مركبة من مركباته. (صموئيل الأول ٨/ ٤)

أما فى عصر سليمان، فقد شكلت المركبات عنصراً هاماً من عناصر التسليح الإسرائيلى، إذ يخبرنا العهد القديم بما كان لسليمان منها : «وجمع سليمان مراكب وفرساناً، فكان له ألف وأربعمائة مركبة...». (ملوك أول ١٠، ٢٦)، بل وأقام لها مدناً خاصة بها، وجعلها قريبة منه فى أورشليم. (أخبار الأيام الثانى ٩/ ٢٥)

ولما كان الخيل عنصراً أساسياً لاستخدام المركبة، فقد لجأ الإسرائيليون - حيث لم يتمكنوا من تصنيع المركبة ذاتها - إلى الاتجار فى الخيل : «وكان مخرج الخيل التى لسليمان من مصر، وجماعة تجار الملك أخذوا جليبة بثمن، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من الفضة، والفرس بمئة وخمسين، وهكذا الجميع : ملوك الحثيين وملوك آرام كانوا يخرجون عن يدهم». (ملوك أول ١٠/ ٢٨- ٢٩)

ويركز العهد القديم على استخدامات المركبة فى المعارك المذكورة فيه أكثر من أى وسيلة أخرى، فقد استخدمها ملك آرام (٨٦٠ - ٨٤٣ق.م) فى حصاره للسامرة (ملوك أول ٢٠/ ١)، واستخدامها فى قتاله ضد «آحاب» ملك إسرائيل فى موقعة «راموث جلعاد» الأولى (ملوك أول ٢٢/ ٣١)، وكان جيش «آحاب» مزوداً بهذه المراكب، بل وأصيب «آحاب»

بسهم وهو فى مركبته (ملوك أول ٣٤/٢٢)، كما ذكرت فى الحديث عن معارك الآراميين وحروبهم مع إسرائيل. (ملوك ثان ٧/١٣)

ومن الاستعراض السريع لمعدات القتال عند بنى إسرائيل - على نحو ما أسلفنا - يمكننا استنباط الملاحظات التالية :

١- لم يذكر لنا العهد القديم أى دور حاسم للإسرائيليين فى ابتكار وتصنيع الأسلحة.

٢- التغلب على أسلحة خصوم بنى إسرائيل لم يكن نتيجة مهارات قتالية، وإنما كان لتدخلات ربانية من قبل «يهوه».

٣- استفاد الإسرائيليون من الأجواء العسكرية المحيطة بهم، ونقلوا عن الآخرين أسلحتهم.

٤- اعتمد الإسرائيليون فى توفير معدات القتال المتقدمة - كالمركبات - على ما كانوا يأخذونه من غنائم.

٥- لعب الإسرائيليون دوراً بارزاً في عمليات تسليح الأمم والشعوب عن طريق التجارة، لا عن طريق التصنيع.

الهوامش

١- زكى شنوده، المجتمع اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٥.

٢- Encyclopaedia Judaica, vol, 16. p. 266.

٣- Ibid.

٤- Ibid., pp. 267 - 272.

٥- Ibid. p. 266.

٦- Ibid.

٧- Ibid.

٨- Ibid., p. s 72.

٩- Ibid., pp. 276 - 279.

١٠- ياسين سويد، التاريخ العسكرى لبنى إسرائيل من كتابهم، مرجع سبق ذكره، جـ١ / ١٤٠.

١١- زكى شنوده، المجتمع اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٧.

١٢- Encyclopaedia Judaica, Op. Cit. p. 227.

١٣- Ibid., p. 269.

١٤- Ibid., p. 271.

١٥- Ibid., p. 267.

الفصــل الثالــث

معارك الإسرائيليين فى أسفار العهد القديم

إحصـاءات وأرقـام

يحكى لنا الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قصة أول معركة يخوضها أول عبرانى، وهى معركة «أبرام» العبرانى (= ابراهيم) مع تحالف ضم بعض ملوك عصره، وهى قصة لا تخلو من الطابع الأسطورى الذى يصعب التفريق والتمييز فيه بين عناصر الحقيقة وشطحات الخيال.

فلقد كان الصراع بين تحالفين كبيرين آنذاك، ضم الأول منهما ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع، بينما ضم الثانى ملوك عيلام وجوييم وشنعار وألاسار. ودارت المعركة فى عمق السديم الذى ضم آبار حمر كثيرة، حيث انهزم التحالف الأول، واستولى المنتصرون على أملاكهم التى كان من بينها أملاك لوط بن أخى أبرام - وكان يعيش فى سدوم - بل تم أسر لوط نفسه ومن معه من أهله وشعبه.

ولما علم أبرام بما حدث، جمع حوله ثلاثمائة وثمانية عشر من أهل بيته وتبع تحالف الأعداء - الذى ضم على نحو ما ذكرنا - أربعة ملوك «وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسّرهم وتبعهم إلى حوبة التى عن شمال دمشق، واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب». (تكوين ١٤/١٥- ١٦)

وعاد الملوك المنهزمون، وبارك ملك شاليم - وكان كاهناً لله العلى - أبرام، وعرض ملك سدوم على أبرام كل الأملاك التى استرجعها من الأعداء، لكن أبرام يرفض حتى أخذ «خيط أو شراك نعل» مقابل قتاله وانتصاره.

ولا تذكر لنا القصة سبب القتال الرئيسى بين التحالفين الكبيرين. ولكننا يمكن أن نستخلص من الرواية السابقة عناصر هامة هى :

١- لم تكن معركة أبرام «عدوانية» على الإطلاق، بل كانت تهدف إلى استرداد ما أخذ بالقوة من أهله وممتلكاتهم.

٢- لم تذكر لنا التفاصيل أية «تجاوزات» من قبيل ما أوردته نصوص المعارك فيما بعد من ذبح وقتل وإبادة وتدمير وحرق.

٣- رفض أبرام «الارتزاق» من وراء العمل العسكرى الناجح الذى قام به.

لكننا نتساءل عن صدق وواقعية المعركة من حيث التكافؤ بين القوات، فهل يعقل أن ينتصر ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً على تحالف أربعة ملوك، لهم دويلاتهم وقواتهم واستعداداتهم وخبراتهم فى الحروب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه المعركة لم تكن قد حظيت بعد بمشاركة إله العبريين «يهوه» فيها ولا بتأييده ودعمه الذى توالى فى معارك الإسرائيليين فيما بعد ؟!

فلو سلمنا بواقعية المعركة العبرانية الأولى وتاريخيتها، لا يسعنا إلا الإقرار بمشروعيتها وأخلاقيتها، وهى نموذج، ربما لم يتكرر فى التاريخ العسكرى الإسرائيلى حتى يومناهذا.

ثم تأتى قصة أبناء يعقوب - فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين - مع «شكيم» وأبيه «حمور»، وهى ليست معركة أو حرباً، لأن مفهوم «المقاتلة» أو «المحاربة» يستلزم وجود طرفين متقاتلين متحاربين، وهذه كانت من جانب واحد. ربما كان الأنسب تسميتها «مجزرة» لا «معركة»، لأن أحد طرفيها - المعتدى (بكسر الدال) - لم يخض حرباً أو قتالاً، والطرف الثانى - المعتدى عليه - لم يقاوم، بل لم يأخذ أهبة الاستعداد، ولم يعلم بالحرب، فقد «أتيا شمعون ولاوى - ابنا يعقوب - على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف». حدث هذا كله بينما كان رجال المدينة يتوجعون من آلام الختان على كبر، نزولاً على رغبة أبناء يعقوب، حتى يتم التزاوج بينهما.

وهكذا نجد هذه الواقعة - على عكس واقعة أبرام السالفة - عدوانية بربرية، ولا يمكن ضمها فى قائمة المعارك والحروب التى يمكن التحدث عن استراتيجية واضحة لها سوى رغبة وشهوة الانتقام التى جاءت فى غير أوانها، الأمر الذى أدركه يعقوب فقال لولديه : «كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض : الكنعانيين والفرزيين، وأنا نفر قليل، فيجتمعون علىّ ويضربون فأبيد أنا وبيتى». (تكوين ٣٤/ ٣٠)

وفى أول الشهر الثانى من السنة الثانية للخروج الإسرائيلى من مصر، تبدأ بوضوح الاستعدادات الإسرائيلية للحرب بالوقوف على الإمكانيات البشرية، وذلك من خلال الأمر الإلهى بإحصاء عدد المحاربين، وتلك خطوة هامة - فى رأينا - تمثل منعطفاً خطيراً فى التأريخ الإسرائيلى، إذ تعكس بداية مرحلة جديدة فى حياة هؤلاء الخارجين من مصر :

> «وكلم الرب موسى فى برية سيناء فى خيمة الاجتماع فى أول الشهر الثانى فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً : أحصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء، كل ذكر برأسه. من ابن عشرين سنة فصاعداً، كل خارج للحرب فى إسرائيل». (عدد ١/١-٣).

وتم الإحصاء بالفعل :

> «وكان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين» من ابن عشرين سنة فصاعداً، كل خارج للحرب فى إسرائيل (عدد ١/ ٤٤ - ٤٥).

ويشهد الإصحاح الثانى من سفر العدد عملية توزيع الرايات وتقسيم القوات وتحديد المواقع لبنى إسرائيل.

عندما كان الإسرائيليون فى سيناء يجتازون البرية فى اتجاه تحقيق الهدف المنشود : احتلال أرض فلسطين، أرادوا المرور من بلاد «سيحون» ملك الأموريين بسلام، لكن سيحون رفض، واستعد للقاء إسرائيل فى «ياهص». ووقع القتال بين سيحون وإسرائيل «فضربه إسرائيل بحد

السيف، وملك أرضه من أرنون إلى يبوق إلى بنى عمون ... فأخذ إسرائيل كل هذه المدن وأقام إسرائيل فى جميع مدن الأموريين فى حشبون وفى كل قراها». (عدد ٢١/٢٤ - ٢٦)

ويبدو أن شهية الإسرائيليين قد انفتحت لضم المزيد من الأرض بعد تلك المعركة، فكان اللقاء الحربى الثانى بين موسى وقومه من جانب، وبين «باشان» بقيادة ملكها «عوج» من جانب آخر.

وهنا يبدأ أيضاً الدعم الإلهى، وتبدأ الإبادة الجماعية للأعداء :

«فقال الرب لموسى : لا تخف منه (من عوج ملك باشان) لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه. فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن فى حشبون، فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد، وملكوا أرضه». (عدد ٢١/٣٤- ٣٥)

تغيير تام فى العقيدة العسكرية الإسرائيلية : إمداد إلهى ... إبادة للخصم ... احتلال للأرض، دون وجود سبب يدفع موسى ومن معه إلى هذا التغيير الحاد فى العقيدة العسكرية لديهم.

ثم يبدأ موسى فى إعداد قومه لحروب طويلة الأمد، وذلك من خلال تعبئة عامة ودائمة لا تنتهى إلا بتحقيق الهدف : امتلاك الأرض، لنيل رضا الرب :

«فقال لهم موسى : إن فعلتم هذا الأمر، إن تجردتم أمام الرب للحرب وعبر الأردن كل متجرد منكم أمام الرب حتى طرد أعداءه من أمامه، وأخضعت الأرض أمام الرب، وبعد ذلك رجعتم، فتكونون أبرياء نحو الرب ومن نحو إسرائيل، وتكون هذه الأرض ملكاً لكم أمام الرب. ولكن إن لم تفعلوا هكذا فإنكم تخطئون إلى الرب وتعملون خطيتكم التى تصيبكم». (عدد ٣٢/ ٢٠ -٢٣)

هذه المعارك الإسرائيلية المحدودة التى خاضها الخارجون من مصر مع موسى، كانت بمثابة مرحلة إعداد لحروب متتالية شرسه، خاضها هؤلاء القوم بعد ذلك، حتى أصبحت «الحرب» سمة بارزة تميز تاريخهم، حرب مع الأعداء، وحرب بين الأشقاء.

وبهذه البدايات العسكرية تتضح معالم المرحلة المقبلة من تاريخ بنى إسرائيل الحربى : مدد ودعم إلهى، إبادة تامة، احتلال للأرض.

وفى معارك يشوع تتجسد الملامح الحقيقية للعسكرية الإسرائيلية، وسوف نعنى هنا بإحصاء معاركه وحروبه حسبما وردت فى سفره.

يرى المؤرخون أن معارك يشوع هى حملة عسكرية قام بها بدو إسرائيليون، وقد قامت هذه النظرية على أساس الافتراض بأن تدمير ثقافة الدول المدينية فى العصر البرونزى المتأخر، وإنشاء ثقافة العصر الحديدى، قد نتج عن التدخلات الحربية للقبائل البدوية. (١)

كما يرى Hobbs (٢) أن معارك يشوع تستلزم ما يلى :

١- وجود نظام مركزى سياسى قيادى تحت ريادة يشوع.

٢- وجود استراتيجية عامة واضحة متفق عليها، وهى بالتحديد : الغزو المنظم لكنعان.

٣- وجود الدافع الجماعى، أو بالتحديد : سياسة «كل إسرائيل» القومية.

ومن هذه المنطلقات كانت حروب يشوع التالية :

١- محاربة «أريحا» وإبادتها تماماً هى ومن فيها بدعم من الرب واحتلال أرضها. (يشوع/٦)

٢- محاربة «عاى» وإبادة أهلها ونهب ما فيها واحتلال أرضها. (يشوع/ ٨)

٣- محاربة ملوك الأموريين الخمسة : ملك أورشليم وملك حبرون وملك برموت وملك لخيش وملك عجلون، بمشاركة من إله إسرائيل، وإفنائهم واحتلال بلادهم. (يشوع/ ١٠)

٤- محاربة «مقيدة» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٢٨).

٥- محاربة «لبنة» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٢٩ - ٣٠).

٦- محاربة «لخيش» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٣١ - ٣٢).

٧- محاربة «جازر» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٣٣).

٨- محاربة «عجلون» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٣٤ - ٣٥).

٩- محاربة «حبرون» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٣٦ - ٣٧).

١٠- محاربة «دبير» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١٠/ ٣٨- ٣٩).

١١- محاربة «حاصور» وإبادة كل نفس فيها واحتلالها. (يشوع ١١/ ١٠ - ١٧).

١٢- محاربة «العناقيين» فى حبرون ودبير وعناب وجبل يهوذا وجبل إسرائيل وإبادتهم والاستيلاء على مدنهم. (يشوع ١١/ ٢١).

تلك قائمة حروب يشوع ونتائجها، ولكن هناك نتيجة سلبية للغاية، كانت بمثابة الانحراف العقدى الأكبر فى تاريخ بنى إسرائيل، ألا وهى عبادة آلهة هذه الشعوب والأمم التى حاربها الإسرائيليون، والتى حذرهم منها يشوع فى أواخر حياته. (يشوع ٣٤/ ١٤، ٣٣)

السلسلة التالية من المعارك الإسرائيلية جاءت فى سفر القضاة، وتعكس ملامح عسكرية تميزها عن غيرها أبرزها :

١- الثقة فى وجود قائد محلى معروف، ليس أجنبياً أو غريباً.

٢- التكنيك ليس معقداً، وليس هناك أيضاً مجال لاستراتيجية كبرى.

٣- عدد المحاربين ليس كبيراً، وكذلك عدد الوحدات المقاتلة.

٤- تأثير التكنيك القتالى بما ألفه المقاتلون من التضاريس والأراضى.

٥- حروب القضاة ليست دفاعية على الإطلاق.

٦- عدم وجود قوة مركزية ذات سلطات تمكنها من فرض الخدمة العسكرية، على نحو ما نجد فيما بعد فى عصر الملكية.

٧- تعتمد قوات عصر القضاة فى تنظيمها العسكرى على النظام العشرى (أى مضاعفات العشرة).

أما أهم الحروب الواردة فى سفر القضاة :

١- محاربة يهوذا لبازق وضربهم للكنعانيين والفرزيين. (قضاة ١/٤ - ٥).

٢- محاربة يهوذا لأورشليم وحرقها بالنار وإبادة من فيها. (قضاة ٨/١)

٣- محاربة يهوذا وضربهم لشيشاى وأخيمان وتلماى، وهم كنعانيون كانوا يسكنون فى حبرون. (قضاة ١/ ١٠)

٤- محاربة يهوذا لدبير وضربها واحتلالها. (قضاة ١١/١)

٥- محاربة يهوذا وشمعون لسكان صفاة وإبادتها وتغيير إسمها. (قضاة ١/ ١٧)

٦- محاربة يهوذا لغزة وما حولها وأشقلون وما حولها وعقرون وما حولها بدعم إلهى، والاستيلاء عليها جميعاً. (قضاة ١٨/١ - ١٩)

٧- محاربة أبناء يوسف لبيت إيل (والرب معهم) وإبادتها والاستيلاء عليها. (قضاة ٢٢/١- ٢٥)

٨- محاربة منسى لبيت شان وقراها وتعنك وقراها ودور وقراها ويبلعام وقراها ومجدو وقراها، ومشاركتهم لهم فى أرضهم. (قضاة ١/ ٢٧)

٩- محاربة زبولون لقطرون ونهلول ومشاركتهم لهم فى أرضهم. (قضاة ١/ ٣٠)

١٠- محاربة أشير لعكا وصيدون وأحلب وأكريب وحلبة وأفيق ورحوب، ومشاركتهم لهم فى أرضهم. (قضاة ٣١/١)

١١- محاربة نفتالى لبيت شمس وبيت عناة ومشاركتتهم لهم فى أرضهم. (قضاة ٣٣/١)

الحروب السابقة - وإن ذكرت فى سفر القضاة - فإنها قد وقعت قبل حكم القضاة، وذكر معظمها من قبل، باستثناء خبر استيلاء يهوذا على غزة وعسقلان وعقرون - وهو ما لم يرد

ذكره فى سفر يشوع - وأما ما ورد فى سفر القضاة (١/١) عن موت يشوع فهو غير صحيح، والمقصود هو موت موسى، ويؤكد ذلك خبر موت يشوع الذى ورد فيما بعد،، فى القضاة (٨/٢). (٣)

أما ما استجد من حروب ومعارك خاضها قضاة بنى إسرائيل وحكامها فكان على النحو التالى :

١- محاربة «إهود» لموآب واحتلال بنى إسرائيل لمخاوض الأردن. (قضاة ٣/ ٢٨- ٢٩)

٢- محاربة «شمجر بن عناة» للفلسطينيين وقتله لستمائة منهم بمنساس البقر. (قضاة ٣/٣١)

٣- محاربة «باراق» - بدعم إلهى ونبوى من قبل دبورة النبية - لسيسرا الكنعانى وجيشه الذى ضم تسعمائة مركبة من حديد، وسقوط جيش سيسرا كاملاً أمام باراق. (قضاة ٤/١٠- ٢٤)

٤- محاربة «جدعون» للمديانيين عند «تل مورة» فى الوادى والاستيلاء على مصادر المياه التى كانت بحوزتهم. (قضاة ٧/٢١ - ٢٥)

٥- محاربة «جدعون» لزبح وصلمناع والانتصار عليهما (قضاة ٨/١٠ - ١٢) وقتل جميع رجال مدينة «سكوت». (قضاة ٨/١٧)

٦- محاربة «أبيمالك» لأهل شكيم وضربهم وهدم المدينة. (قضاة ٩/٤٣ - ٤٥)

٧- محاربة «أبيمالك» لبرج «تاباص» والاستيلاء عليه. (قضاة ٩/ ٥٠)

٨- محاربة «يفتاح» الجلعادى لبنى عمون فى عشرين مدينة وضربهم. (قضاة ١١/٣٢-٣٣)

٩- حرب أهلية بين «يفتاح» و«إفرايم» وانتصار الأول. (قضاة ١٢/٤)

١٠- محاربة سبط «دان» لمدينة «لايش» وأهلها من الصيدونيين واحتلالها كى يتملكوا أرضها، إذ لم يكن لهذا السبط ملك للسكنى، وإحراق المدينة بالنار، وضرب أهلها بحد السيف، وتغيير معالم المدينة وبناء أخرى عليها. (قضاة ١٨)

١١- حرب أهلية بين بنى إسرائيل وبنى بنيامين فى «جبعة» وقتل ما يقرب من ٤٥ ألفاً. (قضاة / ٢٠)

١٢- محاربة بنى بنيامين لسكان «يابيش» وقتل كل من فيها من الذكور والنساء المتزوجات والأطفال بهدف الاستيلاء على العذارى للزواج منهن. (قضاة ٢١/ ١٠ - ١٢)

وبتحليل معارك وحروب سفر القضاة يمكن الوقوف على بعض السمات التى تميزها عن غيرها من الحروب السابقة، ونوجزها فيما يلى :

١- التعامل مع آليات حرب لم تكن معهودة من قبل كالمركبات الحديدية التى كانت بحوزة سكان الوادى من الكنعانيين (قضاة ١/ ١١)، مما أدى إلى تغيير فى السياسة الإسرائيلية تمثل فى :

(أ) الإبقاء على سكان المدن المفتوحة والتعايش معها (قضاة ١/ ١٩، ٢١، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١ - ٣٢، ٣٣، ٣٥).

(ب) فرض الجزية على هؤلاء الخاضعين للغزو الإسرائيلى (قضاة ١/ ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٥)

٢- استمرارية الدعم الإلهى لبنى إسرائيل وانسحابه عنهم كلما وقعوا فى المعاصى والآثام والشرك (قضاة ٢/ ١١ - ١٤، ٢١- ٢٣؛ ٣/ ١٢ - ١٣؛ ٤/ ١ - ٢؛ ٦/ ١، ١٦)

كما يلاحظ كذلك على حروب القضاة استمرارية بعض ملامح معارك وحروب يشوع مثل :

١- استمرارية سياسة احتلال أرض الكنعانيين. (قضاة ١/ ١ .....)

٢- التمثيل بالملوك. (قضاة ١/ ٦- ٧)

٣- سياسة إبادة المدن المفتوحة. (قضاة ١/ ١٧، ٢٥؛ ١٨/ ٢٧ - ٢٨)

٤- استمرارية بعض تكنيك معارك يشوع مثل : إزعاج الخصم وتخويفه. (قضاة ٧/ ١٥- ٢٣)

والجديد فى معارك سفر القضاة أنها لم تعد قاصرة على قتال الأعداء، بل تحولت تلك الطاقة القتالية التى نمت فى الشخصية الإسرائيلية وأصبحت موجهة نحو الأشقاء، فشهدت

تلك الفترة من تاريخ بنى إسرائيل حروباً أهلية ضارية (قضاة ١٢/٤؛ ٢٠...)، كما شهدت بعض العمليات الانتحارية على نحو ما وجدنا فى قصة شمشون. (قضاة ١٦/٢٣- ٣١)

وهناك تحفظات - كذلك - حول المصداقية التاريخية لبعض المعارك التى وردت فى سفر القضاة. (٤)

وبظهور - النبى صموئيل، تبدأ مرحلة أخرى من الصراع، يشكل الفلسطينيون فيه جانباً رئيسياً. ويطالعنا الإصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول بانكسار إسرائيل أما الفلسطينيين عند «حجر معونة»، ومقتل أربعة آلاف منهم. (٤/١- ٢)

وكان اللقاء العسكرى الثانى بين الجانبين فى «شيلوه»، وانهزم الإسرائيليون وقتل منهم ثلاثون ألفاً، وتم الاستيلاء على «تابوت الرب».

هذه الافتتاحية المأساوية للعلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هى التى رسمت أحداث السفر بأسره.

وتدور الدائرة على الفلسطينيين. فمع خوف الإسرائيليين الدائم من الفلسطينيين (صموئيل الأول ٧/٧)، يتدخل الإله بنفسه فى مجريات المعارك، لينتصر الإسرائيليون على أعدائهم فى «المصفاة» (٧/١١)، واستطاع بنو إسرائيل استرداد ما سلبه الفلسطينيون من مدنهم، وتصالح الإسرائيليون آنذاك مع العموريين. (٧/١٣- ١٤)

ويؤدى التطور السياسى الذى حل ببنى إسرائيل إثر تنصيب شاؤل ملكاً عليهم إلى نشاط عسكرى ملحوظ، انعكس فى البداية على رفض شاؤل لشروط «ناحاش» العمونى القاسية التى أراد أن يفرضها على «يابيش جلعاد» ليستعبد أهلها من الإسرائيليين (صموئيل الأول ١١/١ - ١٠) ثم ضربه للعمونيين وتفريق شملهم وتشتيتهم. (١١/١١)

ويعتدى «يوناثان» - أحد قادة شاؤل فى «جبعة بنيامين» - على الفلسطينيين هو وزمرة معه (١٣/٣)، ويجتمع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل فى «مخماس» شرقى «بيت أون»، وعقدة الخوف الإسرائيلى من الفلسطينيين مازالت قائمة. (١٣/٦؛ ١٤/١١)

وتدخل الرب، وأرعد الأرض من تحت أقدام الفلسطينيين (١٥/١٤)، ليتفرغ الإسرائيليون للنهب.

ويواصل شاؤل - القائد الإسرائيلي العسكري المحنك - نشاطه العسكري المدعم من الرب، ويحارب أعداءه في «موآب» و«بني عمون» و«أدوم» و«صوبة» والفلسطينيين، وينتصر على الجميع. (١٧/١٤)

وتستمر الحرب سجال بين شاؤل والفلسطينيين.

ويقاتل الإسرائيليون بقيادة شاؤل العماليق ويبيدون مدينتهم إبادة تامة (١٥/٨-٩) باستثناء ما استحسنه الإسرائيليون من غنائم.

ويتقابل الخصمان اللدودان مرة أخرى في «سوكوه»، ويسيطر الخوف على قلوب الإسرائيليين (١٧/١٤، ٢٤)، لكن داود يقتل «جليات» الفلسطيني بحجر ثم يقطع رقبته (١٧/٤٩ - ٥١)، وينهزم الفلسطينيون، وينهبهم الإسرائيليون. (١٧/٥٣)

ويبرز داود على الساحة كخصم لدود للفلسطينيين، وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع بين الإسرائيليين بقيادة داود، والفلسطينيين.

ويضرب داود الفلسطينيين ضربة عظيمة (١٩/٨)، ويعاودوا الكرة عليهم في «قعيلة» ويستولي على مواشيهم. (٢٣/٥)

ونتيجة الصراع السياسي بين شاؤل وداود، يضطر الأخير إلى «اللجوء السياسي» إلى الفلسطينيين، ويذهب داود هو وستمائة رجل معه إلى «أخيش بن معوك» ملك «جت»، ويقيم عنده سنة وأربعة أشهر (صموئيل أول ٢٧/١ - ٨)

ويخوض داود ورجاله حرباً جديدة يغزو خلالها أرض «الجشوريين والجرزيين والعمالقة»، ويعود منتصراً إلى «أخيش» (٢٧/٩)، ويواصل نشاطه العدواني منطلقاً من «بلاد الفلسطينيين». (٢٧/١١)

ويعود الصراع - الذي توارى قليلاً - بين الفلسطينيين بقيادة «أخيش» من جانب، والإسرائيليين بقيادة شاؤل من جانب آخر، ويبدي داود - اللاجئ السياسي - استعداده لمؤازرة

«أخيش» فى حربه ضد بنى إسرائيل (٨/٢٩)، إلا أن أقطاب الفلسطينيين يرفضون ذلك خشية غدر داود وانضمامه إلى قومه فى القتال، مما يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه. (٤/٢٩)

وتتعرض مدينة «صقلع» لغزو العمالقة الذين أحرقوها بالنار «وسبوا النساء اللواتى فيها» (صموئيل أول ١/٣٠)، وكان من بينهن امرأتا داود نفسه. (٥/٣٠)

وهنا يشن داود حملة عسكرية مفاجئة على أعدائه، ليضربهم عن بكرة أبيهم «واستخلص داود كل ما أخذه عماليق، وأنقذ داود امرأتيه». (١٨/٣٠)

ويعاود الفلسطينيون الكرة - فالحرب سجال - ويقاتلون بنى إسرائيل بقيادة شاؤل، ويلحقون بهم هزيمة نكراء، ويصاب شاؤل، ثم يقتل نفسه، ويهرب الإسرائيليون، ويسيطر الفلسطينيون، وتطوى صفحة من صفحات الحروب الفلسطينية - الإسرائيلية. (١/٣١- ٧)

ويتملك داود رسمياً على بيت يهوذا (صموئيل الثانى ٣/٢)، ويبدأ صراع داخلى بين ورثة شاؤل وأتباع داود. ويتم تنصيب «ايشبوشت» بن شاؤل ملكاً على إسرائيل كلها (صموئيل الثانى ٩/٢)، بينما اتبع بيت يهوذا داود. (١٠/٢)

وكان قتال أهلى بين رجال إسرائيل وداود (١٧/٢، ٢٣، ٣٠..)، وطال أمد الحرب بين الأشقاء (١/٣)، واستعرت الحرب الأهلية، ونشطت عمليات الاغتيال (٢٢/٣- ٣٠؛ ٤/٤-٨، ...)

ويفيق داود بعد استقرار ملكه، ويعود لمحاربة الفلسطينيين ويضربهم فى «بعل فراصيم» (٥/ ٢٠)، ثم يواصل الفلسطينيون إزعاجهم لداود، ويضع له الرب خطة قتالهم، فيضربهم ويهزمهم إلى مدخل «جازر». (٢٤/٥)

ويعود داود ليضرب الفلسطينيين مرة أخرى، دون إبداء أسباب القتال. (١/٨)

ويضرب الموآبيين ويقتل فريقاً ويستحيى فريقاً آخر. (٢/٨)

ويضرب - كذلك - «هدد عزر بن رحوب» ملك «صوبة»، ويأسر منه ألفاً وسبعمائة فارس وعشرين ألف راجل، ويعرقب خيول مركباته ويستولى على مائة منها». (٤/٨)

ويتدخل «أرام» دمشق لنجدة «هدد عزر»، لكن داود يضرب من «أرام» اثنين وعشرين ألف رجل، ويستعبد الآراميين. (٨/٥-٦)

ويواجه داود جبهة قتال جديدة من قبل بنى عمون وحلفائهم، لكن الإسرائيليين يتفوقون على أعدائهم جميعاً. (١٠/١٥)

كما يحارب «أرام» فى «حيلام» ويكسر شوكتهم، ويستولى داود على سبعمائة مركبة وأربعين ألف فارس، ويقتل قائد جيش «أرام». (١٠/١٧- ١٨)

ويقاتل «ربة بنى عمون» ويستولى على مدينة المياه (١٢/٢٦- ٢٧)، ويقوم بإحراق وإبادة كل سكان مدن «بنى عمون». (١٢/٣١)

وتبرز لنا صفحة سوداء فى تاريخ الصراع الأهلى الإسرائيلى بين داود وابنه «ابشالوم»، إذ يسعى الأخير إلى «قلب نظام الحكم» والاستيلاء على العرش، ويتحاشى داود قتاله، لكنه ينتصر عليه فى النهاية (١٨/٦- ١٨)، ويسقط الآلاف من القتلى، وتستقر الأمور بعض الشئ لداود الذى لايلبث أن يعود إلى حروبه مع الفلسطينيين. (صموئيل الثانى ٢١/١٥، ١٨، ١٩، ٢٠)

وهكذا يمكن أن نلاحظ على حروب سفرى صموئيل ما يلى :

١- الطابع اللاهوتى المميز لهذه الحروب. فشاؤل يستخير الرب فى حربه ضد الفلسطينيين (صموئيل الأول ١٤/٣٧)، وتبدأ عبارة «رب الجنود» فى الظهور على مسرح القصص الحربى (صموئيل الأول ١٥/٢)، كما يظهر مصطلح «حروب الرب» كثيراً بصيغه المختلفة (صموئيل الأول ١٧/٤٧؛ ١٨/١٧؛ ٢٥/٣٨ ....؛ صموئيل الثانى ٥/١٩).

٢- استمرارية الدعم الإلهى لحروب إسرائيل. (صموئيل الأول ١٧/٤٧؛ صموئيل الثانى ٥/١٩)

٣- استمرارية سياسة الإبادة التامة سواء تجاه العدو. (صموئيل الأول ١٥/٣. ٢٧/ ١٠)، أو فيما بين بنى إسرائيل أنفسهم. (صموئيل الثانى ٤/١٣)

٤- سيطرة عقدة الخوف على الإسرائيليين من الفلسطينيين، وبروزها خلال مراحل الصراع المختلفة (صموئيل الأول ١٧/١١؛ ٢٨/٥؛ ٣١/١)

٥- استعباد الخصوم فى حالة إبرام الصلح معهم. (صموئيل الثانى ١٠/١٩)

أما معارك وحروب سفرى الملوك فلها طابع مميز، إذ يغلب عليها طابع الحروب الأهلية والصراع على السلطة، وإن كان هناك - بالطبع - معارك بين بنى إسرائيل والدول والشعوب المجاورة.

أولاً : حروب الإسرائيليين مع الشعوب المجاورة :

يقدم لنا سفر الملوك صورة موجزة اللغة، واسعة الدلالة لما آل إليه ملك سليمان : «وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر». (ملوك أول ٤/٢١)

ومن الطبيعى أن يكون هذا الملك المترامى الأطراف قد تم عن طريق بسط نفوذ سليمان بالحروب، كما أنه من الطبيعى - كذلك - أن تكون الحروب عاملاً رئيسياً فى حياة سليمان للمحافظة على هذا الملك، وإن كنا لا نتوقع أن تكون هذه الحروب على نحو ما كانت عليه فى عهد داود أبيه وبخاصة إن سليمان قد فاقت حكمته «حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر». (ملوك أول ٤/ ٣٠)

فقد اتسم عهد سليمان بتسخير الأمم والشعوب التى لم يستطع بنو إسرائيل حتى عصره أن يبيدوا أهلها إبادة تامة : «جميع الشعب الباقين من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين ليسوا من بنى إسرائيل. أبناؤهم الذين بقوا بعدهم فى الأرض، الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرموهم (= يبيدوهم)، جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى هذا اليوم». (ملوك أول ٩/ ٢٠- ٢١)

ومن أشهر خصوم سليمان الأجانب كان «هدد» الأدومى، الذى هرب وهو غلام صغير إلى مصر من بطش «يوآب» وكل إسرائيل، الذين ظلوا فى «أدوم» ستة أشهر يبيدون كل ذكر

فيها. (ملوك أول ١١/٤- ١٧). وكذلك كان «رزون بن أليداع»، الذى قتل داود أتباعه، وفر إلى دمشق حيث ملكها.

أما حروب الإسرائيليين بعد سليمان، فنجد أشهرها فى عهد «آحاب» ملك إسرائيل ضد «بنهدد» ملك أرام الذى استطاع أن يضرب «بنهدد» وجيشه ومركباته ضربة عظيمة (ملوك أول ٢٠/٢١)، إلا أن «بنهدد» عاد مرة ثانية بعد عام واحد ليحارب إسرائيل مرة أخرى، واستطاع الإسرائيليون أن يضربوا من الآراميين مائة ألف، بينما هرب الباقون، ليسقط سور المدينة على سبعة وعشرين ألفاً آخرين (ملوك أول ٢٠/٣٠)، ثم استسلم «بنهدد» لـ «آحاب»، الذى أطلقه ورد له المدن التى أخذها أبوه من أبيه وقطع له عهداً. (ملوك أول ٢٠/٣٤)

وجدير بالذكر أن خطة حرب الإسرائيليين ضد أرام من حيث اختبار الموقع وتغيير الأمراء والقادة وإعداد الجيش قد تمت بواسطة النبى إيليا. (ملوك أول ٢٠/٢٢ - ٢٥).

وكانت هدنة بين ملك «أرام» وملك إسرائيل لمدة ثلاثة أعوام (ملوك أول ٢٢/١)، بعدها بدأ «يهوشافاط» ملك يهوذا يوحى إلى ملك إسرائيل بضرورة احتلال «راموث جلعاد»، وتم التحالف بينهما لتحقيق هذا الغرض (٢٢/٢- ٤)، وكانت الحرب التى قتل فيها ملك إسرائيل فى نهاية مأساوية للغاية. (ملوك أول ٢٢/٣٣)

وبعد موت «آخاب» منع «ميشع» ملك موآب ما كان يؤديه لآخاب «مئة ألف خروف ومئة ألف كبش بصوفها» (ملوك ثان ٣/٤)، مما دفع «يهورام» إلى إعلان الحرب عليه، والتحالف مع «يهوشافاط» ملك يهوذا ضده. (ملوك ثان ٣/٧)

وبناءً على توجيهات الرب، تم ضرب الموآبيين وهدم مدنهم وتقطيع أشجارهم (٤٣/٢٤- ٢٥)

ويعاود «بنهدد» ملك أرام مضايقاته وتحرشاته ويحاصر «السامرة»، لولا تدخل إله بنى إسرائيل الذى أرعب الأعداء الآراميين وأوهمهم بصوت مركبات وصوت خيل وصوت جيش عظيم، فهربوا - بلا قتال - تاركين وراءهم خيامهم وخيلهم وحميرهم (٧/٧)، وتم نهب محلة الآراميين. (٧/١٦)

وفى السنة الثانية عشرة «ليورام بن آخاب» ملك إسرائيل، ملك «آخزيا بن يهورام» ملك يهوذا، وانطلقا سوياً لمقاتلة «حزائيل» ملك أرام فى «راموت جلعاد»، وضرب «يورام» ورجع إلى «يزرعيل». (٨/٢٥- ١٩)

وعاد «حزائيل» ليضرب إسرائيل «فى جميع تخومها من الأردن لجهة مشرق الشمس، جميع أرض جلعاد : الجاديين والرأوبينيين والمنسيين من عروعير التى على وادى أرنون وجلعاد وباشان». (١١/٣٢ - ٣٣)

وتحول «حزائيل» ملك أرام وحارب «جت» وأخذها وتوجه ليصعد إلى أورشليم لولا أن سارع «يهوآش» ملك يهوذا وقدم الهدايا وأرسلها إلى «حزائيل» فتركه وشأنه. (١٢/١٧ - ١٩)

ثم تمكن «حزائيل» من إسرائيل فى عهد «يهوآحاز بن ياهو»، حتى استطاع «يهوآش بن يهو آحاز» - بعد موت «حزائيل» ملك أرام - من استرداد ما سلبه «حزائيل» من يد ابنه «بنهدد» بعد ثلاث محاولات إسرائيلية عسكرية. (٢٢/٢٣ - ٢٥)

وتحكى لنا النصوص العبرية المقدسة المزيد من حروب وغزوات بنى إسرائيل مع الأمم الأخرى. فبعد انقسام مملكة سليمان إثر موته، «وفى السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شئ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها ...». (ملوك أول ١٤/ ٢٥ - ٢٧)

ويبدو أن احتلال «شيشق» ملك مصر لأورشليم لم يجابه بمقاومة عسكرية إسرائيلية، أى تم الاستسلام الإسرائيلى للمصريين دون قتال، بدليل أن ملك مصر لم يدمر أسوار أورشليم ولم يقتل أحداً، وإنما استعبد الإسرائيليين نتيجة هذا الفتح، وربما ألقى نص سفر أخبار الأيام الثانى مزيداً من التوضيح على قصة هذا الغزو حيث جاء فيه :

«فجاء شمعيا النبى إلى رحبعام ورؤساء يهوذا الذين اجتمعوا فى أورشليم من وجه شيشق وقال لهم : هكذا قال الرب : أنتم

تركتموني وأنا أيضاً تركتكم ليد شيشق. فتذلل رؤساء إسرائيل والملك وقالوا : بار هو الرب، فلما رأى الرب أنهم تذللوا، كان كلام الرب إلى شمعيا قائلاً : قد تذللوا فلا أهلكهم، بل أعطيهم قليلاً من النجاة ولاينصب غضبي على أورشليم بيد شيشق، لكنهم يكونون له عبيداً، ويعلمون خدمتي وخدمة ممالك الأراضي. فصعد شيشق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، أخذ الجميع وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان». (١٢/٥ - ٩)

هكذا لم يهلك الرب شعبه، ولم ينصب غضبه على أورشليم فلم يدمرها «شيشق» وكتب الرب النجاة لشعبه - بنى إسرائيل -، لكنه أراد فى نفس الوقت أن يلقنهم درساً ليعلموا قدره، فجعلهم عبيداً لملك مصر، كى يدركوا الفارق بين عبادة الرب وخدمته، والخضوع للملك والاستعباد له.

ومع أن «بارناقى» و«أهارونى» قد توسعا فى ذكر تفاصيل غزوة «شيشق» وما احتله من مدن إسرائيلية فى هذه الموقعة [٥]، إلا أننا لانجد ما يؤكد ذلك فى نصوص العهد القديم، فقد ورد فقط أن «شيشق» قد «أخذ المدن الحصينة التى ليهوذا، وأتى إلى أورشليم». (أخبار الأيام الثانى ٢٢/٤)

ويورد سفر الأخبار الثانى قصة حرب «يوشيا» ملك يهوذا مع «نخو» ملك مصر، تلك الحرب التى دفع فيها «يوشيا» حياته ثمناً لتحالفه مع الكلدانيين آنذاك.

فقد تولى «نخو» حكم مصر (٦٠٩ - ٥٩٤ ق.م)، وهو ينتمى إلى ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وكان معاصراً لملك يهوذا (٦٠٣ - ٥٧٣ ق.م)، وكان الصراع على أشده وقتئذ بين «نينوى» عاصمة الأشوريين و«بابل» عاصمة الكلدانيين التى بدأت تزداد قوة فى عهد ملكها «نابو بولاصر بن بنوخذ نصر الأول»، الذى بلغ أوج قوته ومجده إثر مصاهرته لملك الميديين «سياكسار» وتحالف معه. وقد خشى فرعون مصر «نخو» من طموح «نابو بولاصر»، وكان

فرعون مصر حليفاً للأشوريين، فسعى لتأييد «أشور أوبالبت» آخر ملوكهم فى صراعه مع البابليين، فأعد لذلك جيشاً توجه به إلى «كركميش» عند الفرات ماراً بغزة وعسقلان لقتال الكلدانيين وحلفائهم، الذين كانوا يزحفون إلى «نينوى». (٦)

ومن هنا كان لابد للملك المصرى أن يواجه ملك يهوذا، ولقد حاول الأول تبيان مقصده من تحركاته، وأخبر «يوشيا» بأنه غير معنى بقتاله، وإنما قد خرج لمحاربة الكلدانيين، لكن «يوشا» أخذته العزة بالإثم، وقاتل الملك المصرى، ودفع حياته فى هذا القتال.

ويحكى لنا سفر أخبار الأيام الثانى قصة هذه المواجهة العسكرية المصرية - الإسرائيلية على النحو التالى :

> «بعد كل هذا، حين هيأ يوشيا البيت صعد نخو ملك مصر إلى كركميش ليحارب عند الفرات، فخرج يوشيا للقائه. فأرسل إليه رسلاً يقول : مالى ولك ياملك يهوذا. لست عليك أنت اليوم ولكن على بيت حربى والله أمر بإسراعى. فكف عن الله الذى معى فلا يهلكك. ولم يحاول يوشيا وجهه عنه، بل تنكر لمقاتلته ولم يسمع لكلام نخو من فم الله بل جاء ليحارب فى بقعة مجدو، وأصاب الرماة الملك يوشيا، فقال الملك لعبيده : انقلونى لأنى جرحت جداً. فنقله عبيده من المركبة وأركبوه على المركبة الثانية التى له وساروا به إلى أورشليم، فمات ودفن فى قبور آبائه ... وأخذ شعب الأرض يهو آحاز بن يوشيا وملكوه عوضاً عن أبيه فى أورشليم، وكان يوآحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم وعزله ملك مصر فى أورشليم وغرم الأرض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب وملك ملك مصر الياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم، وغير اسمه إلى يهوياقيم، وأما يوآحاز أخوه فأخذه نخو وأتى به إلى مصر».
> (٣٥/٢٠- ٢٦: ١/٣٦ - ٤)

وهكذا تتضح لنا أبعاد هذا الصراع المصرى - الإسرائيلى ونتائجه : لم يكن الإسرائيليون مستهدفين من قبل ملك مصر، الذى أعلن نواياه لملكهم «يوشيا»، لكن الأخير لم يكن مقدراً للموقف، وخرج لمحاربة المصريين وقتل فى المعارك. ولم تكن نهاية حياة «يوشيا» هى نهاية هذه الحرب، بل واضح من سياق الأحداث أن المصريين قد سيطروا على يهوذا وأورشليم، وفرضوا عليهم «عقوبات مالية وتعويضات» كما كانت لهم السيطرة السياسية عليهم، بحيث عزلوا يوآحاز ونصبوا أخاه الياقيم ملكاً، وأخذوا يوآحاز أسيراً إلى مصر.

ويروى لنا سفر أخبار الأيام الثانى صفحة أخرى من صفحات حروب يهوذا، وقعت أحداثها فى عهد «آسا» الذى «عمل ما هو صالح ومستقيم فى عينى الرب إلهه» (٢/١٤)، ثم أخذ بأسباب القوة حيث «بنى مدناً حصينة فى يهوذا لأن الأرض استراحت ولم تكن عليه حرب فى تلك السنين لأن الرب أراحه، وقال ليهوذا : لنبن هذه المدن ونحوطها بأسوار وأبراج وأبواب وعوارض... فبنوا ونجحوا. وكان لآسا جيش يحملون أتراساً ورماحاً من يهوذا ثلاث مئة ألف، ومن بنيامين من الذين يحملون الأتراس ويشدون القسى مئتان وثمانون ألفاً. كل هؤلاء جبابرة بأس». (٦/١٤- ٨)

فى ظل هذه الظروف المواتية للانتصارات، حيث الاستقرار الدينى والاستعداد العسكرى وموآزرة الرب وحشد القوات التى زاد عددها على نصف مليون مقاتل (٣٠٠,٠٠٠ من يهوذا، ٢٨٠,٠٠٠ من بنيامين !!)، يخرج «زارح الكوش» فى جيش قوامه المليون (؟!)، وفى ثلثمائة مركبة، ليحارب «آسا» فى مريشه وبالتحديد عند وادى صفاته. (٩/١٤)

ومع أن نصوص العهد القديم لا توضح لنا أسباب الحرب، إلا أنها تركز - كعادتها - على دور الرب من ناحية، ونتائج الحرب من ناحية أخرى.

فكان أن «ضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا فهرب الكوشيون، وطردهم آسا والشعب الذى معه إلى جرار، وسقط من الكوشيين حتى لم يكن لهم حى، لأنهم انكسروا أمام الرب وأمام جيشه، فحملوا غنيمة كثيرة جداً وضربوا جميع المدن التى حول جرار لأن رعب الرب كان عليهم، ونهبوا كل المدن لأنه كان فيها نهب كثير. وضربوا أيضاً خيام الماشية وساقوا غنماً كثيراً وجمالاً، ثم رجعوا إلى أورشليم». (١٢/١٤ - ١٥)

وهكذا قتل بنو إسرائيل «مليونا» (؟!) من الكوشيين، واستولوا على كل ما لهم من غنائم، وبالطبع لنا أن نتوقع. حجم أغنام وماشية مليون مقاتل، وعاد الإسرائيليون إلى أورشليم سالمين غانمين،و دون أن تذكر لنا النصوص حجم خسائرهم، ويبدو أنه لم تكن لهم أية خسائر، لأن الرب هو الذى حارب عن إسرائيل.

وكان للإسرائيليين جولات مع الأشوريين، يقصها علينا سفر الملوك الثانى، وكان الأشوريون قد وطدوا دعائم مملكة قوية فيما بين دجلة والفرات فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وقد تكررت حملاتهم على سوريا آنذاك، وأخذوا يجتاحون مدن مملكتى يهوذا والسامرة وغيرها من المدن الفلسطينية مثل عقرون وأشدود وعسقلان وغزة.

وفى عهد الملك الأشورى «شلمناصر» الثالث (٨٥٨- ٨٢٤ ق.م) قام بعدة حملات موجهة إلى الممالك المجاورة وبخاصة سوريا، حيث تحالف ضده «بنهدد» الآرامى ملك دمشق مع ملك حماة و«آحاب» ملك إسرائيل، بالإضافة إلى ملوك الحثيين والفينيقيين.

وكان يحكم إسرائيل عندما واصل الأشوريون حملتهم ضد التحالف السابق «منحيم بن جادى» الذى «عمل الشر فى عينى الرب» (ملوك ثان ١٥/١٧)، وتلك عبارة تقليدية توحى بنتيجة الحرب، إذ خضعت إسرائيل لأشور، ودفع «منحيم» لملك أشور «ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة فى يده» (١٥/١٩)، وحمل ملك إسرائيل هذه «الإتاوة» لجبابرة البأس فى مملكته، وليعود ملك أشور بالغنيمة. ويترك الإسرائيليين وشأنهم: «فرجع ملك أشور ولم يقم هناك فى الأرض». (١٥/ ٢٠)

لكن الأشوريين لم يلبثوا أن عادوا تجريد حملاتهم ضد سوريا وما حولها، وكان «فقح بن رمليا» ملكاً على إسرائيل «وعمل الشر فى عينى الرب» (١٥/٢٨)، فكانت النتيجة المقررة سلفاً: «جاء تغلث فلا سر ملك أشور وأخذ عيون وآيل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى أشور». (١٥/٢٩)

ويبدو أن هذه الهزيمة النكراء لبنى إسرائيل فى السامرة، قد جاءت إثر تحالف «آحاز» ملك يهوذا واستجارته بملك أشور للوقوف إلى جانبه ضد تحالف «فقح بن رمليا» مع «رصين» ملك

أرام فى دمشق، حيث أرسل «آحاز» إلى «تغلث فلاسر» يقول : «أنا عبدك وابنك، فاصعد وخلصنى من يد ملك أرام ويد ملك إسرايل القائمين علىّ، فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك أشور هدية، فسمع له ملك أشور وصعد ملك آشور إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين ...». (١٦/٧ - ٩)

وهكذا نرى أن سبب الإجلاء الآشورى الأول لبنى إسرائيل إنما هو مناصرة سبط يهوذا ومن معه ضد باقى أسباط بنى إسرائيل.

ويعاود الآشوريون الكرة فى عهد «شلمناصر» الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م)، حيث كان يتملك على السامرة «هوشع بن أيله» الذى «عمل الشر فى عينى الرب» (ملوك ثان ٢/١٧)، وبالإضافة إلى انحرافه الدينى، فقد شق عصا الطاعة على ملك آشور، ولم يؤد الجزية له، بل وسعى إلى كسب دعم المصريين لمناهضة الآشوريين، فألقى ملك آشور القبض على «هوشع» وسجنه، وحاصر السامرة ثلاث سنوات حتى استولى عليها : «وفى السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور وأسكنهم فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى». (٦/١٧)

ويتضح من تفاصيل الأحداث وملابساتها أن أسباب الانكسار الإسرائيلى أمام ملك آشور هى التمرد الدينى على الرب، والتمرد على ملك آشور، وخرق اتفاق الخضوع له، ومحاولة استعداء ملك مصر على آشور. وقد دفع الإسرائيليون ثمن هذه الخطايا، وكان السبى الآشورى الثانى لإسرائيل على يدى الملك «سرجون» الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) الذى حكم خلفاً لأخيه «شلمناصر» الخامس، وقد أكدت الحفريات المكتشفة فى خورساباد والتى يرجع تاريخها إلى عام ٧٢٢ ق.م، أن هذا السبى قد تم على يدى «سرجون» الثانى وليس «شلمناصر» [٧] وإن كان النص العبرى ينسب تلك الواقعة إلى «شلمناصر». (ملوك ثان ١٨/ ٩- ١٠)

وتستمر معارك آشور مع بنى إسرائيل، لكن فى هذه المرة مع ملوك يهوذا، حيث غزا «سنحاريب» ملك آشور «حزقيا» ملك يهوذا واستولى على جميع مدنه المحصنة (ملوك ثان ١٣/١٨)، حيث استسلم «حزقيا»، ودفع لـ «سنحاريب» ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين

وزنة من الذهب، فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة فى بيت الرب وخزائن بيت الملك وفى ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التى كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملك آشور». (٤/١٨)

ولم يدخل ملك آشور أورشليم ولم يدمرها، حيث استمر «حزقيا» ملك يهوذا وابنه «منسى» فى دفع الجزية، حتى بدأت مملكة يهوذا تسترد قوتها فى عهد «يوشيا» حفيد «منسى»، وفى الوقت نفسه، أخذت مملكة آشور فى سوريا فى الضعف وتولى الملك «أسرحدون» خلفاً لوالده، وظل «أسرحدون» منذ ٦٨١ إلى ٦٦٨ ق.م، حيث خاض خلال هذه الفترة عدة معارك ضد سوريا ومصر. ولم يذكر عن حروبه ضد مملكة يهوذا سوى أسر ملكها «منسى بن حزقيا» وسبيه إلى بابل، ثم العفو عنه وإعادته مرة أخرى إلى أورشليم عاصمة ملكه. (أخبار الأيام الثانى ٣٣/١ - ١٢)

وبدأت مملكة آشور فى الانهيار، لترتفع رايات مملكة أخرى على حسابها هى مملكة الكلدانيين، وسقطت «نينوى» عام ٦١٢ ق.م، واقتسمت بابل وميديا ممتلكات تلك المملكة المنهارة، وتنازعت سوريا كل من بابل من الشمال ومصر من الجنوب، وفرحت مملكة يهوذا ورحبت بالمملكة الكلدانية الجديدة بزعامة «نابو بولاصر»، وحاول فرعون مصر «نخو» استغلال الظروف والأحداث، وغزا سوريا، واحتل «كركميش»، لكن «نبوخذ نصر» الذى تولى بعد أبيه «نابو بولاصر» تمكن من هزيمة الفرعون المصرى (إرميا ٤٦/٢١) وذلك إبان حكم «يهوياقيم بن يوشيا» ملك يهوذا، الذى خشى سطوة «نبوخذ نصر»، فخضع له «يهوياقيم»، ودفع له الجزية ثلاث سنوات. (ملوك ثان ٢٤/١)

ولأن «يهوياقيم» ملك يهوذا قد عمل الشر فى عينى الرب (ملوك ثان ٢٣/٣٧)، فقد سلط عليه الرب «نبوخذ نصر» الكلدانى (٥٩٩ ق.م)، وغزاة الآراميين والمؤآبيين والعمونيين، ودخل «نبوخذ نصر» أورشليم بعد حصارها، وأسر «يهوياقيم» وقيده بالسلاسل (أخبار الأيام الثانى ٣٦/٦)، واقتاده إلى بابل، وتولى بعده ابنه «يوياكين» الذى ملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام «وعمل الشر فى عينى الرب» (ملوك ثان ٢٤/٩)، فعاود «نبوخذ نصر»

حصار أورشليم، وسبى عشرة آلاف مسبى ولم يترك سوى «مساكين الأرض»، وأخذ يهوياكين وأهله وجميع الصناع وأصحاب البأس وأهل الحرب إلى بابل. (ملوك ثان ١١/٢٤ - ١٧)

وبعد موت «نبوخذ نصر» - وكان «يهوياكين» قد أمضى فى الأسر سبعة وثلاثين عاماً - تولى ابنه «أويل مردوخ» عرش بابل، فعفا عن «يهوياكين» ومن معه، «وجعل عرشه أعلى من عروش الملوك الذين معه فى بابل». (٢٨/٢٥)

وكان قد سبق لـ «نبوخذ نصر» عودة أخرى - قبل موته - إلى أورشيلم، حيث تولى «صدقيا» الملك، «وعمل الشر فى عينى الرب» (١٢/٣٦)، فما كان من الملك الكلدانى إلا أن قتل أهل أورشليم بالسيف فى بيت مقدسهم، وأحرق بيت الله وهدم أسوار أورشليم، وسبى كل من بقى إلى بابل، إلى أن قامت مملكة فارس، وكان قرار ملكها الغريب : «إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض، وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهوذا». (٢٣/٣٦)

ولا أدرى حقيقة دوافع «كورش» الفارسى، وأى إله قد أوصاه بذلك، أإله فارس أم إله بنى إسرائيل؟!. فإن كان الأول، فما علاقته ببنى إسرائيل، وإن كان الثانى، فذلك يعنى «تهويد كورش».

ويبقى لغز القرار الملكى الفارسى بعودة اليهود، وإعادة بناء بيت الرب فى أورشليم (عزرا١ /٢ - ٥) دون حل مقنع من الناحية اللاهوتية.

أما إذا نحينا التفسير الأسطورى لهذه الواقعة، فبإمكاننا أن نقبل تعليل المؤرخ اليهودى «إيلى برنائى» حيث قال : «سقطت بابل بيد الملك الفارسى كورش عام ٣٥٩ ق.م، حيث أصبح السلطان المطلق على كامل آسيا الغربية، فسعى لتثبيت إمبراطوريته إلى اتباع سياسة متحررة تجاه الشعوب المغلوبة. هكذا يجب أن نفهم إعلانه (عام ٥٣٨ ق.م) الذى سمح للمنفيين من أورشليم بالعودة إلى بلادهم (كذا) وإعادة بناء معبدهم. وأكثر من ذلك، فإن الملك الذى أعلن أنه يريد أن ينفذ إرادة إله إسرائيل (وهو الذى فتح بابل باسم إلهه مردوك) ساعد بأمواله أولئك الراغبين فى الهجرة».(٨)

وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ بنى إسرائيل، من الأفضل أن تخصص لها دراسات مستقلة، لاستجلاء ما بها من أحداث ووقائع.

ثانياً : الحروب الأهلية بين بنى إسرائيل :

اتسمت فترة ما بعد المملكة المتحدة - التى استمرت سبعين عاماً ونيف - بكثرة الصراعات والانقلابات والحروب الأهلية التى راح ضحيتها مئات الآلاف من بنى إسرائيل.

ويطالعنا الإصحاح الثانى عشر من سفر الملوك الأول باستعدادات «رحبعام» و«يهوذا» و«بنيامين» على رأس مائة وثمانين ألفاً لمحاربة بيت إسرائيل (ملوك أول ١٢/٢٢ - ٢٣)، لولا تدخل النبى «شمعيا» وأمره بعودة المحاربين إلى ديارهم (١٢/٢٤). ومع هذا «كانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام». (١٤/٣١)، وكانت كذلك حرب بين «آسا» ملك يهوذا و«بعشا» ملك إسرائيل طيلة كل أيامهما. (١٥/١٦)، وضرب «بعشا» كل بيت «يربعام» : «لم يبق نسمة ليربعام حتى أفناهم». (١٥/٢٨)

وتقاتل «آسا» ملك يهوذا مع «أيلة بن بعشا» ملك إسرائيل، وضرب الأول الثانى : «لم يبق له باثلاً بحائط مع أوليائه وأصحابه». (١٦/١١)

وحارب «زمرى» ملك «ترصه» «عمرى» ملك إسرائيل (١٦/١٥ - ١٨)، كما حارب «أمصيا» ملك يهوذا «يهوآش» ملك إسرائيل، وانهزم الأول أمام الثانى. (ملوك ثان ١٤/١٢)

الانقلابات الداخلية :

شهدت فترة انقسام المملكة بعد موت الملك سليمان العديد من الانقلابات التى أطاحت بملوك وأتت بآخرين، وذلك باستخدام القوة والفتن والاغتيالات.

فها هو «أيلة بن بعشا» ملك إسرائيل فى «ترصة» يفتن عليه عبده «زمرى» رئيس نصف المركبات ويقتله ويملك عوضاً عنه، ولم يبق من كل بيت «بعشا» «بائلاً بحائط مع أوليائه وأصحابه». (ملوك أول ١٦/٨ - ١١)

و«ياهو» يغتال «يهورام» ويقتله، مع أن الأخير قد جاء يعرض السلام. (ملوك ثان ٩/١٥ - ٢٩)

و«شلوم بن يابيش» ينقلب على «زكريا بن يربعام» ويتملك عوضاً عنه على إسرائيل في السامرة. (ملوك ثان ١٥/٨ - ١٠)

و«منحيم بن جادي» يأتي إلى السامرة ليقتل «شلوم بن يابيش» ويتملك عوضاً عنه (ملوك ثان ١٥/١٣ - ١٤)

و«فقح بن رمليا» يضرب «فقحيا بن منحيم» ويتملك عوضاً عنه. (ملوك ثان ١٥/٢٣ - ٢٦)

و«هوشع بن أيلة» ينقلب على «فقع بن رمليا» ويقتله، ويملك عوضاً عنه. (ملوك ثان ١٥/٣٠)

ويثور الإسرائيليون على «آمون بن منسى» ويملكون ابنه «يوشيا» عوضاً عنه. (ملوك ثان ٢١/١٥)

التحالفات :

ميزت التحالفات فترة ما بعد الانقسام، وكانت ذات شقين :

(أ) تحالفات مع الأمم والشعوب الأجنبية، ومنها نجد ما يلي :

* تحالف يشوع مع أهل «جبعون» لضرب ملوك الأموريين الخمسة (يشوع ١٠/٦ - ١٠)

* تحالف داود مع الجبعونيين ضد شاؤل، حيث سلم ابني شاؤل وخمسة من أبناء ابنته للجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب، ثم مقتل هؤلاء السبعة في أيام الحصاد. (صموئيل الثاني ٢١/١- ٩)

* أرسل «آسا» ملك يهوذا إلى «بنهدد» ملك أرام لإحياء تحالف قديمة بين أبويهما للوقوف في وجه «بعشا» ملك إسرائيل، وكان له ما أراد، وضربت قوات التحالف مدن إسرائيل. (ملوك أول ١٥/١٨ - ٢٢)

* تحالف «منحم بن جادى» ملك إسرائيل مع «فول» ملك آشور من أجل تثبيت مملكته.
(ملوك ثان ١٧/١٥ - ٢١)

* فى مقابل التحالف السابق نجد تحالف ملك يهوذا «أحاز» مع «تغلث فلاسر» ملك أشور.

* تحالف «فقح بن رمليا» ملك إسرائيل مع «رصين» ملك أرام وحاصرا «أحاز» فى أورشليم.
(ملوك ثان ١٦/٥)

(ب) تحالفات داخل بنى إسرائيل، ومنها نجد ما يلى :

* تحالف «يهوشافاط» ملك يهوذا مع ملك إسرائيل لشن حرب ضد أرام. (ملوك أول ٢/٢٢ - ٤)

* تحالف «أخزيا بن يهورام» ملك يهوذا مع «يورام بن أخاب» ملك إسرائيل ضد الآراميين. (ملوك ثان ٢٨/٨ - ٢٩)

* تحالف ملك إسرائيل «يهورام» مع «يهوشافاط» ملك يهوذا ضد «ميشع» ملك «موآب».
(ملوك ثان ٤/٣ - ٧)

وهكذا كانت فترة الانقسام مليئة بالحروب والمعارك وعدم الاستقرار، مما يؤكد الطبيعة العدوانية العسكرية التى سادت بين بنى إسرائيل فى ذلك الوقت، والتى وجدت لها متنفساً ضد الأمم المحيطة من ناحية، وبين مملكتى الشمال (إسرائيل) والجنوب (يهوذا) من ناحية أخرى.

وقد اتسمت معارك هذه الفترة بالبعد اللاهوتى الذى تمثل فى الربط بين «الانحراف عن الطريق المستقيم» للملوك، وبين الهزيمة أو الاغتيال وزوال السلطان.

كما كان للأنبياء دور فى حسم بعض الصراعات، بناءً على التوجيهات الإلهية التى تدخلت فى مجريات كثير من الأحداث العسكرية. (٩)

قتلى الحروب الإسرائيلية :

مما يلفت الانتباه فى المعارك الإسرائيلية تلك الأعداد الضخمة للقتلى والضحايا ، الأمر الذى لا يتناسب وتعداد المتحاربين فى ذلك الوقت، ولا حجم المعارك وطبيعتها فى تلك الآونة.

ومع أن كثيراً من المدن التى تمت إبادتها ، لا نعرف بالتحديد كم كان ضحاياها ، - على نحو ما نجد فى سفر يشوع مثلاً -، فإن الإحصاءات التى قدمتها لنا أسفار العهد القديم كفيلة بإلقاء الضوء على «لامعقولية» تلك الأرقام.

وإحصاءات القتلى المقدمة لنا فى النصوص العبرية لا تشمل ضحايا الحروب التى وقعت بين بنى إسرائيل والأمم الأجنبية فقط، بل تشمل كذلك ضحايا تلك الحروب الأهلية التى أشرت إليها.

(أ) ضحايا الأمم الأجنبية :

ضحايا عاى	(يشوع ٨/٢٥)	١٢٠٠٠
من الكنعانيين والفرزيين	(قضاة ١/٤)	١٠٠٠٠
من موآب	(قضاة ٣/٢٩)	١٠٠٠٠
من الفلسطينيين	(قضاة ٣/٣١)	٦٠٠
من مديان	(قضاة ٨/١٠)	١٢٠٠٠٠
من شكيم	(قضاة ٩/٤٩)	١٠٠٠
من أشقلون	(قضاة ١٤/١٩)	٣٠
من الفلسطينيين	(قضاة ١٥/١٧)	١٠٠٠
من الفلسطينيين	(قضاة ١٦/٢٧)	٣٠٠
من الفلسطينيين	(صموئيل أول ١٤/١٤)	٢٠

من الفلسطينيين	(صموئيل أول ١٨/٢٧)	٢٠٠
من أرام	(صموئيل ثان ٨/٥)	٢٢ ...
من أرام	(صموئيل ثان ٨/١٣)	١٨ ...
من أرام	(صموئيل ثان ١٠/١٨)	٤٠ ...
من أرام	(ملوك أول ٢٠/٢٩)	١٠٠ ...
من أرام	(ملوك أول ٢٠/٣٠)	٢٧ ...
من أدوم	(ملوك ثان ١٤/٧)	١٠ ...
من أشور	(ملوك ثان ١٩/٣٥)	١٨٥ ...
من الكوشيين	(أخبار الأيام الأول ١٤/٩ + ١٣)	١٠٠٠ ...
من الفرس	(استير ٩/٥)	٥٠٠
من الفرس	(استير ٩/١٦)	٧٥٠٠٠
من الفرس	(استير ٩/١٥)	٣٠٠

وهكذا يبلغ مجموع ضحايا الحروب من الأجانب : مليون وستمائة وخمسة وثلاثون ألفاً وستمائة وخمسين قتيلاً.

(ب) ضحايا الإسرائيليين فيما بينهم أو على أيدى أعدائهم :

من إفرايم	(قضاة ١٢/٦)	٤٢٠٠٠
من إسرائيل	(قضاة ٢٠/٢١)	٢٢٠٠٠
من إسرائيل	(قضاة ٢٠/٢٥)	١٨٠٠٠
من بنى بنيامين	(قضاة ٢٠/٣٢)	٢٥١٠٠

من إسرائيل	(قضاة ٣٩/٢٠)	٣٠
من بني بنيامين	(قضاة ٤٤/٢٠)	١٨٠٠٠
من بني بنيامين	(قضاة ٤٥/٢٠)	٢٠٠٠
من إسرائيل	(صموئيل أول ٢/٤)	٤٠٠٠
من إسرائيل	(صموئيل أول ١٠/٤)	٣٠٠٠٠
من بيتشمش	(صموئيل أول ١٩/٦)	٥٠٠٧٠
من الكهنة	(صموئيل أول ١٩/٢٢)	٨٥
من عبيد داود	(صموئيل أول ٣٠/٢)	٢٠
من رجال أبنير	(صموئيل أول ٣٠/٢)	٣٦٠
من إسرائيل	(صموئيل ثان ٧/١٨)	٢٠٠٠٠
من أخوة أخزيا	(صموئيل ثان ١٣/١٠)	٤٢
من الجلعاديين	(صموئيل ثان ٢٥/١٥)	٥٠
من يهوذا	(أخبار الأيام الثانى ٦/٢٨)	١٢٠٠٠٠
من أخوة أبيمالك	(قضاة ٥/٩)	٧٠

وهكذا يبلغ ضحايا الحروب الأهلية من أسباط بني إسرائيل ثلثمائة واثنين وخمسين ألفاً وثمانمائة وسبعة وعشرين قتيلاً.

الهوامش

١- توماس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي. ترجمة صالح علي سوادح، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢١.

٢- Hobbs, Op. Cit, p. 203.

٣- أحمد عبد المقصود، أشعار الحرب والسلام في العهد القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٥٩.

٤- انظر : تفسير هرطوم لسفر القضاة (بالعبرية)، ص ١٣. ولمزيد من المعلومات حول عصر القضاة، انظر : Dimont, M., Jews, God, And History, New York, 1962, pp. 50 - 52.

٥- ياسين سويد، التاريخ العسكري لبني إسرائيل من خلال كتابهم، مرجع سبق ذكره، جـ١/ ٣٠٤.

٦- ياسين سويد، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

٧- ياسين سويد، المرجع السابق، جـ ١/ ٣١٧.

٨- Barnavi, E., Histoire universelle des Juifs, p. 23, نقلاً عن ياسين سويد، المرجع السابق، جـ١ / ٣٤٠.

٩- انظر على سبيل المثال : ملوك أول ٢٠/٢٢ - ٢٧؛ ملوك ثان ١٧/٣ - ١٩، ٢٢، ٦/ ٩، ٧/٥-٨ ..

الفصـــل الـرابـــع

نتائـج الحـروب الإسـرائيليـة وغياب أخلاقيات الحرب

من الطبيعى أن تتمخض الحروب الإسرائيلية عن نتائج وأثار عديدة، تتعدد وتتنوع طبقاً لهدف كل معركة من جانب، وطبقاً لأخلاقيات المحاربين من جانب آخر.

ومن البديهى أيضاً أن لانقيس معارك وحروب الأمم والشعوب فى الماضى بما نعاصره اليوم من مؤسسات وهيئات قد تلعب دوراً فى تنظيم آثار المعارك.

لكن ليس ثمة اختلاف حول العنصر الأخلاقى فى الحياة الإنسانية، سلماً وحرباً، قديماً وحاضراً ومستقبلاً.

ويمكن أن نحدد أبرز نتائج حروب بنى إسرائيل كما حددتها لنا أسفار العهد القديم فيما يلى :

أولاً : الغنائم والأسلاب :

تمثل الغنائم والأسلاب عنصراً رئيسياً فى معارك الشعوب والأمم السابقة، وبخاصة الأغنام والماشية وسائر الممتلكات. وقد تكون هذه الأسلاب هدفاً فى ذاتها يدفع إلى الحروب، وقد تكون انتقاماً من قوم بعينهم، وقد تكون رداً لحقوق تم الاستيلاء عليها...

وأول صورة من صور السلب والنهب الإسرائيلى، والتى لم تكن فى الحقيقة نتيجة حرب متكافئة، وإنما كانت نتيجة عملية غدر قام بها أبناء يعقوب مع «شكيم» وأبيه «حمور» الحوى بعد أن طلب بنو يعقوب من «شكيم» وأبيه أن يتم ختان كل ذكر فى المدينة حتى يقبل الإسرائيليون التزاوج بين الجانبين. فلقد انتهز بنو يعقوب مرحلة المعاناة الجسدية لقوم «حمور» نتيجة الاختتان على كبر، وهجموا عليهم، وأعملوا فيهم القتل :

«ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ... ونهبوا كل ثروتهم ...». (تكوين ٣٤/٣٧ - ٣٩)

واضح من النص السابق أن عملية الغزو والنهب كانت مجرد انتقام لما قام به «شكيم» من «تدنيس» لبنت يعقوب.

ومن نفس المنطلق، منطلق الانتقام، أمر الرب موسى أن ينتقم من المديانيين، فبعد الانتهاء من عملية القتل والإبادة، لم يجد بنو إسرائيل ما يتمم عملية الانتقام إلا السلب والنهب، فـ «نهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم .. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب...». (عدد ٣١/ ٨- ١١)

وتخضع الغنائم والأسلاب عند بنى إسرائيل لبعض الأسس والقواعد التى لم يلتزم بها الإسرائيليون دائماً فى معاركهم وحروبهم.

فشريعة الرب التى أمر بها موسى يبينها لنا ألعازر الكاهن فى خطابه «لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب مع المديانيين» حيث يقول :

«الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص. كل ما يدخل النار تجيزونه فى النار، فيكون طاهراً. غير أنه يتطهر بماء النجاسة. وأما كل ما لايدخل فى النار فتجيزونه فى الماء». (عدد ٣١/٢١ - ٢٣)

وإذا كان النص التالى يشير إلى عملية تطهير الغنائم والأسلاب، فإن الرب قد وضع كذلك أسس توزيع الغنائم، ولعل النص التالى يوضح بعض هذه الأسس :

«وكلم الرب موسى قائلاً : أحص النهب المسبى من الناس والبهائم أنت وألعازر الكاهن ورؤوس آباء الجماعة. ونصّف النهب بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة.

وارفع زكاة للرب. من رجال الحرب الخارجين إلى القتال واحدة. نفساً من كل خمس مئة من الناس والبقر والحمير والغنم. من نصفهم تأخذونها وتعطونها لألعازار الكاهن رفيعة للرب ومن نصف بنى إسرائيل تأخذ واحدة مأخوذة من كل خمسين من الناس والبقر والحمير والغنم، من جميع البهائم وتعطيها للاويين الحافظين شعائر مسكن الرب». (عدد ٣١/٢٥ - ٣٠)

ويقص علينا سفر العدد استكمال عملية تقسيم الغنائم والأسلاب وفقاً لتعليمات الرب مع خصم الزكاة وقدرها اثنان فى الألف من نصيب الجنود، واثنان فى المائة من نصيب سائر بنى إسرائيل. (٣١/ ٣١ - ٤٧)

ومن المثير للانتباه أن القسمة والنسب جميعها قد تواءمت مع عدد الغنائم والأسلاب دون بواق. فلم يكن فى أعداد الغنم أو البقر أو الحمير أو الأسرى «رأس واحدة» زائدة، وإلا اختلت عملية التقسيم، إذ يصعب مثلاً قسمة رجل إلى نصفين، ونحن هنا نضع علامة استفهام أمام هذه الأرقام.

وتستمر عملية النهب إثر كل معركة يخوضها الإسرائيليون، فبعد الاستيلاء على «حشبون» ومدنها، يقول رواة التثنية :

«لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التى أخذنا». (٢/٣٥)

وبعد احتلال كل مدن «عوج» ملك «باشان»، يقول نفس الرواة :

«لكن كل البهائم غنيمة المدن نهبناها لأنفسنا». (٣/٧)

وقد يخالف الإسرائيليون ربهم وقادتهم من أجل الغنائم. فها هو «عخان بن كرمى بن زبدى بن زارح» - من سبط يهوذا - يسرق من غنائم «أريحا»، ويؤدى بفعلته هذه إلى عدم ثبات قومه أمام أعدائهم، وتنتهى القصة بإبادته هو وأهل بيته وممتلكاته. (يشوع ٧)

كما يخالف «يوناثان» قسم أبيه «شاؤل» بعدم الأكل إلى المساء، حتى ينتقم من أعدائه، ويغرى الشعب بالأكل من الغنائم :

«وثار الشعب على الغنيمة، فأخذوا غنماً وبقراً وعجولاً وذبحوا على الأرض، وأكل الشعب على الدم». (صموئيل الأول ١٤/٣٢)

كما حاول الإسرائيليون حرمان إخوانهم الذين لم يخرجوا معهم إلى القتال، مع أن أمر الرب في سفر العدد (٣١/٢٥- ٣٠) يقضى بغير ذلك، وقالوا :

«لأجل أنهم لم يذهبوا معنا لا نعطيهم من الغنيمة التى استخلصناها». (صموئيل الأول ٣٠/ ٢٢)

لكن داود أجابهم : «لاتفعلوا هكذا يا اخوتى، لأن الرب قد أعطانا وحفظنا ودفع ليدنا الغزاة الذين جاءوا علينا، ومن يسمع لكم فى هذا الأمر. لأنه كنصيب النازل إلى الحرب نصيب الذى يقيم عند الأمتعة، فإنهم يقتسمون بالسوية. وكان من ذلك اليوم أنه جعلها فريضة وقضاء لإسرائيل إلى هذا اليوم». (صموئيل الأول ٣٠/٢٣ - ٢٥)

ويبدو أن كاتب النص السابق لم يكن على علم - لا هو ولا أتباع داود - بنص سفر العدد (٣١/٢٥ - ٣٠) الذى يقضى بتقسيم الغنائم «مناصفة» أى «بالسوية» بين المقاتلين والقاعدين.

واستمرت عمليات السلب والنهب من جانب الإسرائيليين فى عهد داود، وشهدت آخر معاركه مع الفلسطينيين استمرارية هذا السلوك :

«ورجع الشعب وراءه (وراء داود) للنهب فقط». (صموئيل الثانى ٢٣/ ١٠)

وفيما بعد انقسام مملكة داود وسليمان، لم يتخل الإسرائيليون عن سياسة السلب والنهب تجاه الأمم الأخرى التى يشتبكون معها. فلقد صرخ بنو «رأوبين» و«الجاديون» ونصف سبط

منسى» إلى الرب، واتكلوا عليه، ونهبوا من «الهاجريين» خمسين ألف جمل، ومائتين وخمسين ألفاً من الغنم، وألفين من الحمير» (أخبار الأيام الأول ٥/١٨-٢١).

ولا يتورع الإسرائيليون عن نهب وسلب الجثث والقتلى، فلقد اشتبك «بنو عمون» و«موآب» مع سكان «ساعير» ليهلكوهم، ثم تقاتل العمونيون والموآبيون وسقطوا قتلى (أخبار الأيام الثاني ٢٠/٢٢، ٢٣) فأتى يهوشافاط وشعبه لنهب أموالهم، فوجدوا بينهم أموالاً وجثثاً وأمتعة ثمينة بكثرة، فأخذوها لأنفسهم حتى لم يقدروا أن يحملوها، وكانوا ثلاثة أيام ينهبون الغنيمة لأنها كانت كثيرة، وفي ذلك اليوم اجتمعوا في وادي بركة لأنهم هناك باركوا الرب، لذلك دعوا اسم ذلك المكان وادي بركة إلى اليوم» (أخبار الأيام الثاني ٢٠/٢٥-٢٦).

وهكذا يتضح أن سلب ونهب الموتى قد تم بمباركة الرب، بل وتم تخليده إلى اليوم.

ثانياً: الأسرى والسبايا :

الأسرى والسبي نتيجة حتمية لمعارك الأمم والشعوب قديماً، ولا ننتظر وجود تشريعات في تلك العصور تنظم التعامل مع الأسرى وتضمن لهم حقوقهم، ولكن ما يمكن توقعه بالفعل هو الحد الأدنى من التعامل الإنساني مع العدو : حياً أو ميتاً.

ويمكن تمييز ثلاثة أصناف من أسرى الحروب :

(أ) الرجال :

مع بدايات تاريخ الإسرائيليين التي يسجلها لنا سفر التكوين، بدا الاتجاه واضحاً فيما يتعلق بالخصوم والأعداء من الرجال، الإبادة التامة لكل ذكر..

وإبادة الذكور في رأينا هي عملية «تطهير عرقي» في ظل النظام الأبوي الذي كان سائداً في المراحل الأولى من تاريخ بني إسرائيل، لأن قتل الذكور، واستحياء النساء فيه انقراض للأمم والشعوب، إذ سرعان ما تخضع الأمة المسبية لسيدها، وتصبح تابعة له.

ولقد أدرك أبناء يعقوب ذلك مبكراً، «وأتيا على المدينة (مدينة شكيم وحمور الحوى) بأمن وقتلا (شمعون ولاوى) كل ذكر». (تكوين ٣٤/٢٥)

واستمر الإسرائيليون فى عهد موسى على نفس «المنهج الربانى» الأمر بإبادة ذكور الأعداء، «فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر» (عدد ٣١/٧)، كما قتلوا كل ذكر فى «باشان» (تثنية ٣/٦)، وكل ذكر فى «حشبون» (تثنية ٢/٣٤).

وما كان ليشوع أن يدع هذا المسلك المتأصل فى التراث الإسرائيلى، فكانت سياسة «التطهير الذكورى» ملازمة له فى كل معاركه وغزواته :

«غير أن المدن القائمة على تلالها (حاصور) لم يحرقها إسرائيل... وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى أبادوهم. ولم يبقوا نسمة. كما أمر الرب موسى عبده هكذا أمر موسى يشوع، وهكذا فعل يشوع لم يهمل شيئاً من كل ما أمر به الرب موسى». (يشوع ١١/١٣ - ١٥)

ولم يترك داود فى حروبه رجلاً من أعدائه إلا وقتله. وهكذا فعل مع ذكور كل من الجشوريين والجرزيين والعمالقة (صموئيل الأول ٢٧/٨ - ١٣)، بل لقد استمر بنو إسرائيل فى «أدوم» فى عصر داود «لمدة ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم». (ملوك أول ١١/١٥- ١٦)

ولقد كان الإسرائيليون مخلصين إلى حد كبير - على خلاف عادتهم - فى تنفيذ أوامر الرب فيما يتعلق بهذه المسألة على وجه الخصوص، إذ كان التشريع الإلهى واضحاً فيما يتعلق بأسرى الأمم الأخرى. جاء فى سفر التثنية (٢٠/١٢ - ١٥) الأمر اليهوى الصريح فى كيفية التعامل مع الشعوب الأخرى : «فاضرب جميع ذكورها بحد السيف»، «فلا تستبق منها نسمة».

وقد حددت الأوامر الإلهية كذلك حال هؤلاء الذين لم يستسلموا لبنى إسرائيل أو يعقدون معهم «اتفاقيات سلام» من خلال إثبات التفوق الإسرائيلى وإملاء الشروط :

«حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك». (تثنية ٢٠/ ١٠ -١١)

وطبقاً لما سبق، كانت سياسة يشوع :

«فعمل يشوع لهم (سكان جبعون) صلحاً وقطع لهم عهداً لاستحيائهم، وحلف لهم رؤساء الجماعة ... وقال لهم الرؤساء : يحيون ويكونون محتطبى حطب ومستقى ماء لكل الجماعة كما كلمهم الرؤساء». (يشوع ١٦/١٩ - ٢١)

وكانت كذلك سياسة داود :

«ولما رأى جميع الملوك عبيد هدر عزر أنهم انكسروا أمام إسرائيل صالحوا إسرائيل واستُعبدوا لهم». (صموئيل الثانى ١٩/١٠)

فالقتل والإبادة لمن حارب إسرائيل من الرجال.

والاستعباد والتسخير لمن صالح وعقد اتفاق سلام.

وقد لاحظ الباحثون «تطرف» داود فى معاملته لأسرى «موآب»، فوصف «هويز» [(١)] هذه المعاملة بالوحشية والاستبدادية، وبخاصة فى ضوء المساعدة المبكرة التى قدمها ملك «موآب» لداود حين كان الأخير مطارداً من قبل شاؤل (صموئيل أول ١/٢٢ -٥). ويحدد «هويز» السبب فى ذلك ويرجعه إلى استراتيجية داود العدوانية التى لا تعرف لها حداً.

كما يشير «هويز» كذلك إلى «الوحشية البالغة» التى أخضع داود بها «أدوم» عندما تم احتلال أرضها، وبقى الجيش لدفن الموتى، وظل جنود «يوآب» فى البلاد لستة أشهر، بهدف إرهاب «أدوم»، وحتى ذبحوا كل رجالهم، كما نجد ذلك مسطوراً فى «ملوك أول ١٥/١١- ١٦). [(٢)]

(ب) النســـــاء :

تباين موقف النصوص الإسرائيلية المقدسة فيما يتعلق بقضية السبايا من النساء، إذ يطالعنا في عصر مبكر من تاريخ بني إسرائيل الأمر الموسوي فيما يتعلق بالسبايا من نساء «مديان» :

«وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها». (عدد ١٧/٣١)

وقد طبق موسى مع شعبه هذا السلوك في أكثر من حالة : فتم قتل كل نساء «حشبون» (تثنية ٣٤/٢)، وكل نساء «باشان» (تثنية ٦/٣)

بل لقد استشاط موسى غضباً عندما علم أن قادة جيشه قد أبقوا على نساء «مديان» حيّات :

«فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب، وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ؟!. إن هؤلاء كن لبني إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب في أمر فغور، فكان الوباء في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها». (عدد ١٧/٣١)

ولم تسلم النساء من بطش داود تنفيذاً لأمر رب الجنود، فقتل كل امرأة وجدها من العماليق (صموئيل أول ٢/١٥ - ٣)، ومن الجشوريين والفرزيين : «فلم يستبق داود رجلاً ولا امرأة». (صموئيل أول ٨/٢٧ - ١٣)

إن الإصرار على قتل كل امرأة، وبخاصة تلك التي ضاجعت رجلاً - أي المتزوجة - يعكس خوف إسرائيل من وجود أي منهن في حالة حمل، ومن ثم يستمر العدو في الوجود على قيد الحياة.

وكما تمت إبادة الرجال، كان لابد من إبادة كل امرأة يحتمل أن تلد طفلاً يساهم في بقاء أعراق الأمم والشعوب المعادية لإسرائيل.

ولكن يبدو أن «الجمال» يشفع لصاحبته بقدر. جاء فى سفر التثنية :

«إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسبيت منهم سبياً، ورأيت فى السبى امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها واتخذتها لك زوجة، فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها، وتقلم أظافرها، وتنزع ثياب سبيها عنها، وتقعد فى بيتك وتبكى أباها وأمها شهراً من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها، فتكون لك زوجة. وإن لم تُسر بها، فأطلقها لنفسها. لاتبعها بيعاً بفضة، ولا تسترضها من أجل أنك قد أذللتها». (٢١/ ١٠ - ١٤)

ومع أن «شفاعة الجمال» ليست تامة، فإن النص السابق يلقى بظلاله على إمكانية استحياء السبايا لجمالهن، وهو يلقى - كذلك - بظلال أخرى داكنة على استذلال هؤلاء السبايا.

فاستحياء النساء بقصد الزواج - على ما يبدو - كان أمراً شرعياً عبرت عنه النصوص العبرية بطريق غير مباشر حين أمرت باستبقاء «الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر» على قيد الحياة (عدد ٣١/١٩)، فى الوقت الذى لاخلاف فيه - كما أشارت النصوص التى سقناها آنفاً - على قتل كل امرأة ضاجعت رجلاً، أى سبق لها الزواج، وعللنا ذلك بالخشية من أن تكون قد حملت فى أحشائها طفلاً يخرج إلى نور الحياة، ويمثل امتداداً لجيل آبائه الذين تم التخلص منهم تماماً.

(جـ) الأطفـال :

جاءت الأوامر حاسمة فيما يتعلق بالأطفال السبايا : القتل والإبادة.

هكذا كانت أوامر موسى فى سبى مديان :

«فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال». (عدد ٣١/١٧)

وهكذا تم قتل كل اطفال «حشبون» (تثنية ٢/٣٤)، وكل أطفال «باشان». (تثنية ٣/٦)

وإذا كان نص سفر العدد (٣١/٩) يستبقى الأطفال البنات على قيد الحياة، فإن نص سفر صموئيل الأول (١٥/٢-٣) يُعد أبشع ما يكون فيما يتعلق بموقف بنى إسرائيل من أطفال الأعداء، إذا جاء فيه :

«هكذا يقول رب الجنود ... فالآن اذهب، واضرب عماليق، وحرموا كل ما له، ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً .....».

وإذا كان نص العدد (٣١/١٩) قد جاء على لسان موسى، فإن نص صموئيل الأول (١٥/٢ - ٣) قد جاء من قبل رب موسى، رب الجنود، كما جاء بعده زمنياً، ومن ثم فهو «ينسخ» ما قبله من حكم، وفى نفس الوقت يصور لنا بشاعة السلوك الإسرائيلى تجاه الأعداء: رجالاً ونساءً وأطفالاً ورضعاً.

ثالثا : التمثيل بالقتلى والأسرى :

كان ديدن الإسرائيليين التمثيل بأعدائهم سواء أكانوا قتلى أم على قيد الحياة. ولقد عكس سفر يشوع نماذج بشعة من تلك المواقف، نشير إلى بعضها فى هذا المقام.

«وأحرق يشوع عاى وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم. وملك عاى علقه على الخشبة إلى وقت المساء. وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم». (يشوع ٨/٢٨ - ٢٩)

كما عمد يشوع إلى إذلال خصومه قبل قتلهم والتمثيل بهم. هكذا فعل مع ملوك الأموريين الخمسة : ملك أورشليم وملك حبرون وملك برموت وملك لخيش وملك عجلون :

«وكان لما أخرجوا أولئك الملوك الخمسة إلى يشوع أن يشوع دعا كل رجال إسرائيل، وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه :

تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك. فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم ... وضربهم بعد ذلك يشوع وقتلهم وعلقهم على خمس خشب، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء». (يشوع ١٠/٢٤- ٢٦)

أمر عسكرى من يشوع إلى قادته العسكريين بأن يضعوا أقدامهم على أعناق الملوك الخمسة، وعلى مرأى من كل رجال إسرائيل.

إذلال لملوك سقطوا أسرى فى معارك لصد اجتياح بنى إسرائيل لبلادهم.

ثم كان القتل، والصلب، ليشفى غليل الإسرائيليين، ويطفئ نيران كراهية الأمم الأخرى.

وفى عصر القضاة، واصل الإسرائيليون العداء والكراهية للأمم الأخرى وبخاصة للملوك. فقد تحالف شمعون ويهوذا لمحاربة الكنعانيين والفرزيين، وبعون الرب ضربوا منهم فى «بازق» عشرة آلاف رجل :

«ووجدوا أدونى بازق فى بازق فحاربوه وضربوا الكنعانيين والفرزيين، فهرب أدونى بازق، فتبعوه وأمسكوه وقطعوا أباهم يديه ورجليه». (قضاة ١/٣ - ٦)

مع العلم بأن بنى إسرائيل هم الذين قد بدأوا الحرب، فى إطار سياسة الاحتلال لأرض كنعان، والتطهير العرقى للأمم الساكنة فيها.

وهكذا فعل النبى صموئيل مع «أجاج» ملك «عماليق» بعد أن لام «شاؤل» عندما عفا عن «أجاج»، الأمر الذى جعل «الرب يندم» على تمليك شاؤل، لكن سرعان ما صحح النبى صموئيل خطأ الملك شاؤل : «وقال صموئيل : قدموا إلىّ أجاج ملك عماليق ... فقطع صموئيل أجاج أمام الرب فى الجلجال». (صموئيل الأول ١٥/٣٢ - ٣٣)

فالأصل فى التعامل الإسرائيلى مع الآخرين إذن هو التمثيل بقادتهم وملوكهم، وإذا ما أخطأ حكام إسرائيل فى تطبيق «الأصول» فعلى الأنبياء أن يتدخلوا لرد كل شئ إلى ما كان ينبغى أن يكون عليه.

أما أبشع صورة قدمتها لنا أسفار العهد القديم، وتذكرنا بما يزعمه البعض من محارق «الهولوكوست» فى العصر الحديث، فنجدها فيما فعله داود مع الشعب العمونى فى «ربة بنى عمون» :

«وأخرج (داود) الشعب الذى فيها (ربة بنى عمون) ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد، وأمرهم مع أتون الآجر. وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم». (صموئيل الثانى ١٢/٣١)

مناشير، نوارج من حديد، فؤوس من حديد، أفران حارقة، فمن ياترى الذى ألهم نازية العصر الحديث بما ينسب إليها من جرائم ؟!

رابعاً : احتلال الأراضى :

يمثل احتلال أرض فلسطين العمود الفقرى لتاريخ بنى إسرائيل ووجودهم على نحو ما سطر فى أسفار العهد القديم وحتى اليوم.

فاحتلال الأرض الموعودة عنصر جوهرى، باختفائه أو إبعاده عن مسرح الأحداث، يلغى تاريخ إسرائيل بأسره.

فمقدمات الاحتلال تأتى فى العهد والوعد الذى جاء من الرب لنسل إبراهيم من ناحية اسحق فقط. (تكوين ١٣/١٥)

وتزداد رسوخاً فى التراث الإسرائيلى بالخروج من مصر، والتأكيد الإلهى على منح هذه الأرض للخارجين مع موسى. (خروج ١٣/١١)

ثم تتمكن من الوعى الإسرائيلى لتصبح «عقدة»، مع بداية محاولات موسى تمهيداً للغزو بأمر الرب (تثنية ٦/١ - ١٠)، ومعاركه مع «سيحون» ملك «حشبون»، وبداية تملك الأرض نتيجة القتال (تثنية ٢/٣١)، وحروبه كذلك مع «عوج» ملك «باشان» والاستيلاء على مدنه وبلاده. (تثنية ٣/٣ . ٧)

هـكذا كانـت بداية المعـارك ونتـائجـهـا : امـتـلاك أرض «حـبشـون»، واحـتـلال مـدن «باشـان».

ثم تأتى مرحلة فى التـاريخ العـسكرى لبنى إسرائيل، والتى يمثلهـا يشـوع وسـيـاسـاته العسكرية الصارمة من إبادة وتدمير وتطهير عرقى واحتلال.

لقد كانت بداية عصر يشوع بأمر إلهى أعلى، يوجب عليه البدء فى سلسلة من الحروب لتحقيق الهدف الأسمى «... إلى الأرض التى أنا معطيها لهم - أى لبنى إسرائيل - كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم». (يشوع ١/٢ - ٤)

فكانت حرب يشوع مع أريحا وأهلها واحتلالها. (يشوع /٦)

وكانت حرب يشوع مع عاى وأهلها واحتلالها. (يشوع / ٨)

وكانت حرب يشوع مع ملوك الأموريين الخمسة وأقوامهم وانتصار يشوع عليهم والاستيلاء على أراضيهم. (يشوع / ١٠)

وكانت حروب يشوع مع مقيده ولبنة ولخيش وجازر وعجلون ودبير، لتنتهى جميعها باحتلال الأرض :

«وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة».
(يشوع ١٠/٤٢)

وكانت حرب يشوع مع «حاصور» ونتيجتها :

«أخذ يشوع كل تلك الأرض الجبل وكل الجنوب وكل أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل (؟!) وسهله. ومن الجبل الأقرع الصاعد إى سعير إلى بعل جاد فى بقعة لبنان تحت جبل حرمون». (يشوع ١١/١٦ - ١٧)

ولا أحصى هنا معارك بنى إسرائيل، أو حتى معارك يشوع، وإنما أضرب نماذج محددة فقط، لأشير إلى أن من نتائج هذه المعارك وأثارها كان احتلال الأرض.

واستمرت سياسة الاحتلال العسكرى وما يتبعها من تقسيم للأراضى المحتلة واستيطانها وتغيير معالمها على مدى حياة يشوع، كما سطرها لنا سفره.

وجاء فى عصر القضاة. اختلفت الوجوه والأسماء، ولم تتغير الأهداف الاستراتيجية الإسرائيلية، ليكون أول سؤال من بنى إسرائيل للرب بعد موت يشوع هو : «من منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم؟». (قضاة ١/١)

وبدأت سلسلة من الحروب والمعارك لاحتلال الأرض. فحارب بنو يهوذا وحلفاؤهم من بنى شمعون بازق (قضاة ١/٤)، ثم حارب بنو يهوذا كذلك أورشليم وحرقوها (قضاة ١/٨)، وضرب بنو إسرائيل «شيشاى وأخيمان وتلماى ودبير وصفاة ولوز وبيت شان وقطرون وعكا وصيدون» وغيرها من المدن.

وقد استطاع بنو إسرائيل تحقيق النصر التام على بعض أعدائهم، كما ارتضى بعض أسباط بنى إسرائيل العيش - نتيجة عدم قدرتهم على تحقيق الطرد الكامل للسكان الأصليين - مع أصحاب الأرض، وذلك على نحو ما فعل «منسى» مع أهل «بيت شان» (قضاة ١/٢٧) و«زبولون» مع «قطرون» (قضاة ١/ ٣٠)، و«أشير» مع «عكا» وأهلها. (قضاة ١/٣١)

واستمرت سياسة التوسع بعد رسوخ أقدام بنى إسرائيل فى فلسطين، وكان ديدنهم دائماً بعد احتلال الأرض : طرد السكان الأصليين والاستيلاء على ممتلكاتهم. (أخبار الأيام الأول ٤/٣٩ - ٤٣)

وهكذا، كان احتلال الأرض نتيجة حتمية لمعارك وحروب بني إسرائيل، كما كان مقدمة وهدفاً لها، على نحو ما قدمت لنا نصوص العهد القديم.

الهوامش

١- Hobbs, Op. Cit, p. 148.

٢- Ibid, p. 149.

خـــاتمـــــة

الحروب الإسرائيلية بين الماضى والحاضر

هل ثمة علاقة - بأى شكل من الأشكال - بين الحروب الإسرائيلية فى التاريخ القديم، على النحو الذى قدمناه فى ثنايا هذه الدراسة، والحروب الإسرائيلية المعاصرة، على النحو الذى عايشناه ومازلنا نعانيه ؟!

سؤال لابد أن يطرح نفسه، إذ الاكتفاء بما قدمنا، يحكم على هذه الدراسة وأمثالها بالعقم، ويباعد بيننا وبين الاستفادة مما تتمخض عنه من نتائج.

وفيما يلى من صفحات، سأحاول الإجابة على السؤال السابق، على أن ألتزم بالتسلسل المنهجى الوارد فيما قدمته من معالجات لقضايا الموضوع.

الإلـــه المحـــارب :

تشير دراسة الحروب الإسرائيلية فى العهد القديم إلى تركز الجو العدائى فى تلك الأمم والشعوب المحيطة ببنى إسرائيل نتيجة احتلال الأخيرين لأراضيهم، أو لما يشكلونه من خطر مرتقب عليهم. وهذا ما يبدو لأول وهلة فى العصر الحديث.

فلقد خاض الإسرائيليون منذ إقامة دولتهم الحديثة إثر احتلال فلسطين عدة حروب، كانت أطرافها تلك الدول المحيطة بهم مصر وسوريا والأردن ولبنان، وجاءت هذه الحروب كنتيجة طبيعية لسياسة إسرائيل الاستعمارية - وهى نفس السياسة الإسرائيلية التى صورها لنا العهد القديم المقدس - فى المنطقة.

نعم. هناك كثير من الأعداء قد تلاشى وجودهم كأعراق متميزة، فلا نستطيع القول بوجود حثيين أو موآبيين أو أموريين ....، ولكن من المؤكد أن شعوب هذه المنطقة كانوا ورثة لتلك

الأمم، كما أن من بين هذه الشعوب المعادية من لا يزال قائماً، ومثال ذلك الفلسطينيون، الذين هم جوهر ولب الصراع المعاصر. ولئن كان شاؤل وداود قد وضعا أساس المملكة الإسرائيلية الوحيدة فى تاريخ بنى إسرائيل على أنقاض الوجود الفلسطينى آنذاك - بصفة رئيسية - فإن إسرائيل المعاصرة، وهى الدولة الثانية فى تاريخ هؤلاء القوم، قد قامت - كذلك - على حساب الفلسطينيين المعاصرين. وكأنه قدر الفلسطينى، أن يكون - مرتين فى التاريخ - هدفاً لأطماع الإسرائيليين وتوسعهم.

أما مفهوم الحرب المقدسة المشار إليه فى هذه الدراسة، فمازال راسخاً فى أذهان الإسرائيليين. نعم، تغيرت ملامح ومظاهر هذه الحرب وفقاً لتغير مجرى التاريخ.

فلم تعد - فى العصر الحديث - دقات للطبول، ولا تواجد فعلى للرب فى المعارك، كما لم يعد بإمكان الإسرائيليين الإعلان عن ذلك حيث لم تعد مثل هذه المزاعم مقبولة فى زمن الطائرات والمدرعات والكيماويات والسلاح النووى.

لكن جوهر فكرة التقديس، مازال فى النفوس. وأغلب ظنى واعتقادى، أن العبارة الشهيرة المعلقة - أو المنحوتة - على باب الكنيست الإسرائيلى - رمز القرار الإسرائيلى سلماً وحرباً - والمعلنة بحدود دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات، ما هى إلا انعكاس للمفهوم الدينى لحدود الدولة، ومن ثم، فأى حرب يخوضها الإسرائيليون ليست سوى استجابة لهذا المفهوم وتحقيقاً له.

وما يؤكد مفهوم «الحرب المقدسة» فى الفكر العسكرى الإسرائيلى المعاصر، هو أن قيام إسرائيل فى حد ذاته - فى فلسطين - قد ارتبط بالفكر الدينى اليهودى البحت. وحول هذا الطابع اليهودى، يقول جون لافين فى كتابه «العقلية الإسرائيلية» :

«توجد فى العالم الحديث أربعة اتجاهات أساسية واضحة عند تحديد العلاقة بين الدين والدولة. إن الدولة يمكن أن تكون إما معارضة للدين، أو أن تقوم باتخاذ موقف محايد إزاءه أو تشجعه أو تفرضه. ويسود فى إسرائيل حالياً الاتجاه الأخير...». (١)

ولايسع المرء الذى يتابع الحياة الإسرائيلية المعاصرة إلا أن يؤكد ارتباط الدولة - ككيان - بالدين - كعقيدة حياتية مهيمنة - بغض النظر عن السلوك الفردى لمواطنيها.

وإذا كانت تسمية الدولة - فى حد ذاتها - هى المؤشر الأول على هذه العلاقة الأصولية، فإن علاقة القوى السياسية بين الأحزاب الإسرائيلية، وتحول القيم اليهودية إلى إطار مؤسسى(٢)، لمؤشر آخر يعضد من هذه التوأمة بين الدين والدولة.

ولسنا هنا فى مجال سَوْق الأدلة على هذه العلاقة، فهى قضية محسومة سلفاً، ولا ينكرها الإسرائيليون أنفسهم. فأسفار العهد القديم هى المسوغ الرسمى الذى قامت عليه إسرائيل، ومنه تستمد استمراريتها، بل والدعم العالمى - من المؤمنين بهذا الكتاب - لها، ضد أعدائهم من الجوييم.

ومع الاعتراف بقصر النظر السياسى لليهود خلال تاريخهم، والذى يرجع إلى عادات العالم القديم وآمال اليهود المحطمة، وأحلامهم فى الخلاص، إلا أنهم قد اتخذوا لأنفسهم فى العالم المعاصر ميثولوجيا جديدة. (٣)

والمؤرخون لإسرائيل المعاصرة، لا يمكنهم التغاضى عن هذه العلاقة بين التاريخ الإسرائيلى القديم، وتداعيات الوضع الراهن الذى تتمحور إسرائيل فى بؤرة أحداثه وصراعاته. (٤)

من هذا المنطلق - الارتباط بين إسرائيل المعاصرة، والتاريخ الإسرائيلى القديم، بغض النظر عن منطقية هذا الارتباط ومصداقيته - انعكست آثار هذا الارتباط على الحروب الإسرائيلية المعاصرة بكل أبعادها.

واعتماداً على تلك النتيجة المقررة آنفاً، استمر تدخل إله بنى إسرائيل فى صنع التاريخ وأحداثه حتى الآن.

ففي أكتوبر من عام ١٩٨٩، وقع زلزال فى سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة، أثناء مراسم افتتاح المسابقة العالمية الثالثة لرياضة «البيسبول». وقد نشرت جريدة الحريديم «المتدينين» اليهود (ياتيد نئمن) بعد أيام من الزلزال، وعلى صفحتها الأولى مقالاً يفيد أن

توقيت الزلزال لم يكن عشوائياً، لكن إله إسرائيل يلمح للإنسان بإشاراته. فهذه اللعبة القائمة فى القرن العشرين فى هذه «المدرجات» الهائلة، لا ترضيه، بسبب بقاء بيته أطلالاً متناثرة فى القدس، والذى دمر منذ ما يقرب من ألفى عام مضت، وأصبح مكانه مسجداً للمسلمين. (٥)

وكثير من الأحداث الدامية التى تقع داخل إسرائيل، يتم ردها وربطها بتدخل الإله المباشر، لسبب أو لآخر. (٦)

وتعكس الأدبيات العبرية المعاصرة، مفهوم الحرب المقدسة ودور إله بنى إسرائيل فيها، من خلال سلوكيات «الحريديم» اليهود فى إسرائيل، ومساهماتهم الفعالة فى إدارة الحروب عن طريق التعبئة الدينية للمحاربين، على نحو يذكرنا بما قدمناه من استعدادات بنى إسرائيل فى معاركهم القديمة، وإن اختلفت السبل والوسائل. (٧)

إذن، مازال مفهوم الحرب المقدسة، وتدخل الإله فى مجريات الأحداث، أمراً مسيطراً على السلوك الإسرائيلى المعاصر، إمتداداً للمعتقد السائد فى أسفار العهد القديم. ولقد عبر الحاخام موشى ليفنجر الذى ذهب فى عام ١٩٦٨ للاستيطان فى الخليل، إلى وصف حرب الأيام الستة بقوله: «لقد أفاق الجميع من سبات الحياة الخاصة ورأوا بأم أعينهم عودة صهيون»، وقال: «إن كل ما حدث هو من فعل العناية الإلهية، التى شاءت تحرير أجزاء كبيرة من أراضينا». وهذا ما قاله كذلك الحاخام شلومو جورين فى غمار الحرب، وخلال زيارته لمنطقة عصيون. (٨)

أما حاخام الجيش الإسرائيلى، موشى جوريون، فقد صرح فى أعقاب العدوان الإسرائيلى على العرب فى يونيو ١٩٦٧ قائلاً: «إن حروب إسرائيل الثلاث مع العرب فى السنوات ٤٨، ٥٦، ١٩٦٧، إنما هى حروب مقدسة، إذ دارت أولها لتحرير أرض إسرائيل، واشتعلت الثانية لتثبيت أركان دولة إسرائيل، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق كلمات أنبياء إسرائيل». (٩)

عقيدة الحروب الإسرائيلية واستراتيجيتها:

شكّل الاختيار الإلهى لبنى إسرائيل، والوعد بأرض كنعان «فلسطين» لهذا الشعب المختار حجر الزاوية فى سلسلة معارك بنى إسرائيل منذ الخروج من مصر ومروراً بعصر موسى فى سيناء ثم يشوع والقضاة وشاول وداود وسليمان.

فتحت الإعلان الإلهى الوارد فى سفر التكوين ١٨/١٥ : «لنسلك - يا إسرائيل - أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات» وهو ذات الإعلان الذى يعلو بوابة الكنيست بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من صدوره، أقول تحت هذا الإعلان، خاض موسى ويشوع ومن تلاهما عشرات المعارك الضارية، وتحت هذا الإعلان أيضاً، كانت حروب إسرائيل المعاصرة منذ عام ١٩٤٨ وحتى تلك اللحظات التى أخط فيها كلماتى هذه..

لقد حدد إله إسرائيل من قبل الهدف القومى الذى يعكس جوهر العقيدة العسكرية الإسرائيلية، وهو : الوعد بالأرض، ومن ثم أصبحت فلسطين ذات مسمى جديد هو «أرض إسرائيل»، واستمر هذا المعتقد، وهذا المصطلح حتى الآن.

وعلى نحو ما أسلفنا فى هذه الدراسة، استمر التذكير الربانى للشعب المختار بأرض إسرائيل الموعودة، ومازال هذا التذكير لشتات اليهود فى العالم قائماً حتى الآن. لم يتغير شئ على الإطلاق، إلا وسائل التذكير ووسائطه. فقد كانت فيما مضى عن طريق الرب مباشرة أو بوسائط أنبيائه، وأصبحت اليوم عن طريق زعماء الصهيونية وقادتها وساسة الدولة التى قامت فى منتصف القرن العشرين.

وكما سبق للرب وأن وضع نظام «التجنيد الإجبارى» للإسرائيليين فى الإصحاح الثانى من سفر العدد، فإن النظام قائم حتى الآن، وإن خضع - بطبيعة الحال - لبعض اللوائح التنظيمية التى تفرضها متطلبات العصر الحديث.

هناك التزام إذن بنظام التجنيد الإلهى، وجدناه فى زمن موسى، والتزم به داود كذلك (أخبار الأيام الأول ٢٦/١ - ٢٧؛ ١/١٢ - ٤٠) ومازال ماثلاً فى دولة إسرائيل المعاصرة، وهذا جزء من العقيدة العسكرية الإسرائيلية.

ولقد عكست معارك بنى إسرائيل فى العهد القديم بعض ملامح الحروب الدفاعية، تلك الذريعة التى خاض من خلالها الإسرائيليون حروباً ضد أمم آمنة مطمئنة. هذه المزاعم التى شكلت جزءاً بارزاً من الاستراتيجية القديمة، مازالت عالقة بالاستراتيجية الإسرائيلية الحديثة. فحروب إسرائيل المعاصرة، كانت وراءها دائماً ذريعة «الحرب الدفاعية، وتحت هذا المبدأ، كان النشاط العسكرى الإسرائيلى ضد العرب على مدى نصف قرن من الزمان.

فاحتلال الأراضى العربية فى حرب ١٩٦٧، واحتلال جنوب لبنان فى الثمانينيات، وضرب المفاعل النووى فى العراق، كلها كانت أنشطة عسكرية إسرائيلية تحت ذريعة إجهاض أى هجوم محتمل من قبل العرب تجاه إسرائيل.

والاستراتيجية العدوانية فى عصر يشوع والقضاة، وفى زمن داود كذلك (انظر صموئيل الثانى، الإصحاح الثامن)، لا تختلف كثيراً عن الاستراتيجية العدوانية لإسرائيل المعاصرة.

البنية الاجتماعية الإسرائيلية المعاصرة ودورها فى الحرب :

من الطبيعى ألا تنعكس مؤثرات البنية الاجتماعية الإسرائيلية على العلاقات الإسرائيلية الداخلية فى العصر الحديث على نحو ما ألفنا فى العهد القديم، إذ لم لتعد لمفاهيم الأسرة والعائلة والسبط والتحالف نفس الدور الذى كان لها فى بداية تاريخ هذه الجماعة.

ومع هذا، فقد حل صراع داخلى جديد، ذو علاقة بالبنية الاجتماعية المعاصرة فى إسرائيل. إنه صراع الأصول والأعراق.

فالمجتمع الإسرائيلى المعاصر، يتكون من عناصر رئيسية تلعب دوراً بارزاً فى الصراع الاجتماعى الحديث. أبرز هذه العناصر :

١- اليهود الاشكناز، ويقصد بهم يهود الغرب وأمريكا وشرق أوربا، وهم يسيطرون على الحياة السياسية والعسكرية والثقافية فى إسرائيل، إذ سعت إسرائيل منذ نشأتها على أيدى هؤلاء الصنف من اليهود إلى صبغ المجتمع بالصبغة الاشكنازية من النواحى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

ومع أننا لا نملك إحصاءات حديثة لنسبتهم إلى عدد سكان إسرائيل، فإن احصاء عام ١٩٦٧ يشير إلى أنهم يشكلون نسبة ٣٠٪ تقريباً من إجمالى عدد سكان إسرائيل. [١٠]

٢- اليهود السفاراد، ويقصد بهم يهود البلاد العربية والإسلامية، وينظر إليهم الاشكناز على أنهم جماعة يهودية بدائية متخلفة. ولهؤلاء السفاراد ملامح تميزهم عن الاشكناز تتمثل فى العديد من مظاهر الاختلاف الشعائرى الطقسى الدينى، والاختلاف الثقافى

والاجتماعي، وتصل نسبتهم وفق إحصاء عام ١٩٦٧ حوالى ٢٧,٥٪ تقريباً من إجمالي السكان. (١١)

٣- الصابرا، ويطلق هذا اللفظ علي الإسرائيليين الذين ولدوا فى فلسطين، تمييزاً لهم عن المهاجرين إليها، ويشكلون الآن ما يقرب من ثلث السكان، ومعظمهم من الشباب. (١٢).
وتختلف سلوكيات وأخلاقيات، بل والبنية الجسمية للصابرا عن العنصرين السابقين : الاشكناز والسفاراد. وصلة هذا الجيل بالدين ضعيفة بشكل عام، وانتماؤهم للقومية الإسرائيلية أقوى من انتمائهم للدين اليهودى، الأمر الذى يثير الشكوك حول يهوديتهم. أما ثقافتهم فتشمل ثقافات المهاجرين القدامى إلى إسرائيل كما تشمل ثقافة المستوطنين الجدد، فهم متعددو الثقافة. وهناك عدد كبير منهم ينتمون إلى ما يسمى «بالحركة الكنعانية» التى تتخذ مما يسمى بأرض كنعان قاعدة أيدولوجية لها. فهم يحاولون الارتدادا بأصولهم وانتماءاتهم إلى ما قبل عصر ابراهيم عليه السلام، كما أنهم متأثرون بالاكتشافات الأثرية التى أثبتت وجود مجتمع فلسطينى سابق على وجود بنى إسرائيل فى هذه البلاد، ذلك المجتمع الذى ضم عناصر سامية مختلفة، الأمر الذى يفتح أمامهم امكانية التعايش الإسرائيلى - العربى فى مجتمع واحد معاصر. (١٣)

وتشير أحدث إحصاءات السكان الإسرائيلية - فى ضوء انخفاض معدلات هجرة السفاراد والاشكناز - إلى ارتفاع نسبة الصابرا ليشكلوا ما يقرب من ٦٠,٧٪ من اجمالى يهود إسرائيل. (١٤)

هذه العناصر الرئيسية الثلاثة المكونة للمجتمع الإسرائيلى المعاصر، تحمل بداخلها عناصر اختلاف وصراع لا تقل عن تلك العناصر التى سادت بين بيوتات إسرائيل وأسباطها فى الماضى.

ومظاهر الصراع بين هذه العناصر مازالت فى إطار محدود تعكسه أدبيات كل عنصر. فالمطلع على كتابات المنتمين لكل فريق سيلاحظ وجود صراع حاد لم يصل بعد إلى حد الانفجار المسلح الذى اعتدنا وجوده بعد انقسام مملكة داود وسليمان.

إن السياسات العسكرية الإسرائيلية المعاصرة، وما يحيط بهذا المجتمع المتنافر التكوين من ظروف الصراع الإسرائيلي - العربي، قد ساهم بشكل كبير في أن يطغى صوت هذا الصراع الخارجي، على أي أصوات لصراعات داخلية أخرى.

وفي اعتقادي، إن أخطر ما يمكن أن يؤدي إلى تأجج هذا الصراع الداخلي هو السلام الحقيقي بين إسرائيل وجيرانها العرب، لأنه حين تستتب الأمور، ويتباعد شبح الحروب، ستبدأ طاقة الصراع الداخلي في التفجر، وسيخرج المارد من القمقم، وتعود صراعات ورثة مملكة سليمان المنقسمة إلى الوجود، وعندها لن يوجد أنبياء يحذرون ويعظون ويبلغون كلمة الرب، فقد انتهى عصر الأنبياء، وإن كان أنبياء الكذب، من رعاة الفكر الصهيوني المعاصر، مازالوا على قيد الحياة.

إسرائيل .. والأساطير :

رأينا في العرض السابق لحروب إسرائيل القديمة، دور الأساطير في إدارتها ونتائجها، وقد قادنا هذا العرض إلى معالجة مصداقية النصوص العبرية من الناحية التاريخية في ضوء الأثريات الحديثة

وسقنا بعض الأدلة على زيف هذه الأساطير، وتعارضها مع ملابسات التاريخ ووقائعه آنئذ، لكن مع هذا تبقى حقيقة لا يمكن لنا طمس معالمها، وهي دور الأساطير الفعال في الفكر العسكري الإسرائيلي قديماً.

هذا الدور الأسطوري، تمكن كذلك من الفكر المعاصر، وإن اختلفت مظاهره لاختلاف العصر.

ولن نبحث هنا عن ترهات المتهوسين الدينيين الإسرائيليين، فهذا ليس مجال بحثنا، وإنما نشير هنا إلى استمرارية بعض الأساطير القديمة، وبروز أساطير أخرى حديثة، لها دور بارز في الفكر الحربي الإسرائيلي.

فمن أساطير الماضي نجد استمرارية أسطورة الاختيار الإلهي للشعب المختار، وأسطورة الأرض الموعودة، وكلتاهما لايمكن فصلهما عن الأساس الذي قامت عليه إسرائيل عام ١٩٤٨.

ومن الأساطير المعاصرة، نجد أسطورة الحقوق التاريخية، وهى ذات اتصال وثيق بالأسطورتين القديمتين السابقتين، وتتجسد فى إعلان إنشاء دولة إسرائيل فى ١٩٤٨/٥/١٤ حيث جاء فيه : «بموجب الحق الطبيعي والتاريخي للشعب اليهودى»، تقوم على أرض فلسطين دولة لليهود».

وقد ناقش روجيه جارودى فى ملفه عن إسرائيل تلك الأسطورة مناقشة كافية، تثبت دحضها وبطلانها. (١٥)

وتستمر كذلك أسطورة العنصر، واستمرارية العرق اليهودى النقى متمثلاً فى يهود إسرائيل المعاصرين، وهى أسطورة تتعارض مع العقل، وتتعارض مع العلم، فالأبحاث الأنثربولوجية تهدم هذه الأسطورة وتثبت بطلانها وزيفها، بل إن الكتاب المقدس ذاته - على نحو ما أسلفنا فى هذه الدراسة - يثبت كذب هذه الأسطورة، عندما يحكى لنا اندماج الإسرائيليين الأوائل بالأمم الأخرى.

وفى اعتقادى، أن هذه النظرية العرقية الانتقائية التى يعكسها الكتاب المقدس، كانت مصدر إلهام كثير من الحركات والاتجاهات والأيديولوجيات التى هاجمها اليهود أنفسهم : «إن المشرع النازى للقوانين الدامية التى أصدرها ضد اليهود، قد اختار أن يستلهم تشريعه من آراء ضحاياه فقال فى ديباجة تلك القوانين إنه يستوحى تشريعه من المقررات التاريخية التى كان اسدراس وسخميا قد اتخذاها للحفاظ على نقاء الدم اليهودى». (١٦)

وإلى جانب النفخ فى أتون الأساطير القديمة، برزت إلينا أساطير جديدة، فى ثياب عصرية، أبرزها أسطورة أمن إسرائيل.

وهذه الأسطورة ليست من تأليفنا أو إخراجنا، فقد جاءت فى مدخل ليفيا روكاخ لكتابه حول مذكرات موشى شاريت، أحد أعمدة السياسة الإسرائيلية المعاصرة، حيث قال :

«كان الدعم الغربى الشعبى لإسرائيل خلال ربع القرن الماضى مبنياً على عدد من الأساطير، وكان أكثر هذه الأساطير استمراراً أسطورة أمن إسرائيل». (١٧)

ثم يشرح لنا صاحب هذا الكشف الأسطورى كيف استطاع الإسرائيليون استثمار هذه الخرافة بحرص لإثارة التصورات المغلقة لدى الرأى العام، متضمناً التهديد الدائم لبقاء اليهود فى فلسطين وذلك بهدف استخدام أكبر كم ممكن من الأموال للمحافظة على إسرائيل «عسكرياً واقتصادياً».

هذه أسطورة جديدة إذن، تم استنساخها عن أساطير الحروب القديمة، لتؤدى نفس الهدف، ولتساهم بشكل مباشر فى إدارة الحروب العسكرية الإسرائيلية فى العصر الحديث.

ولايفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى أساطير «فرعية وليدة»، ظهرت فى مراحل الصراع العسكرى الإسرائيلى العربى، مثل أسطورة «جيش إسرائيل الذى لا يقهر»، وأسطورة «خط بارليف»، وكلها فى رأينا تعكس «الملكة الأسطورية» التى تهيمن على الفكر العسكرى الإسرائيلى، والتى لا تختلف كثيراً عن أساطير يشوع فى عبور نهر الأردن (يشوع ٣/١٢ - ١٧)، وتدمير أريحا وعاى وغيرها.

مفهوم الإبادة فى الفكر الإسرائيلى المعاصر :

أشرنا بإسهاب إلى دلالات المصطلح العبرى «الحيرم»، ووجدنا أنه ينطبق تماماً على دلالات المصطلح الأوربى «الهولوكوست» على نحو ما نجد فى معاجم اللغة، وعلى نحو ما نجد فى تطبيقاته.

ونذكر مرة أخرى بأن مفهوم الإبادة فى الفكر الإسرائيلى يعنى التدمير والقتل والتخريب والإماته والاستئصال.

فهل كانت هذه الدلالات كلها وليدة الحروب البدائية التى خاضها الإسرائيليون فى عصور لم تكن فيها قوانين ومنظمات وشرائع تمنع من وقوع هذه الأفعال من قبل المحاربين الإسرائيليين ضد أبناء الأمم والشعوب المغلوبة على أمرها ؟!

التاريخ الإسرائيلى المعاصر، يؤكد استمرارية رسوخ مفهوم الإبادة فى العقلية الإسرائيلية.

ومع أن لدى قوائم - باليوم والساعة - تشمل تلك الحالات التى يمكن إدراجها ضمن مفاهيم الإبادة، إلا أن الصفحات لا تكفى هنا لسردها - حتى ولو بدون تعليق (١٨) - ومن ثم فسأكتفى هنا فقط بالإشارة إلى بعض «الفتوحات اليشوعية» فى القرن العشرين.

١- نسف فندق الملك داود فى القدس عام ١٩٤٦ على أيدى منظمة «اتسل» بقيادة مناحيم بيجن، وذلك بهدف التخلص من الوثائق التى تدين العلاقة المشبوهة الإجرامية بين الوكالة اليهودية ومنظمة الهاجاناه، وكانت نتيجة العملية مقتل ٩١ شخصاً وإصابة ٤٦ آخرين. (١٩)

٢- بلدة حساس والإهاب الإسرائيلى : وفيها ارتكبت عناصر البالماح اليهودية فى ١٩٤٧/١٢/١٢ مذبحة ضد أهالى بلدة حساس الفلسطينية، وقد نشرت صحيفة معاريف فى ملحقها يوم ١٩٨١/٧/٣١ قصة قتل نساء وأطفال وشيوخ القرية كما رواها الدكتور أورى ميليشتاين، وأشارت إلى المهام التدميرية التى نيطت بالمجموعة التى قامت بالتنفيذ بقيادة يعقوب ليفنجر على النحو التالى :

* نسف المنازل المحيطة بموقف السيارات فى القرية.

* قتل أكبر عدد ممكن من سكان القرية.

* الإساءة إلى الرجال المقيمين فى قصر الأمير فاعور.

وتم التنفيذ، فقتل من قتل، وأبيد من أبيد، ليغادر من بقى من أهل البلدة أرضهم، ولنجد نموذجاً «يشوعياً» مصغراً، يمكن رده إلى أصوله فى سفرى يشوع والقضاة.

٣- مجزرة قرية يازور بالقرب من يافا فى ١٩٤٨/١٢/٢٢، حيث نشرت صحيفة دافار فى ملحقها يوم ١٩٨١/٥/٨ مقالاً بقلم أورى ميليشتاين، تحدث فيه عن هذه البلدة التى تم نسف مبانيها وقتل سكانها وهم فى فراش النوم.

٤- دير ياسين، والبعث الشيوعى : لاشك أن مذبحة دير ياسين التى وقعت ١٩٤٨/٤/٩ على أيدى عصابتى «الاتسل» و«ليحى» على مشارف القدس، وراح ضحيتها ٢٤٥ عربياً معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، هى دليل على بعث روح يشوع فى نفوس

أعضاء هاتين المنظمتين. وقد نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت بتاريخ ١٩٧٢/٢/٢٤ تفاصيل هذه المجزرة، كما علق عليها إيلان هاليفى فى كتابه عن مجازر دولة إسرائيل، ساخراً من الأقدار التى جعلت من قاما بها وهما : مناحن بيجن واسحق شامير، رئيسى وزراء إسرائيل فيمابعد. (٢٠)

وإذا أردنا التجول - قليلاً - بين ذكريات هذه المذبحة - والمحرقة - ، فلن نجد أصدق من اعترافات أصحابها (٢١). يقول موشى برزيلاى، ضابط استخبارات منظمة «ليحى» الإرهابية : «صببنا ثلاثة أوعية نفط على ثلاثين جثة فى الشارع الرئيسى فى القرية. وبعد نصف ساعة أدركنا أن هذا مستحيل ... أردنا نقل الجثث المحترقة قليلاً من الشارع الرئيسى إلى ما وراء جدار وجررنا سوياً (مع يهوشواع زطلر قائد ليحى فى القدس) إحدى الجثث، وانفصلت يد عن الجسم وبقيت معى، وتقيأت».

ويروى شاهد عيان للهولوكوست الإسرائيلى الذى وقع فى دير ياسين تفاصيل أخرى فيقول شمعون مونيتا : «اعتقدنا أن الجثث ستشتعل ولكن لايمكن إحراق جثث فى الهواء الطلق. لقد بنى النازيون من أجل ذلك موقداً خاصاً يشتعل بدرجة حرارة عالية جداً».

ويضيف دورون حسداى، أحد قادة لواء «الجدناع» (الشبيبة) ما رآه آنذاك فيقول : «على امتداد عشرات الأمتار كانت شعل من النيران تتوقد وفيها جثث، لا تزال رائحة اللحم المشعوط تطاردنى إلى الآن».. ويتصل حسداى بقائده قائلاً : «إنها محرقة ... إنهم يحرقون بشراً».

أما يهوشواع أريئيلى، قائد لواء الجدناع فيقول : «عملنا طوال ليلة ١٢ - ١٣ ابريل، وكان من الصعب إخراج الجثث من منزلين، فحصلنا على موافقة بنسف المنزلين مع الجثث، ونفذنا ذلك، ثم دفنا فى قبر جماعى نحو سبعين جثة، ونسفنا مجموعتين من الجثث فى كل واحدة منها نحو عشرين جثة».

ويعترف موردخاى جيحون، ضابط استخبارات منظمة الهاجاناه فى منطقة دير ياسين بأنه قد كُلّف بدخول دير ياسين بعد ظهر الجمعة ٤/٩، لإقناع مرتكبى الجريمة بتنظيف القرية

من الجثث وألا يتركوها من دون نفى، ويعبر عن مشاهداته بقوله : «كنت مستعداً لتقبل كل شئ عن الألمان ولكننى كنت ساذجاً بخصوص حروبنا ومحاربينا، وكانت زيارتى إلى دير ياسين صدمة أخلاقية بالنسبة لى، لأنى لم أكن شاهدت قبل ذلك بأم عينى هذا العدد الكبير من الجثث، واليوم أعرف أن أموراً كهذه ارتكبت».

٥- مذابح مدينة الرملة فى ١٩٤٨/١/١٥، مارس ٩٤٨ يونيو ١٩٤٨، وكان منفذو هذه المذابح تابعين لقيادة آلون ورابين وبن جوريون، وراح ضحيتها عشرات العرب، القيت جثثهم على الطريق العام للرملة، تماماً كما فعل الآباء مع المستضعفين من أبناء الأمم الأخرى.

٦- مذبحة قبية فى ١٤- ١٩٥٣/٩/١٥، وفيها قامت قوة إسرائيلية تعادل نصف كتيبة تقريباً بمهاجمة قرية قبية، ونسفت ٤١ بيتاً ومدرسة وقتلت عشرات الرجال والنساء والأطفال، وقد تمت هذه المذبحة بأوامر من بن جوريون، وبتنفيذ من إريل شارون.

٧- مجزرة كفر قاسم فى ١٩٥٦/١٠/٢٩، وقد وقع ضحيتها ٤٩ قتيلاً، ١٣ جريحاً، من بينهم عدد من النساء والأطفال. وقد كان لبن جوريون وموشيه ديان وشمعون بيريز ومئير ياعيل أدوار بارزة فى هذه المجزرة، تثبت أنهم أوفياء بحق للتراث الإسرائيلى. (٢٢)

٨- مذابح صبرا وشاتيلا فى لبنان فى ١٩٨٢/٩/١٧، والتى كانت من أبشع المذابح التى عرفها التاريخ الحديث، حيث تآمر فيها الإسرائيليون مع قوات الكتائب اللبنانية وراح ضحيتها عشرات من الرجال والنساء والأطفال، حيث تم التمثيل بالقتلى، وبقرت بطون النساء. وقد أثبتت لجنة التحقيق الإسرائيلية المعروفة بلجنة كاهان تورط الجيش الإسرائيلى فى هذه المذابح، تحت رعاية العديد من كبار قادة إسرائيل من أمثال شارون ورفائيل إيتان وغيرهما.

وقد نشرت كتاباً حول هذه الإبادة الجماعية لسكان مخيمى صبرا وشاتيلا، قدّم له أستاذ الدراسات السامية الدكتور حسن ظاظا - رحمه الله - كما قدم له السيد ياسر عرفات. (٢٣)

٩- مجزرة الحرم الإبراهيمى، وقد وقعت فى ١٩٩٤/٢/٢٥ وراح ضحيتها ٢٩ مصلياً وهم فى صلاتهم. الأمر الذى لم يحدث حتى فى عشر يشوع.

١٠- مذبحة قانا فى لبنان، والتى تم فيها قصف مواقع الأبرياء حيث قتل العشرات على أيدى القوات الإسرائيلية دون تفرقة بين الأطفال والنساء والشيوخ تحت رعاية «راعى السلام» شمعون بيريز. وقد وقعت هذه المحرقة فى ١٩٩٦/٤/١٨، عندما قام الإسرائيليون المعاصرون بقصف مأوى للنساء والأطفال كانت قد وفرته لهم قوات فيجى الدولية لحفظ السلام فى جنوب لبنان، وأحرقت الصواريخ «الذكية» - كما يسميها الإسرائيليون - أكثر من مائة طفل وامرأة وشيخ فى ذلك المأوى.

١١- مذابح إسرائيل تجاه أطفال انتفاضة الأقصى التى بدأت فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ ومازالت حتى كتابة هذه السطور، ومقتل العديد من الأطفال من أمثال محمد الدرة وغيره، ناهيك عن قصف الشعب الأعزل براً وبحراً وجواً، وحصار المدنيين بهدف تجويعهم والقضاء عليهم.

وسجل الإرهاب الدموى الإسرائيلى المعاصر، الذى استمد جذوره من سفرى يشوع والقضاة الذات، سجل حافل لايمكن حصر مافيه من وقائع.

وإذا كانت مذابح ومحارق يشوع والقضاة قابلة للتشكيك فى مصداقيتها - تاريخياً - فإن مذابح العصر الحديث على عكس ذلك، إذ هى مدونة فى ذاكرة العالم المتحضر، ومسجلة فى أرشيف المنظمات الدولية، ومحفورة فى ذاكرة كل الشرفاء، وسارية فى دماء كل من يحمل فى طياته بقية من بقايا الإنسانية التى استبيحت، قديماً على أيدى يشوع والقضاة، وحديثاً على أيدى بن جوريون، وبيجن وشامير وشارون وبارك.

وحول العلاقة بين مذابح العصر الحديث، ومذابح العصر التوراتى القديم، يقول جارودى :

«وفى المرحلة الحالية للتوسع الصهيونى، يسهم الخيال المجنون لحاخامات الأحزاب الدينية من غلاة الداعين إلى الغزو فى تبرير أعتى المغامرات العسكرية الإسرائيلية وفى تأييد مطالب أكثر المتعصبين طغياناً. وليس من قبيل المصادفة ما واكب الغزوة الدموية للبنان من تصريحات لبيجن معلناً فيها أن طائرات العال

لن تحلق فى يوم السبت وعندما تقوم الحكومة بتقديم مثل هذه الألوان من الإرضاء لغلاة المتطرفين فإنها تتلقى فى مقابلها الجزاء الأوفى من ناحية التبريرات العقيدية : فلم يقتصر الحاخام على القول بأن أرض لبنان المحتلة هى أرض قبيلة «عاشو» بل ذهبوا إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينياً من أجل متطلبات القضية، فتدمير مدينتى صور وصيدا، ودك بيروت بالقنابل، ومجازر صبرا وشاتيلا لم تكن فقد امتداداً لمذابح دير ياسين التى ارتكبتها عصابات السيد بيجن عام ١٩٤٨ (المعروفة باسم «إرجون») ومذابح قبية وكفر قاسم، والمذابح التى قام بها قتلة (الوحدة ١٠١) بقيادة شارون، بل إنها كانت باسم الرسالة التوراتية لإسرائيل، وحكومة إسرائيل الحالية تكرر نفس العمل «المقدس» الذى قامت به إسرائيل القديمة من إبادة للكنعانيين، وهى تتصرف اليوم مع العرب كما فعل الأسلاف بالأمس مع الكنعانيين ومع من سبقهم ممن احتلوا هذه الأرض. «إن مدن هذه الشعوب، المورثة إليك من مولاك الرب، هى الوحيدة التى لن تدع مخلوقاً حياً يعيش فيها .. بل ستجعلها محظورة على الحثيين والعموريين والفريزيين، كما أمرك الرب مولاك». أو كما جاء فى الآية «الآن إذن، اضرب أمالك. واحظر عليه كل ما يملك. لا تترك له شيئاً. اقتل الكل، الرجال والنساء والأطفال والرضع، والأبقار والخراف والجمال والحمير».

وهذا التبرير «التوراتى» للقتل، وهذا الإضفاء للشرعية على العدوانات المتتالية وضم أرض الغير من جانب الدولة الصهيونية الحالية التى يقدمونها على أنها الوريث الشرعى والامتداد الطبيعى لإسرائيل التوراتية يجعل اليهود يرضون ويقبلون ما لا يمكن قبوله عقلاً، ويجعل كثيراً من المسيحيين يعتقدون بصحة

بعض الأقوال الكاثوليكية وبصحة أقوال «مدارس الأحد» البروتستانتية وهم يسيرون من غير وعى منهم على سنن الأسطورة الصهيونية التى أثبت علم التفسير منذ قرن، وبخاصة فى السنين الأخيرة عدم صحتها وفندها تفنيداً». (٢٤)

التخطيط العسكرى :

من الطبيعى ألا تتطابق ملامح التخطيط العسكرى الإسرائيلى على نحو ما نجد فى أسفار العهد القديم، وعلى نحو ما نرى ونعاصر الآن. فالبون شاسع بين القرن العشرين بعد الميلاد والقرن الثالث عشر قبل الميلاد.

لكننا لا نعدم وجود توازى بين بعض القضايا التى عرضتها فيما يتعلق بالتخطيط العسكرى الإسرائيلى فى القديم، وما يحدث فى إسرائيل منذ قيامها وحتى الآن.

فالاستعدادات الإسرائيلية للحروب قديماً، تواكبها - حديثاً - استعدادات تختلف فى كمها وكيفها، لكن الجوهر واحد. وهو استعداد هؤلاء القوم - وبصورة دائمة - لوقائع الحروب.

وفيما يتعلق بإعداد القوات المحاربة والذى ضم عدة نقاط رئيسية كالتجنيد وتنظيم القوات والتعبئة المعنوية فإننا نجد ما يلى :

الجو الإسرائيلى العام المعاصر «يعطى للقيم العسكرية، وعلى رأسها النزعة العدوانية المكان الأول، وفى جو ينظر فيها إلى العربى بأنه العدو اللدود». (٢٥)

وقانون التجنيد الوارد فى سفر العدد وسفر التثنية (العدد ٤٧/١؛ التثنية ٤/٢٠-٨؛ ٥/٢٤) لا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن.

فسن التجنيد فى سفر العدد (١/٥ - ٣) هو عشرون عاماً، أصبح فى القانون المعاصر ثمانية عشر عاماً.

والفئات المستثناه فى الماضى (تثنية ٤/٢٠ - ٨) تقلصت حديثاً لتشمل فقط، الأمهات والمرضى والحوامل والمتذرعين بالتدين. (٢٦)

وتنظيم القوات البدائى الذى لا ءم متطلبات عصره فى سفر العدد (١/٢٠ - ٤٥)، وكذلك الوارد فى سفر أخبار الأيام الثانى فى عصر داود (١١/١٥- ٤٧)، والذى اعتمد على «التجانس القبلى»، يقابله تنظيم حديث يلائم كذلك متطلبات العصر الحديث. (٢٧)

أما التعبئة المعنوية التى شهدت معارك الإسرائيليين فى العهد القديم نماذج لها، فمازالت قائمة، وتستند فى أساسها على معطيات التوراة. فالمفكرون العسكريون الإسرائيليون المعاصرون، يرون أن دراسة معارك القرون الغابرة قد تفيد بشكل مباشر فى تلقى الدروس والنتائج المستفادة الملائمة للحرب الحديثة فوق فلسطين. (٢٨)

والأمر ليس قاصراً على جانب التعبئة، فظروف تلك الحروب القديمة وبواعثها وأسبابها هى ذاتها سواء بالنسبة لمشاة الملك سليمان أم لمدرعات الجنزال ديان.

وإذا انتقلنا إلى بعض عناصر فن القتال الإسرائيلى قديماً، وجدنا التجسس قد لعب دوره فى السياسة العسكرية الإسرائيلية منذ عصر موسى (العدد ١٣/١٧ - ٢٠) وحتى زمننا هذا، وقد برعت إسرائيل فى العصر الحديث فى مجال التجسس معتمدة على السلوكيات المميزة لمواطنيها والمؤمنين بها من جانب، وعلى أحدث المعدات الاستطلاعية التجسسية من جانب آخر، حتى باتت إسرائيل من الدول المصدرة لوسائل التجسس إلى سائر الدول، وآخر إنجازاتها فى هذا المضمار تعاقدها على إمداد الصين بمثل هذه الوسائل.

والنشاط العسكرى الإنسانى ربما يتشابه فى مراحل الإنسانية جمعاء، فلقد اعتمد الإسرائيليون فى حروبهم القديمة على الحيل والخدع، كما اعتمدوا على عنصر المفاجأة والمباغتة فى لقاءاتهم مع أعدائهم، وهكذا استثمر المعاصرون ما ادخره لهم الأولون وسجلوه لهم فى التوراة. فمفاجأة يشوع لملوك الأموريين الخمسة (يشوع ٩/١١ - ١٠) لا تختلف فى تكنيكها الأساسى وهو - عنصر المفاجأة - عما فعله الإسرائيليون فى حرب ١٩٦٧ مع ملوك وقادة الدول العربية المجاورة: مصر والأردن وسوريا.

أما تاريخ إسرائيل المعاصر، فيشهد بالعديد من حالات الحصار للقرى والمدن العربية، وقتل وإبادة من فيها، وهو نفس التكنيك الذى استخدمه الآباء الأوائل.

وإذا كانت حروب بنى إسرائيل القديمة قد شهدت - وفقاً لروايات التوراة - العديد من أشكال التحصينات الدفاعية التى تمثلت آنذاك فى القلاع والحصون (القضاة ٦/٢)، والأسوار والبروج (القضاة ٩/ ٥٠ - ٥٤؛ أخبار الأيام الثانى ٢٦/١٤ - ١٥) فإن هذه التكتيكات العسكرية قد تجسدت فى تاريخ إسرائيل العسكرى المعاصر - بكل صورها - فى خط بارليف، الذى أقامته القوات الإسرائيلية شرق قناة السويس، والذى تم تدمير ما فيه من حصون وأسوار وبروج وقلاع فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ومن ناحية أخرى، بنيت العقيدة الحربية الإسرائيلية على عدة أركان من أهمها المستوطنات، بدءاً من أمر الرب بالاستيطان العام فى أرض كنعان ومروراً بسياسة داود الاستيطانية، ومن قبله يشوع، وانتهاءً بالسياسة الإسرائيلية الاستيطانية المعاصرة، والتى تشكل أهم عناصر العقيدة العسكرية الإسرائيلية فى أيامنا هذه. (٢٩)

معدات القتال :

المتتبع لآليات القتال ومعداته التى استخدمها الإسرائيليون فى حروب العهد القديم، يجد أنه لم تكن هناك آلة قتال من ابتكار وصنع الإسرائيليين أنفسهم، ولكن قام بنو إسرائيل بتطوير بعض ما كان يقع فى أيديهم من أسلحة العدو، والأمر لا يختلف كثيراً عما يفعله الإسرائيليون المعاصرون من تطوير لأسلحة أمريكية، وإعادة تصنيعها وتصديرها للأمم المتخلفة فى هذا المجال.

ثمرات الحروب والمعارك :

مع أن العصر الحديث يشهد تنظيمات وقوانين دولية تهيمن على منهج التعامل مع نتائج الحرب، حيث نجد القوانين المنظمة للتعامل مع الأسرى، أو الرافضة لاحتلال الأرض بالقوة، فإن إسرائيلى العصر الحديث - على ما يبدو - مازالوا يعيشون ذكريات الآباء، فهم يستبيحون كل ما تصل إليه أيديهم فى مواقع الحروب والمعارك. وقد لا تبدو الغنائم والأسلاب فى العصر الحديث ذات أهمية كبرى، إذ أن الجبهات لا تضم فى الغالب غير الأسلحة التى لا يختلف

الإسرائيليون عن غيرهم فى الاستيلاء عليها، لكن السلوك الإسرائيلى المتفرد فيما بعد الحروب، هو التعامل مع الأسرى.

ويشهد تاريخ معارك الإسرائيليين المعاصرين بما قاموا به تجاه الأسرى المصريين فى حرب السويس عام ١٩٥٦، حيث اكتشفت مقابر جماعية، تم دفن الأسرى المصريين فيها أحياءً، وهو ما لم تنكره إسرائيل، وما يتفق وسلوكها العسكرى القديم.

أما احتلال الأرض. والذى مثّل الهدف الأسمى، والعقيدة العسكرية الكبرى فى معارك إسرائيل الماضية، فقد استمر كمحرك ودافع رئيسى للإسرائيليين فى معاركهم المعاصرة، فما من حرب خاضوها، إلا وكان الدافع من ورائها دائماً احتلال الأرض، وهكذا كانت نتائج حرب ١٩٤٨، وحرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، وغزو لبنان فى الثمانينيات.

وأخيراً، لعلنا قد وفقنا بعد هذا العرض للحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى فى تأصيل مفهوم هذا النشاط العسكرى ورسم أبعاده الراسخة، التى شكلت الخلفية التراثية العسكرية للإسرائيليين الآن.

الهوامش

١- جون لافين، العقلية الإسرائيلية، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة (٧٥) القاهرة، ١٩٨١، ص ١٦١، نقلاً عن رشاد عبد الله الشامي، القوى الدينية فى إسرائيل، عالم المعرفة (١٨٦)، الكويت، ١٩٩٤، ص ٤٥.

٢- رشاد عبد الله الشامي، القوى الدينية فى إسرائيل، بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة (١٨٦)، الكويت، ١٩٩٤، ص ٥٠.

٣- جولدبيرج، جوناثان، قوة اليهود فى أمريكا، ترجمة نهال الشريف، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٧.

٤- انظر على سبيل المثال : جالينا نيكتينا، دولة إسرائيل : خصائص التطور السياسى والاقتصادى، دار الهلال، القاهرة، د.ت، ص ١٥.

٥- لانداو، ديفيد، الأصولية اليهودية : العقيدة والقوة، ترجمة مجدى عبد الكريم، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨٥.

٦- المرجع السابق، ص ٨٦ - ٨٧.

٧- حول هذا الدور انظر دراستنا بعنوان : صورة اليهودى المتدين فى الرواية العبرية المعاصرة، فى : الأدب المقارن، قضايا وتطبيقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٨٥ - ٢٢٤.

٨- روبنشتاين، دانى، غوش امونيم : الوجه الحقيقى للصهيونية، ترجمة غازى السعدى، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٣، ص ١٥.

٩- عادل محمود رياض، الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩، ص١٩ - ٢٠.

١٠- محمد خليفة حسن، الشخصية الإسرائيلية : دراسة فى توجهات المجتمع الإسرائيلى نحو السلام، مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية (العدد ٢) د.ت، ص ١٠.

١١- المرجع السابق، ص ١٧.

١٢- هناك دراسة قيمة حول هذا العنصر الإسرائيلى للدكتور قدرى حفنى بعنوان : الإسرائيليون من هم ؟ دراسة نفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨.

١٣- انظر : محمد خليفة حسن، الشخصية الإسرائيلية، المرجع السابق، ص ١٩ وما بعدها.

١٤- المرجع السابق، ص ٢٣.

١٥- جارودى، روجيه، ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية، دار الشروق، ١٩٨٣، ص ٣٣ ومابعدها.

١٦- جارودى، روجيه، المرجع السابق، ص ٤٩.

١٧- روكاخ، ليفيا، إرهاب إسرائيل المقدس، ترجمة مصطفى درويش، منشورات دار الكرمل، عمان، ١٩٨٧، ص ٢٩.

١٨- للمزيد حول هذه العمليات انظر : غازى السعدى (إعداد)، مجازر وممارسات : ١٩٣٦ - ١٩٨٣، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٥، ص ٣٥ ومابعدها.

١٩- انظر تفاصيل العملية فى : المرجع السابق، ص ٣٧ - ٤٢.

٢٠- هاليفى، إيلان، إسرائيل من الإرهاب إلى مجازر الدولة، ترجمة فارس غريب، دار المناير، بيروت، ١٩٨٥، ص ٧٠ - ٧٩.

٢١- انظر : الوعد، نشرة خاصة نصف شهرية، تصدرها حركة المقاومة الإسلامية بفلسطين، العدد ٢٧، ١٦/٤/٢٠٠٠، ص ١٢ - ١٣.

٢٢- انظر غازى السعدى، مجازر وممارسات، المرجع السابق، ص ٨٤ - ٩٣.

٢٣- محمد جلاء إدريس، مذبحة المخيمات، دار الناصر للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٤.

٢٤- جارودى، روجيه، ملف إسرائيل، المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٢.

٢٥- بيرنز- الجنرال، بين العرب والإسرائيليين، لندن، ١٩٦٢، ص ٦٨ نقلاً عن : محمود شيت خطاب، الوجيز في العسكرية، الإسرائيلية، دار الاعتصام، ط٣، ١٩٧٧، ص ٥٩.

٢٦- محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص ٦٥.

٢٧- حول هذا التنظيم الحديث للقوات العسكرية الإسرائيلية ونظام التجنيد انظر : محمود شبت خطاب، المرجع السابق، ص ٧٢ ومابعدها.

٢٨- هيثم الكيلانى، المذهب العسكرى الإسرائيلي، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، سلسلة كتب فلسطينية رقم (١٩)، نقلاً عن صلاح زكى أحمد، نظرية الأمن الإسرائيلى، دار الوسام، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢١.

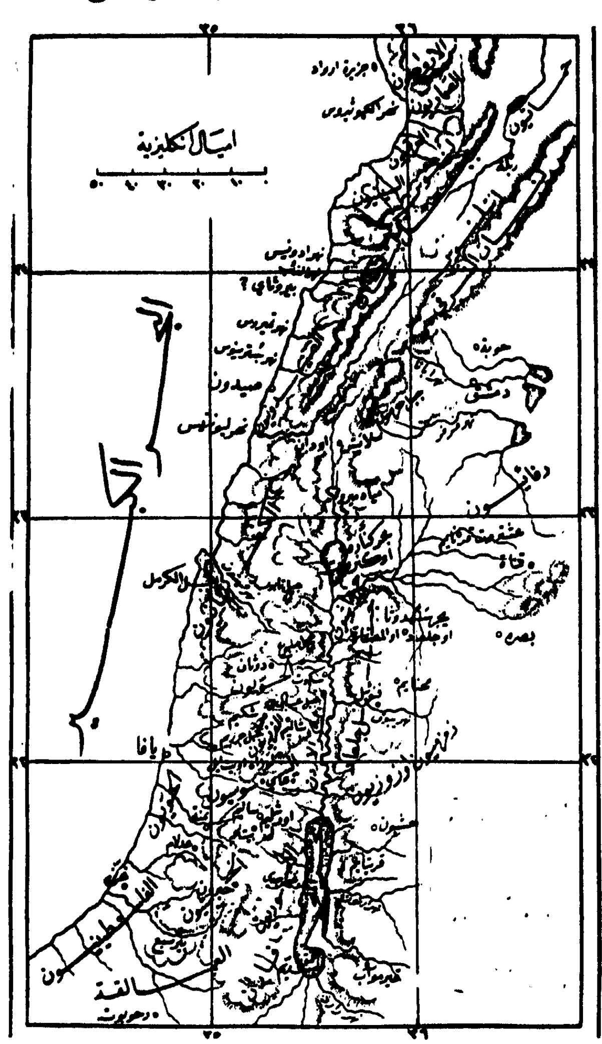
٢٩- حول الاستيطان فى الفكر الإسرائيلى قديماً وحديثاً، القيت بحثاً بعنوان : الاستيطان فى الفكر الإسرائيلى، فى السيمينار الاكاديمى الدولى، الذى عقد فى نيو دلهى من ٣ - ١٤ يونيو ١٩٩٨، ونظمه معهد الدراسات الاسلامية والعربية، بينت فيه الجذور التوراتية للسياسة الاستيطانية المعاصرة، مع بيان لمناطق الاستيطان الإسرائيلى فى فلسطين منذ قيامها، وحتى ما بعد اتفاقيات السلام.

ملحـــق خـــرائـــط

التاريـخ العسـكرى لبنـى إسـرائيل (*)

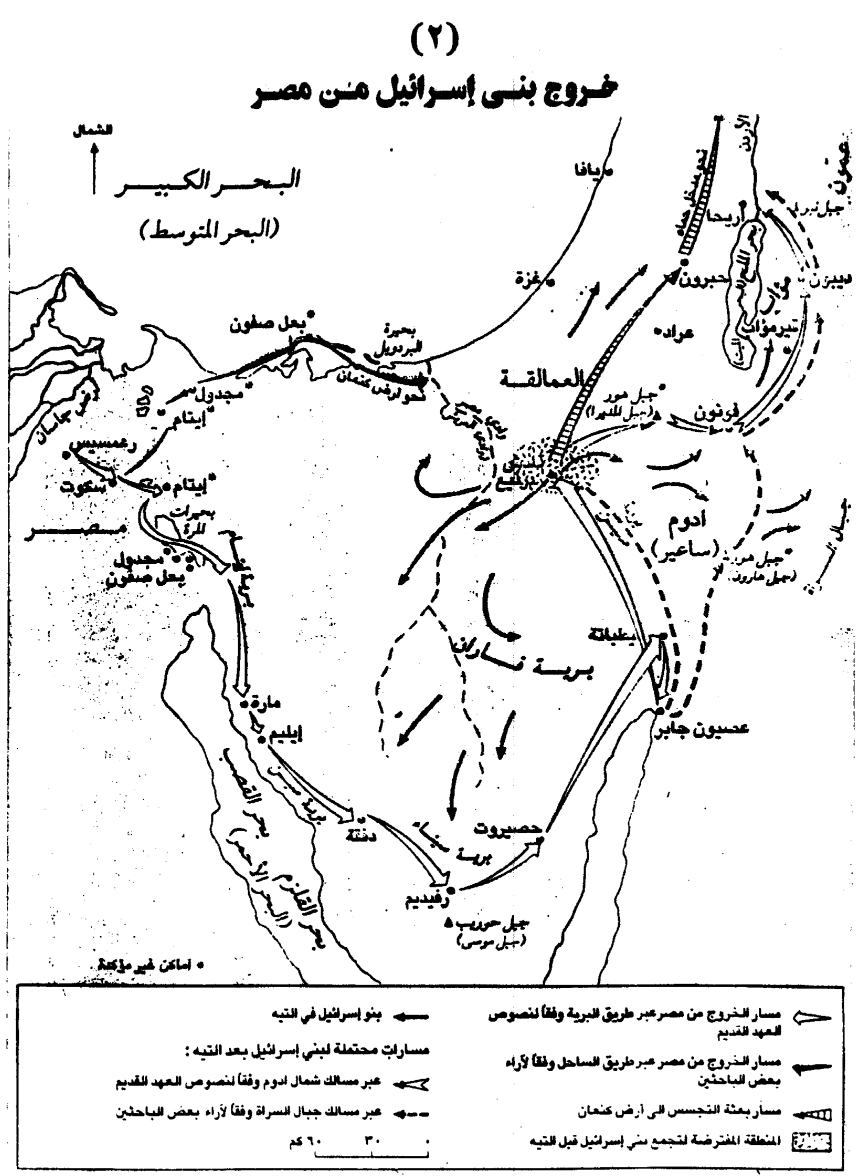
(*) هذه الخرائط مأخوذة عن نفس المراجع والمصادر التى رجعنا إليها فى هذه الدراسة.

(١)
أرض كنعان قبل الغزو الإسرائيلى

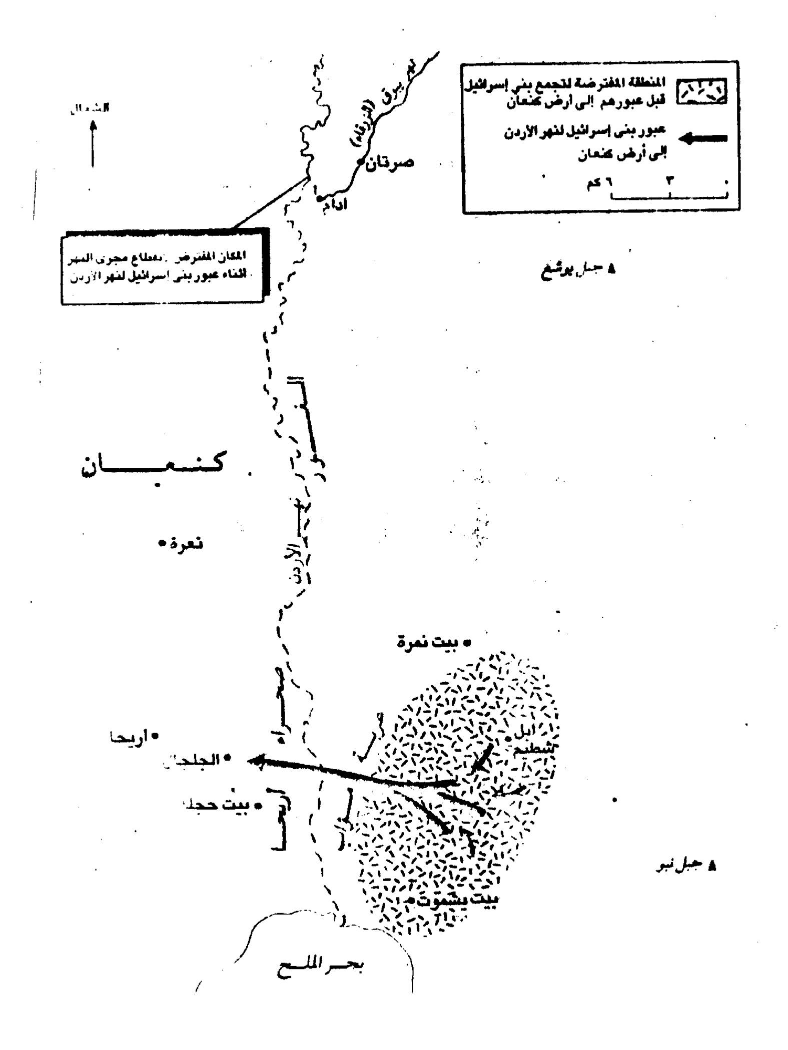


(٢)

خروج بني إسرائيل من مصر



(٣)
العبــور إلــى أرض كنعــان



(٤)

موقعة عاى

المرحلة الاولى

الشمال

تقهقر جيش يشوع في محاولة لإستدراج جنود مدينة العي خارج مدينتهم

خروج جنود العي من مدينتهم لملاحقة جيش يشوع

بيت إيل

العي

تمركز جيش يشوع

كمين للجنود الذين أرسلهم يشوع

أريحا

تحركات جيش يشوع

تحركات جنود العي

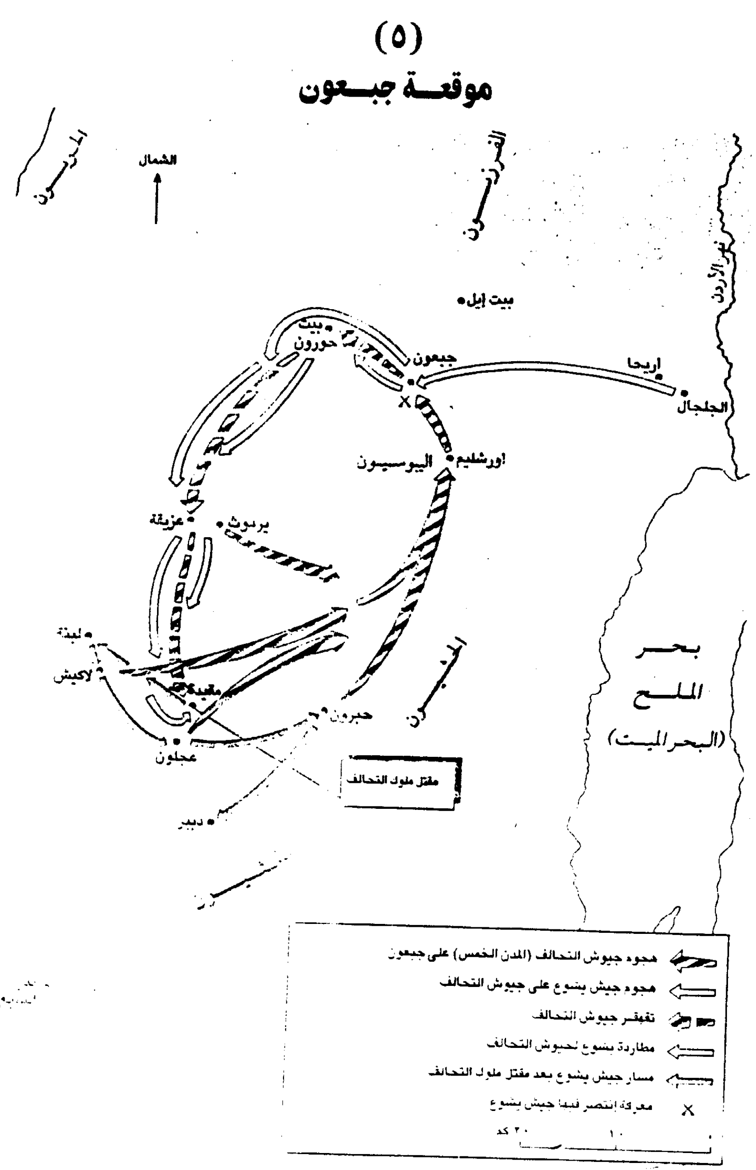
X معركة إنتصر فيها جيش يشوع

٠ ٢.٥ ٥ كم

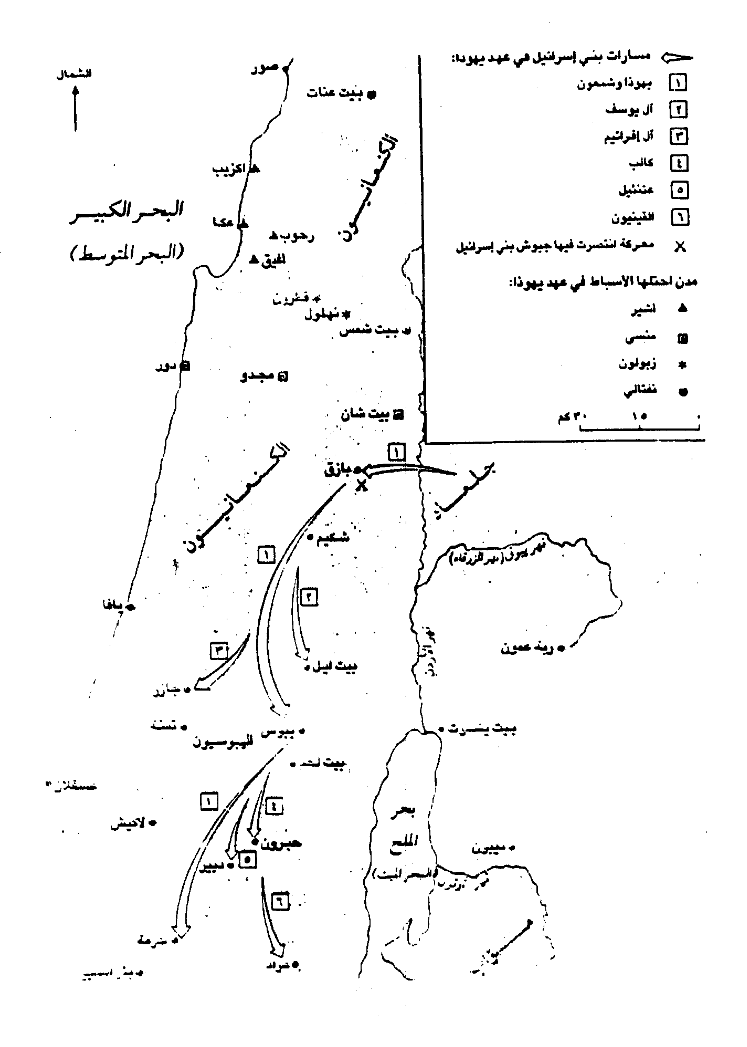
المرحلة الثانية

إرتداد جيش يشوع على جنود مدينة العي وإبادتهم

أريحا


(٥)
موقعة جبعون
الشمال
نهر الأردن
بيت إيل
بيت حورون
جبعون
اريحا
الجلجال
اورشليم
اليبوسيون
عزيقة
يرموث
لبنة
لاكيش
مقيدة
عجلون
حبرون
دبير
مقتل ملوك التحالف
بحر الملح
(البحر الميت)
هجوم جيوش التحالف (المدن الخمس) على جبعون
هجوم جيش يشوع على جيوش التحالف
تقهقر جيوش التحالف
مطاردة يشوع لجيوش التحالف
مسار جيش يشوع بعد مقتل ملوك التحالف
معركة إنتصر فيها جيش يشوع
١٠
٢٠ كم

(٦)
حروب يهوذا



مسارات بني إسرائيل في عهد يهودا:
١ يهوذا وشمعون
٢ آل يوسف
٣ آل إفرائيم
٤ كالب
٥ عتنئيل
٦ القينيون
X معركة انتصرت فيها جيوش بني إسرائيل
مدن احتلها الأسباط في عهد يهوذا:
اشير
منسى
زبولون
نفتالي
٠ ١٥ ٣٠ كم
الشمال
صور
بيت عنات
الكنعانيون
اكزيب
البحر الكبير
(البحر المتوسط)
عكا
رحوب
افيق
قطرون
نهلول
بيت شمس
دور
مجدو
بيت شان
الكنعانيون
بازق
جلعاد
شكيم
نهر يبوق (نهر الزرقاء)
يافا
ربة عمون
بيت ايل
جازر
نهر الأردن
بيت يشمرت
تمنه
يبوس
اليبوسيون
بيت لحم
بحر الملح
لاكيش
حبرون
ميدبا
دبير
صرمة
عراد

(٧)

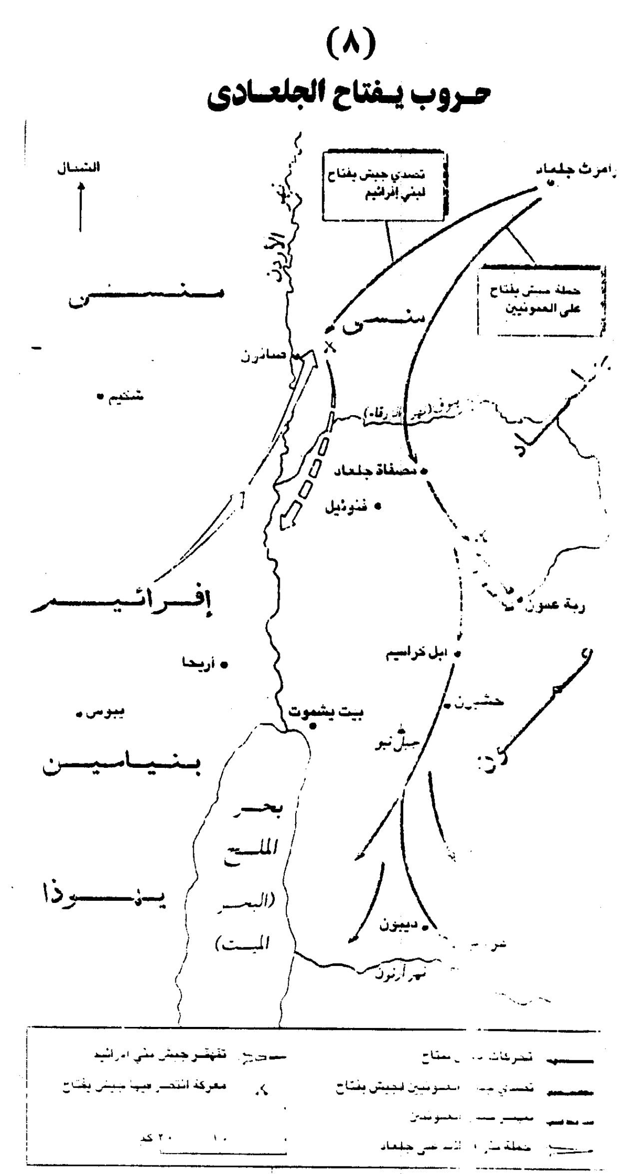
حـرب جدعـون (موقعة تل المورة)

مجوم جيش جدعون
تقهقر جيش المدينيين
مطاردة جيش جدعون لجيش المدينيين
مطاردة رجال إفرائيم للجنود المدينيين
معسكر المدينيين
معركة انتصر فيها جيش جدعون
١٠ ٢٠ كم

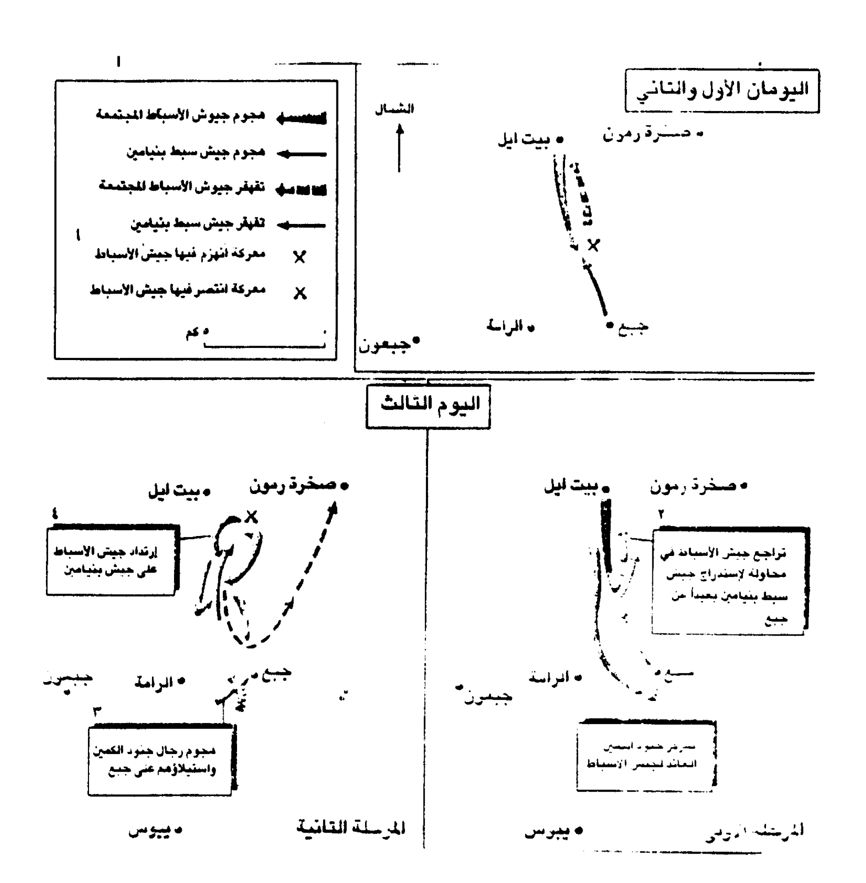
شمال
بحر الجليل
(بحيرة طبريا)
قادش نفتالي
جبل تابور ٥٨٨
ساريد
تل المورة
مجدو
سهل يزرعيل
عين حرود
بيت شطة
بيت شان
جبل جلبوع
مكان تجمع بني إسرائيل قبل الهجوم بقيادة جدعون
نهر الأردن
إبل محولة
سكوت
(نهر الزرقاء)
سمي المكان حجر عوريب بعد مقتل القائد المديني عوريب
حجر عوريب
أريحا
بنيامين
بسموت
بحر الملح

(٨)

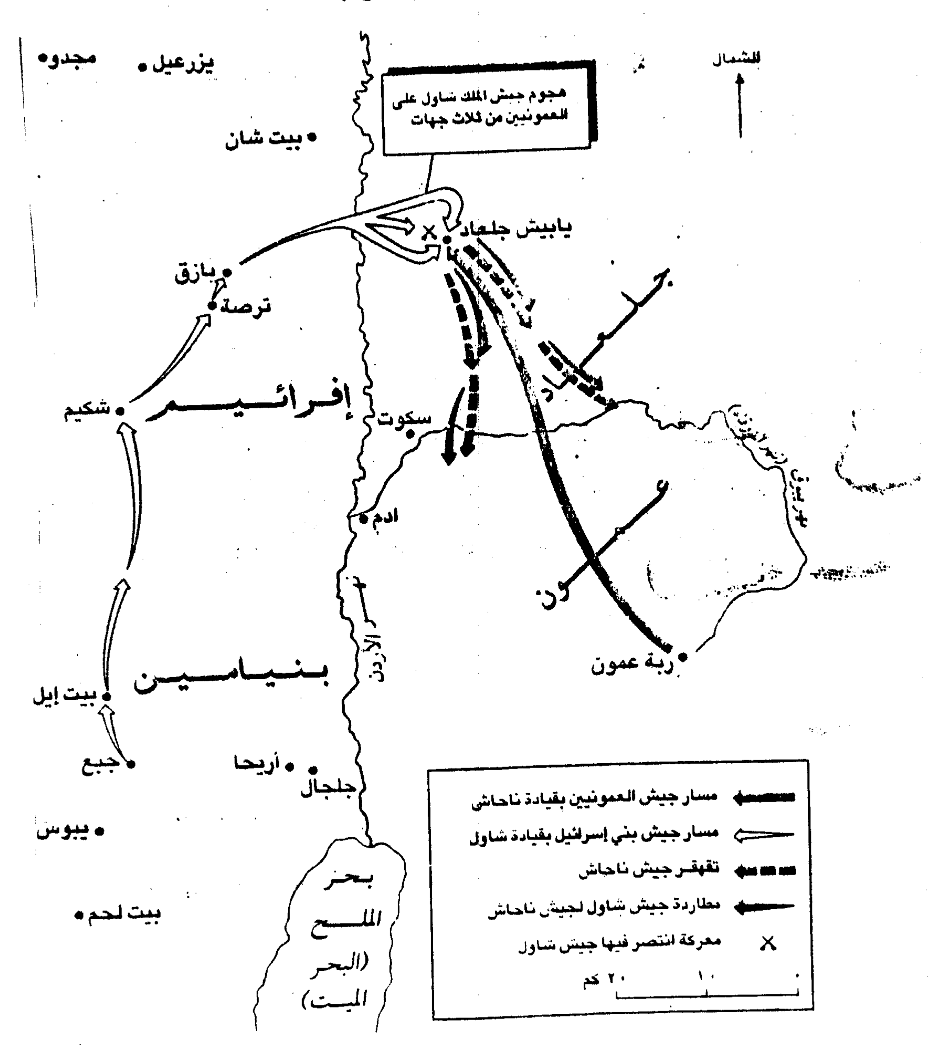
حروب يفتاح الجلعادى



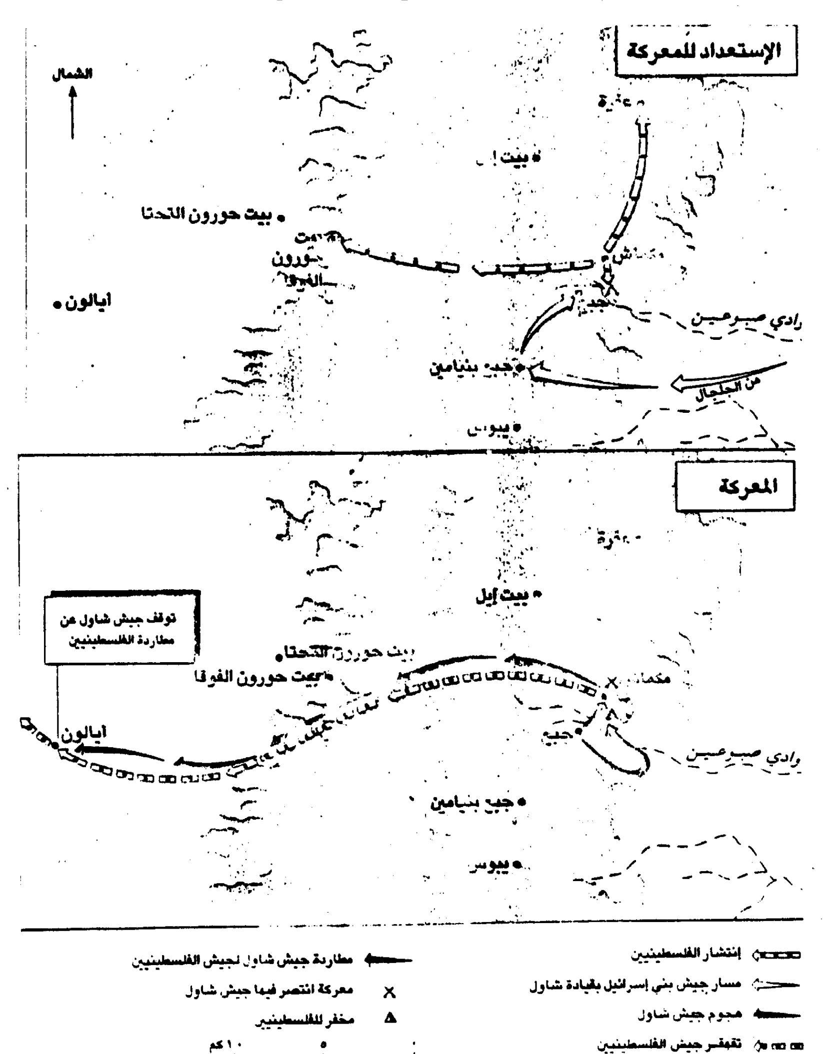
(٩)
الحـرب بين سـبط بنيامين وباقى أسـباط إسرائيل



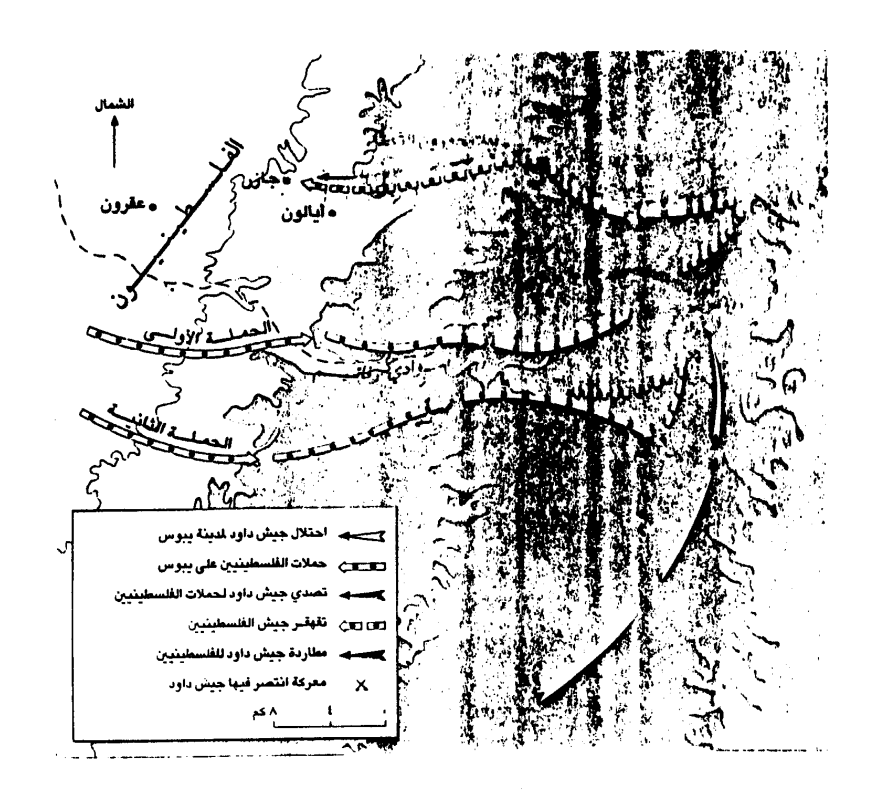
(١٠)
موقعة يابيش جلعاد



(١١)
موقعة مكماش (مخماس)



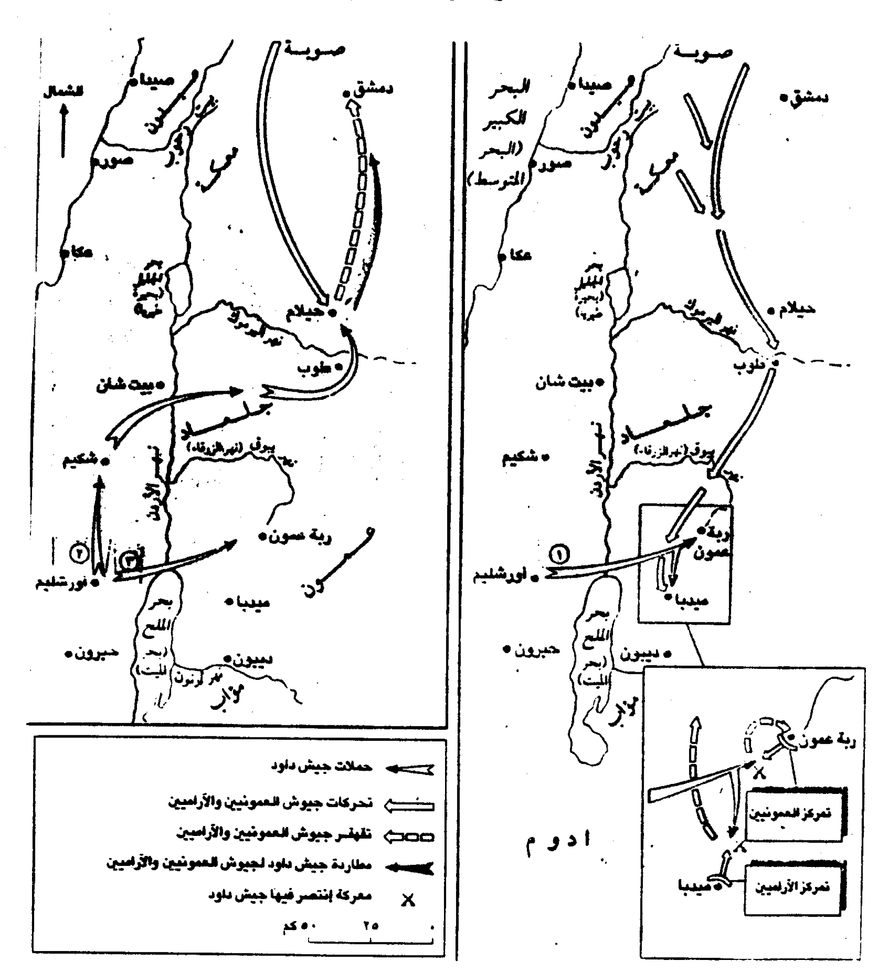
(١٢)
مـوقعـة وادى رفائيـم



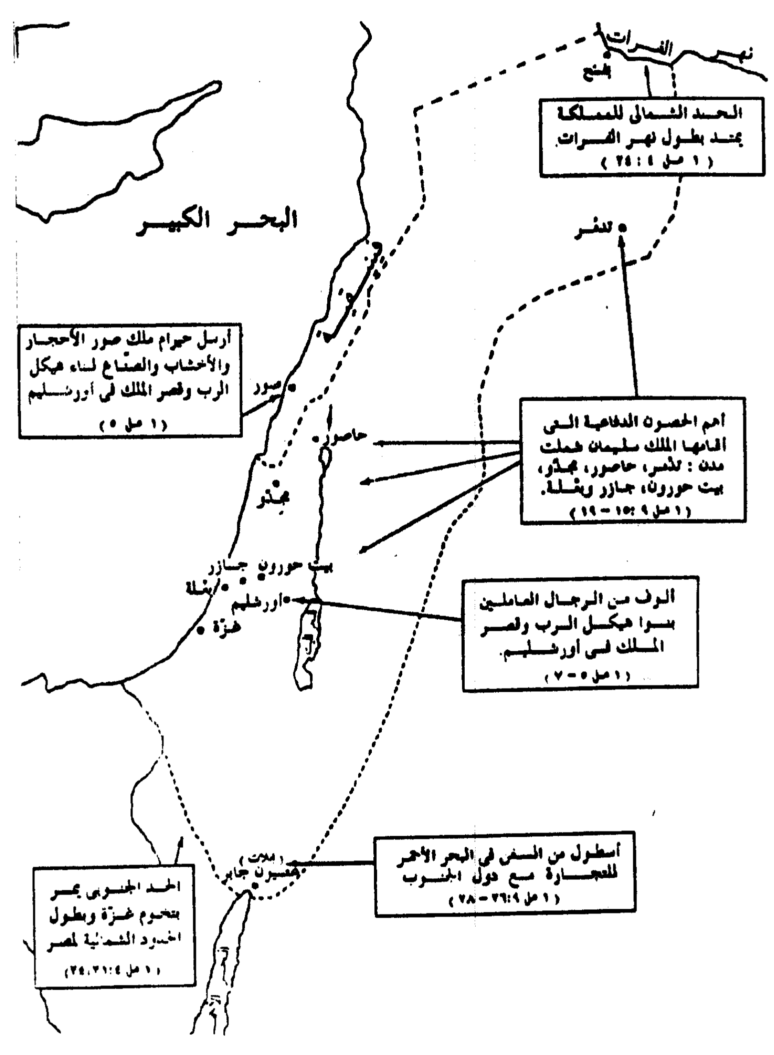
(١٣)

حروب داود ضد العمونيين وحلفائهم الآراميين

معـركة ربـة عمـون

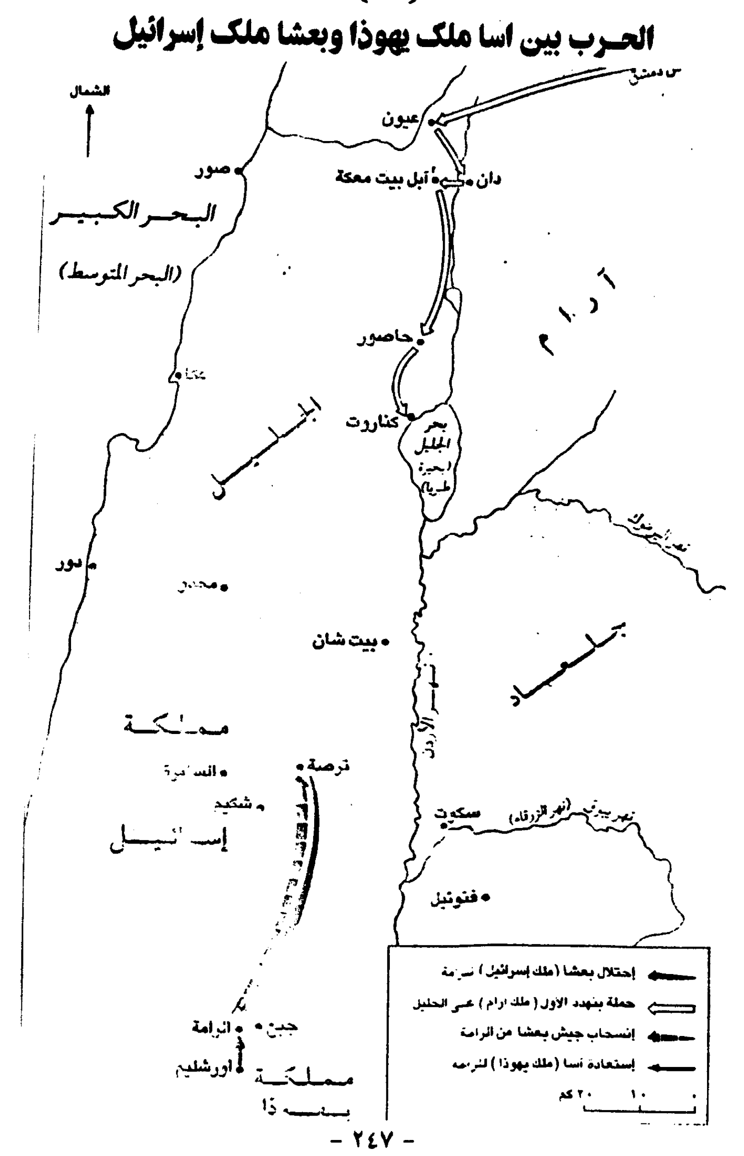


(١٤)
المملكة فـي عهـد سـليمان

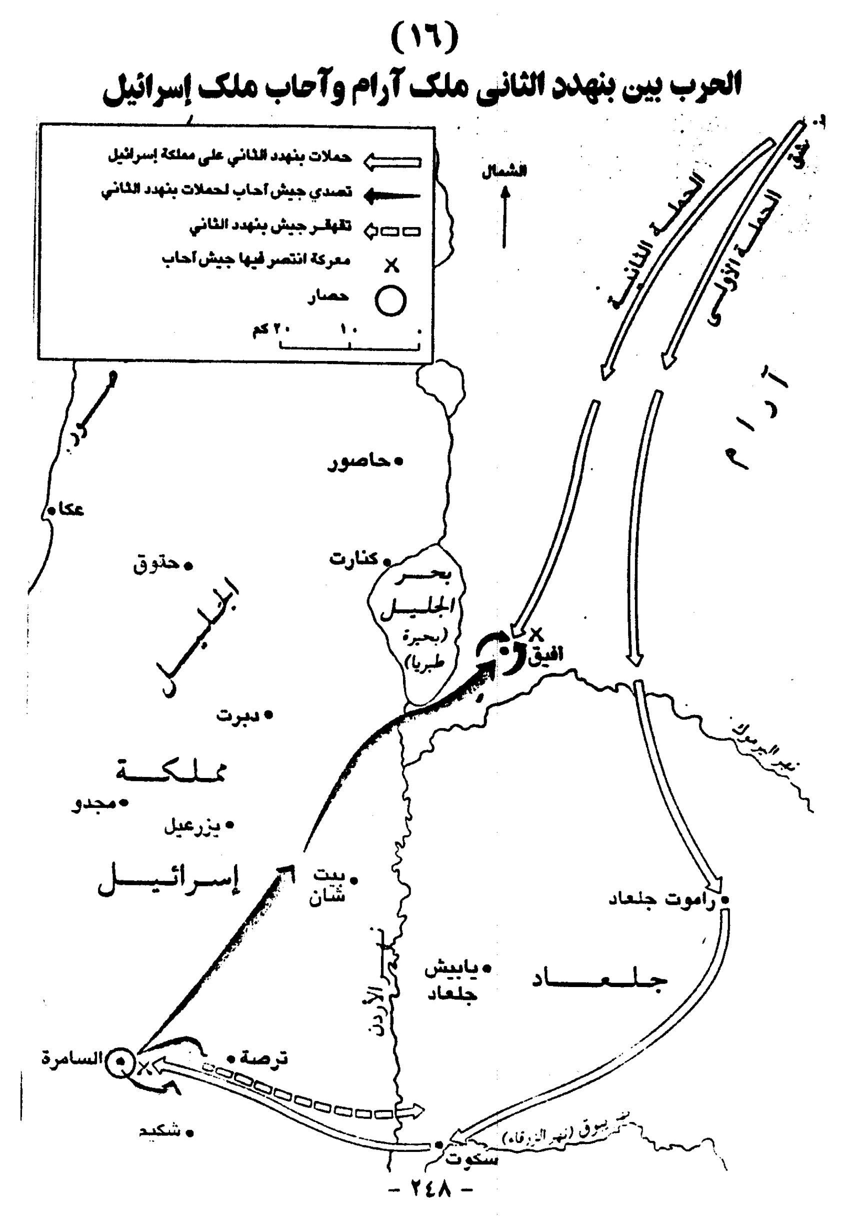


(١٥)

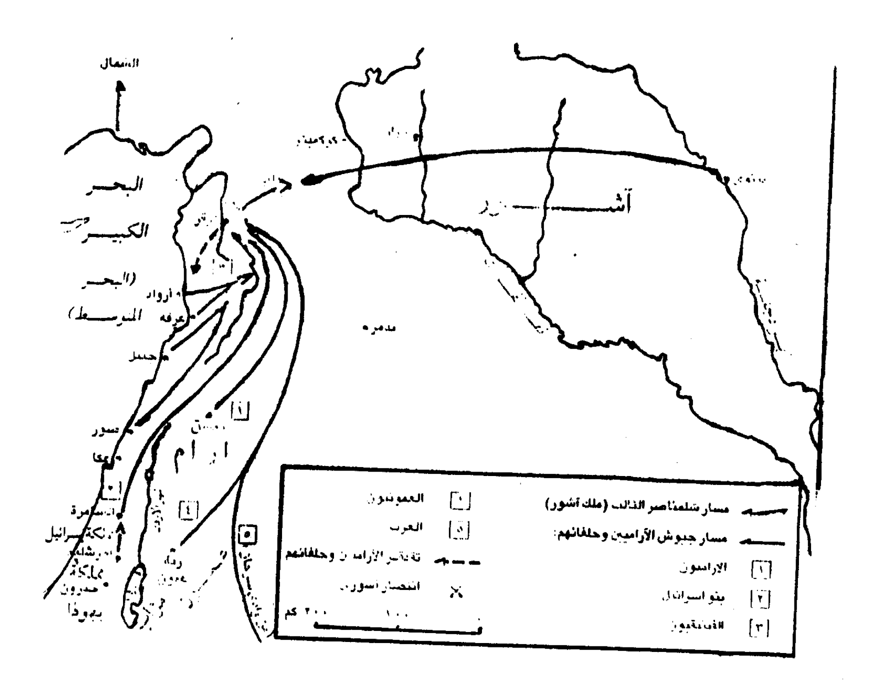
الحـرب بين اسا ملك يهوذا وبعشا ملك إسرائيل



(١٦)
الحرب بين بنهدد الثاني ملك آرام وآحاب ملك إسرائيل



(١٧)
موقعة قرقر



المصـــادر والمراجـــع

أولاً : العربيـــة :

أحمد أبو زيد،

الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥.

أحمد عبد المقصود،

أشعار الحرب والسلام في العهد القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠٠٠م.

أرمان أدولف،

ديانة مصر القديمة، نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، مصطفى الحلبي، القاهرة، د.ت.

برستيد هنري،

فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، سلسلة الألف كتاب (١٠٨)، القاهرة، د.ت.

بطرس عبد الملك وآخرون،

قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، ط٦، ١٩٩٨

تيلور، فيليب،

قصف العقول، ترجمة سامي خشبة، عالم المعرفة (٢٥٦)، الكويت، ٢٠٠٠.

توماس، ل، واطسون،

التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سواح، بيروت، ١٩٩٥

جارودي، روجيه،

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة محمد هشام، دار الشروق، القاهرة، ط٢ ١٩٩٨.

ملف إسرائيل، دراسة للصهيونية السياسية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣.

جولدبيرج، جوناثان.

قوة اليهود فى أمريكا، ترجمة نهاد الشريف، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧.

حسن الحاج حسن،

الأسطورة عند العرب فى الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨.

داندس، فرانسيس (إعداد)،

تفسير الكتاب المقدس، منشورات النفير، بيروت، ط٣ ١٩٨٦.

رشاد عبد الله الشامي،

القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة (١٨٦) الكويت، ١٩٩٤.

رشاد فكري،

شرح سفر حزقيال، مكتبة كنيسة الأخوة بشبرا، القاهرة، د.ت.

روبنشتاين، دانى،

جوش إمونيم، الوجه الحقيقى للصهيونية، ترجمة غازى السعدى، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٣.

روكاخ، ليفيا،

إرهاب إسرائيل المقدس، ترجمة مصطفى درويش، منشورات دار الكرمل، عمان، ١٩٨٧.

زكى شنودة،

المجتمع اليهودى، مكتبة الخانجى، د.ت.

سامية أسعد،

الأسطورة فى الأدب الفرنسى المعاصر، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥.

سليمان مظهر،

قصة الديانات، دار الوطن العربى، د.ت.

شفيق مقار،

المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٢.

صلاح زكى أحمد،

نظرية الأمن الإسرائيلى، دار الوسام، بيروت، ١٩٨٦.

عادل محمود رياض،

الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨.

عبد الحميد زايد،

الشرق الخالد، مقدمة فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى ٣٢٣ ق.م، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧.

على عبد الواحد وافى،

غرائب النظم والتقاليد والعادات، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، د.ت.

غازى السعدى، (إعداد)

مجازر وممارسات : ١٩٣٦ - ١٩٨٣، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٥.

فتحى محمد الزعبى،

القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود، طنطا، ١٩٩٠.

فراس السواح،

الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط٣ ١٩٩٧.

الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧

فريزر، جيمس،

الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة نبيلة ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

فوزى فهمى،

المفهوم التراجيدى والدراما الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.

قدرى حفنى،

الإسرائيليون : من هم؟ دراسة نفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨.

كمال الصليبى.

التوراة جاءت من جزيرة العرب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤ ١٩٩١.

كنيون، كاثلين، م،

الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة شوقى شعث وسليم زيد، دار الجليل، ١٩٩٠.

كونتينو، ج.،

الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مركز الشرق الأوسط، القاهرة، د.ت.

لانداو، ديفيد،

الأصولية اليهودية، العقيدة والقوة، ترجمة مجدى عبد الكريم، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٤.

لطفى عبد الوهاب يحيى،

الأسطورة والحضارة والمسرح فى مأساة «أوديب ملكاً»، عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥.

ليو تاكسل،

التوراة كتاب مقدس أم جمع من أساطير، ترجمة حسان ميخائيل اسحق، د.ن، ١٩٩٤.

متى المسكين،

تاريخ إسرائيل، القاهرة، ١٩٩٧.

محمد جمال الدين محفوظ،

المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦.

محمد جلاء إدريس،

مذبحة المخيمات، دار الناصر للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٤.

الأدب المقارن، قضايا وتطبيقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩.

محمد خليفة حسن،

ظاهرة النبوة الإسرائيلية، دار الزهراء، القاهرة، ١٩٩١.

رؤية عربية لتاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، د.ن، القاهرة، ١٩٩٥.

الشخصية الإسرائيلية، دراسة فى توجهات المجتمع الإسرائيلى نحو السلام، مركز الدراسات الشرقية- جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية (٢)، ١٩٩٨.

محمود شيت خطاب،

الوجيز فى العسكرية الإسرائيلية، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣ ١٩٧٧.

موسكاتى، سبتينو،

الحضارات السامية، ترجمة السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

نيكتينا، جالينا،

دولة إسرائيل، خصائص التطور السياسى والاقتصادى، دار الهلال، القاهرة،، د.ت.

هاليفى، إيلان،

إسرائيل من الإرهاب إلى مجازر الدولة، ترجمة فارس غريب، دار المنابر، بيروت، ١٩٨٥.

وايتلام، كيث،

اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة سحر الهنيدى، عالم المعرفة (٢٤٩)، الكويت، ١٩٩٩.

ياسين سويد،

التاريخ العسكرى لبنى إسرائيل من خلال كتابهم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٨.

ثانياً : الإنجليزية :

Anderson, B.,

Understanding The Old Testament, Englewood Cliffs, N.J., 1957.

Baynes, H., N.,

Israel Amongest The Nations, London, 1929.

Chase. M.,E.,

Life and Languuge in The Old Testament, London, 1956.

Dimont, M.,

Jews, God And History, New York, 1962.

Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, 1972.

Hermann, S.,

A History of Israel in the Old Testament, London, 1975.

Hobbs, T., R.,

A Time For War, A Study of Warfare in The Old Testament, Wilin nington, U.S.A., 1989.

Little, W.,

The Shorter Oxford English Dictionary, Oxford, 1965.

Mayers, A.,

Deuteronomy. New Century Bible, London, 1979.

Niditch, S.,

War in Hebrew Bible, A study of The Ethics of Violence, Oxford University, N. Y., Oxford, 1993.

Oesterley, W & Robinson, T.,

Hebrew Religion : its Origin and Development, London, 1944.

Rich, J. & Shipley,G., (eds.)

"War and Society" : in The Greek World, London, New York, 1995.

Smith, R.,H.,

Old Testament History : The Book of Joshua, Abingdon Press, Nash-velle, 1983.

Walton, C., (ed.)

A Basic Introduction to The Old Testament, London, 1970

Weinfield, M.,

Deuteronomy and The Deuteronomic School, Oxford, 1972.

من إصدارات المركز :

* ظاهرة النبوة الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* جامع التعريب	تحقيق وشرح نصوص أونال قره أرسلان
* دليل وثائق الجنيزا	لجنة الجنيزا بالمركز
* الحساب القومى	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الشخصية الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* الصهيونية الدينية	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الحركة الصهيونية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* المجتمع الإسرائيلى	ترجمة د. / محمد أحمد صالح
* اسلام حقائق اور الزامات	ترجمة د. / يوسف عامر
* أدب المهجر الشرقى	تأليف د. / محمد عبد الرحمن الربيّع
* الكلام والفكر والشىء	ترجمة د. / محمد صالح الضالع
* قاموس المختصرات العبرية	إعداد د. / شعبان محمد سلام
* الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية	نقله إلى العربية د./ أحمد محمود هويدى
* حكايات أيسوبوس	ترجمة ودراسة د./ صلاح محجوب
* البعد الدينى للصراع العربى الإسرائيلى	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* اتجاهات التراجم والتفاسير القرآنية فى اللغة الأردية	تأليف أ.د / سمير عبد الحميد إبراهيم
* الجنيزا والمعابد اليهودية فى مصر	تأليف أ.د/محمد خليفة حسن والأستاذ النبوى سراج
* سياسة إسرائيل فى طرد السكان العرب	ترجمة وتعليق د. محمد أحمد صالح
* الرموز الدينية فى اليهودية	تأليف أ.د/ رشاد عبد الله الشامى
* الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى الحاضر والمستقبل	تأليف أ.د/ أحمد فؤاد متولى ود. هويدا محمد فهمى
* المشكلة الكردية	ترجمة وتعليق / أ.د محمد علاء الدين منصور

* رسالة المشرق « مجلة دورية محكمة »

* المسرح الإيرانى	تأليف / د. عبد الوهاب علوب .
* الأدب الفارسى عند يهود إيران	ترجمة / أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
* الصراع الدينى العلمانى داخل الجيش الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد محمود أبو غدير
* الأقليات المسلمة والصراعات فى الكومنولث	تأليف د. / هويدا محمد فهمى
* الشخصية الفلسطينية فى القصة العبرية القصيرة	تأليف د./ محمود على صميده
* مستوطنة معالية أدوميم وانتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى	ترجمة د. / عبد الوهاب محمود وهب الله
* يهود مصر « دراسة فى الموقف السياسى »	تأليف د. / محمود عبد الظاهر

رقم الإيداع ٧٨٥٢/ ٢٠٠١